

مع عرض لآراء كبار رجال الدين والأدب
بمصر والحجاز قديما وحديثا

وضع واختيار
الحاج عباس كراره

الطبعة الأولى

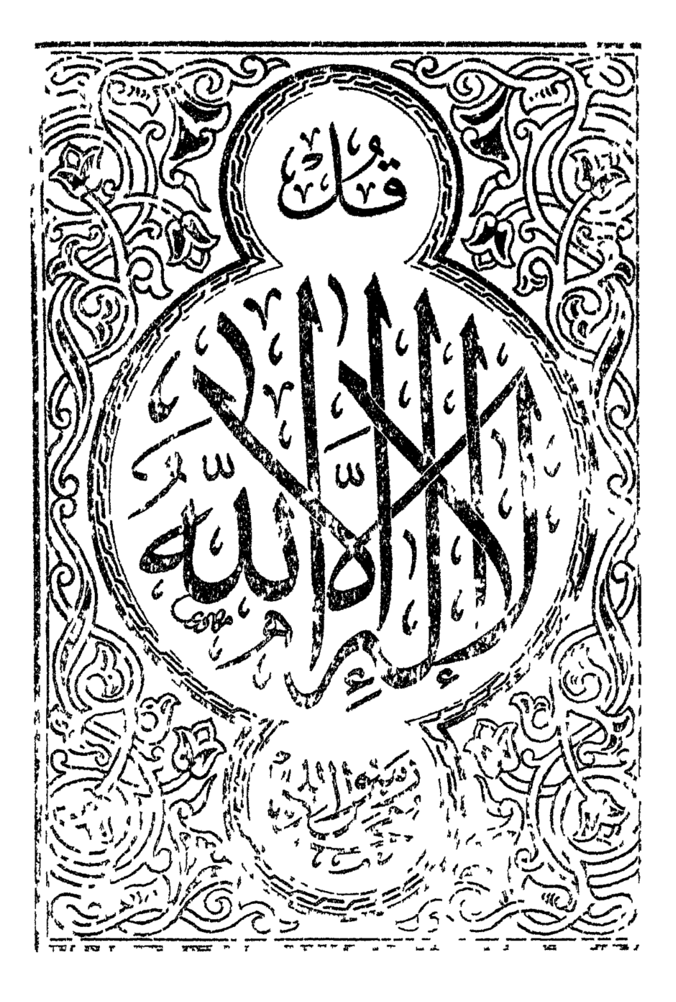
ريال سعودي بمكة
١٠ قروش بمصر

يطلب من المكاتب الشهيرة بمصر ومكة والمدينة وغيرها الموضحة بآخر الكتاب



من آراء كبار رجال الدين والأدب
... الحجاز قديما وحديثا

جمع وإعداد


قل
لا إله إلا الله

إهداء الكتاب

لِكُلِّ مُسْلِمٍ وَمُسْلِمَةٍ

إلى الذين يبتغون وجه الحق ويؤمنون بالله واليوم الآخر ويعبدون ربهم على بصيرة فى دينهم .

أتشرف بإهداء كتابى هذا

راجياً من الله تعالى حسن القبول .

عباس كراره

الغرض الذى نتوخاه فى مؤلفاتنا

(١) نشر الثقافة الإسلامية بين أبناء الأمم الإسلامية .

(٢) تبسيط الأحكام الشرعية ، وعرضها بأسلوب سهل جذاب .

(٣) الدفاع عن عقيدة التوحيد بكل ما أوتينا من قوة .

(٤) تشويق الناشئة الإسلامية إلى أسرار الرسالة المحمدية وبيان ما اشتملت عليه من خير وجمال كفيلين بإسعاد البشرية عن بكرة أبيها .

(٥) محاربة البدع المجافية لروح الإسلام .

(٦) الدعوة إلى الفضيلة وبثها فى نفوس أفراد الأمم .

(٧) تثقيف الفتاة وإعدادها للأمومة الطيبة .

(٨) تعبيد سبيل السعادة للمسلمين فى تمسكهم بدينهم الحنيف .

تطبع وتباع هذه الكتب بتكاليفها الأصلية



الحمد لله الواحد الأحد الفرد الصمد والصلاة والسلام على إمام المتقين وقدوة الموحدين وبعد :

فإن توحيد الله سبحانه وتعالى أصل العبادات ، ومصدر الهدايات والمميز بين المؤمن والمشرك .

وأن أعظم ما يتقرب به العبد إلى ربه دعوة الناس إلى توحيد ربّ العالمين وإرشادهم إلى الدين القويم ، وهدايتهم إلى الصراط المستقيم .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل رضى الله عنه : « لأن يهدى الله بك رجلا واحداً خير لك من الدنيا وما فيها » .

وقد وفقنى الله تعالى إلى وضع مؤلف أسميته (الدين والشهادة) وهو يحتوى على أقسام ثلاثة :

الأول فى الدين ، والثانى فى التوحيد ، والثالث فى الرسالة المحمدية ، وقد راعيت فى كتابى هذا سهولة الأسلوب ، وعدم التطويل ، ولزيادة الانتفاع به وحب الخير ، رأيت أن أدون كل مقال نافع ، وبحث مفيد

ورأى صاحب مما دبجته أقلام كبار رجال الدين والأدب في مصر والحجاز قديماً وحديثاً .

وإني أحمد الله تعالى وأثني عليه بما هو أهله ، أن يسر لي فضلا منه وكرماً ، العمل على خدمة هذا الدين الحنيف ، وسلك بي مسلك الداعين إلى الخير والهادين إلى الرشاد ، فوفقني سبحانه وتعالى لإخراج هذا الكتاب المبارك ، الذي جاء بحمد الله تحفة نادرة المثال ، كما وفقني سبحانه وتعالى لإخراج أخويه من قبله ، وهما : كتاب الدين والصلاة ، وكتاب الدين والحج على المذاهب الأربعة . وقد قرّظته مشيخة الأزهر الجليلة . وقد عمّ نفعهما وعظم عند الناس موقعهما .

وأرجو الله أن أكون قد وفقت فيما قصدت فإن أصبت فالفضل لله وحده ، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .



القاهرة شبرا شارع الكردى ٣٤
مكة المكرمة شارع المسعى

تمهيد

إن العاقل إذا فهم هذا الكتاب وبلغ نهاية علمه فيه، ينبغي له أن يعمل بما علم منه لينتفع به؛ ويجعله مثالاً يحتذيه. فإذا لم يفعل ذلك، كان مثله كالرجل الذي زعموا أن سارقا تسور عليه وهو نائم في منزله. فعلم به فقال: والله لأسكتن حتى أنظر ماذا يصنع، ولا أذعره، ولا أعلمه أني قد علمت به، فإذا بلغ مراده قمت إليه، فنغصت عليه أمره. ثم إنه أمسك عنه. وجعل السارق يجمع كل ما وصلت إليه يده حتى جمع كل ما في البيت من متاع؛ وغلب الرجل النعاس فنام، وفرغ اللص مما أراد. وأمكنه الذهاب. واستيقظ الرجل، فوجد اللص قد أخذ المتاع وفاز به. فأقبل على نفسه يلومها. وعرف أنه لم ينتفع بعلمه باللص، إذ لم يستعمل في أمره ما يجب.

فالعلم لا يتم إلا بالعمل، وهو كالشجرة، والعمل به كالثمرة. وإنما صاحب العلم يقوم بالعمل لينتفع به؛ وإن لم يستعمل ما يعمل لا يسمى عالماً. ولو أن رجلا كان عالماً بطريق مخوف، ثم سلكه على علم به، سمى جاهلا؛ ولعله إن حاسب نفسه وجدها قد ركبت أهواء هجمت بها فيما هو أعرف بضررها فيه وأذاها، من ذلك السالك في الطريق المخوف الذي قد جهله. ومن ركب هواه ورفض ما ينبغي أن يعمل بما جربه هو أو أعلمه به غيره، كان كالمريض العالم برديء الطعام والشراب وجيده وخفيفه وثقيله. ثم يحمله الشره على أكل رديئه، وترك ما هو أقرب إلى النجاة والتخلص من علته.



تصدير

الحمد لله ، نستعينه ونستهديه ، ونتوب إليه ، ونستغفره . نشكره ولا نكفره ، ونعوذ به من شرور أنفسنا ، وسيئات أعمالنا . من يهد الله فلامضل له ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أرسله الله بالحق بشيراً ونذيراً ، بين يدى الساعة . فبلغ الرسالة ، وأدى الأمانة ، ونصح للأمة ، وجاهد فى الله حق جهاده ، وعبد الله حتى أتاه اليقين من ربه . اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذريته . وجازه عنا أفضل ما جازيت نبياً عن أمته (أما بعد) فقد أراد أخى الحاج عباس كرارة من زمن غير قريب وضع كتاب الدين والشهادة يشتمل على تحديد الدين ، وأركانه ، وشعبه ، ومايلزم أن يكون عليه المرء حتى يكون ذا دين يعرف قدره ، ويذب عنه ، ويحمى حماه ، ويشتمل على الشهادة ، وما يتعلق بها من توحيد كامل يخلو فيه قلب المؤمن من كل شىء إلا من ربه ، يفرده بالقصد والطلب ، ويتوجه إليه فى

شدته ، ورخائه ، ويعرف أن كل ما سواه مقهور مربوب له ، وبهذا يعرفه حق المعرفة ، ويعبده حق العبادة ، ويشتمل على الشهادة الثانية وهى الشهادة لمحمد بالرسالة التى لا يصح للمسلم إسلام ، ولا دين إلا إن جعلها طريقه ، ونوره ، وهاديه ، حتى يكون فى اتباعه على بصيرة ، وفى دعوته إلى هذا الدين على بينة .

وقد حدثنى أخى الحاج عباس بما اعتزم أن يقوم به حيال هذا الكتاب المراد تأليفه ، وأطلعنى على كتابة من فصول فى هذا الكتاب وعرض على معاونته ، فكتبت بعض الموضوعات ومراجعة ما حرره هو بنفسه أو اختاره من مقالات الكتاب المشهورين ، فاستخرت الله تبارك وتعالى فى ذلك فكانت الخيرة ، ورأيت إجابته إلى ما طلب ، لأن ذلك من التعاون على البر والتقوى ، وكتبت بعون الله وحده ما كتبت وراجعت ما راجعت وأحمد الله تبارك وتعالى على ما أنعم ووفق إذا لم يكن فيما كتبت ، ولا فيما راجعت شىء مكذوب ، ولا شىء ضعيف ولا ما يجافى سنة النبى صلى الله عليه وسلم بحال ، وأحمد الله أيضاً إذ وفق فجعل من هذا حجة قائمة ، وسلطاناً بيناً ، يناهض الشر والباطل ، ويشد أزر الحق ، ويدعو إلى الصراط المستقيم .

وبهذا يكون ذلك الكتاب فريداً فى بابه ، وحيداً فى اتجاهه من بين ما كتب فى هذا العصر الحديث .

وأشكر لأخي الحاج عباس كرارة حسن ظنه بي ونشاطه المتتابع في إخراج الكتاب تلو الكتاب وعمله دائباً لا يثنيه عن عزمه نصب ولا إرهاق، مع تجنب الزلل والتوفيق. وإصابة وجه الحق والصواب من أقرب طريق، غير مبال بما يلقاه من متاعب جسيمة ونفقات مادية، ولا بما يضيع من وقت غال ونفيس لوجه الله والعلم ولنفع المسلمين، كما أحمد له تواضعه لعرضه كل مؤلفاته قبل الطبع وبعده على ثقات العلماء زيادة في تحرى الصواب، وحتى يمسك بزمام الصالحات من الكلمات، والموضوعات، وقد قرأت بعض ما كتب وجمع فأعجبني منه الكثير، ورجوت الله أن يساعده ويشد عضده، إنه ولى الهداية والتوفيق ؟

أحمد أحمد القط

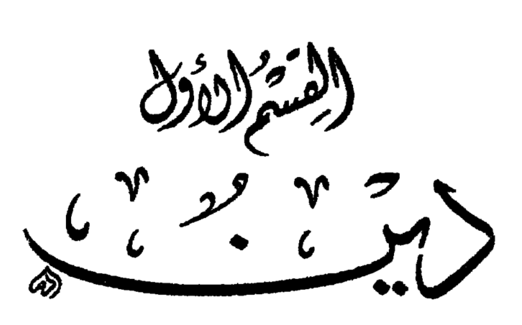
الواعظ العام بالقطر المصري

ومندوب الأزهر للتدريس بكلية الشريعة

والحرم الشريف بمكة

٢٠ من رجب سنة ١٣٧١

١٥ من أبريل سنه ١٩٥٢


القسم الأول
دين

ما هو الدين؟

إن لفظة دين قديمة جداً كقدم مسماها وشائعة بين كل الطوائف البشرية سواء حاضرها وباديها وحشيها ومتمدنها ، ولكنهم لم يدركوا معناها على الوجه الحقيق الذى جاءت به الشرائع الإلهية ، والذى ينطبق على رحمة الخالق وعنايته . ومن يتدبر التاريخ يرى الشعوب المختلفة قد تطورت أطواراً كثيرة فى فهم معنى هذه الكلمة على حسب تطور العقل البشرى فى فهم المعقولات .

كان الأقدمون لا يعرفون الدين إلا أنه مجموع احتفالات عمومية تضحى فيها الحيوانات أو أسرى الحروب إرضاءاً لمعبوداتهم وتسكيناً لغضبهم . ثم لما ترقت المدارك الإنسانية ونمت فيها الغريزة العقلية بطرو العلوم والفنون أخذ معنى الدين ينجلى شيئاً فشيئاً ويقرب رويداً رويداً من المعنى المراد لله ، والذى جاءت الأديان تأمر الناس بفهمه كذلك .

نحن هنا قبل أن نتكلم على ماهية الدين بالمعنى المراد للإسلام يجب علينا أولا أن نتكلم على ما يفهمه علماء أوربا من هذه اللفظة . بعد أن فحصوا العلوم فحصاً وأوسعوا الكون بحثاً عن نواميسه وتنقيباً عن قوانينه لنجعل هذا من بعض الأدلة الحسية على نظريتنا من أن كل خطوة يخطوها العالم فى سبيل فهم الحقائق هى تقرب طاهر إلى الإسلام فنقول :
إن علماء أوربا بعد أن دخلوا فى كل دور يمكن أن يدخله الإنسان

المعرض لكل أصناف الفتن العلمية (ومن يطالع تاريخ العلم من أول سقراط للآن يرى العجب) عادوا الآن حيث الهدوء شامل وبدر العلوم كامل فاعترفوا عن بينة بأن لهذا الكون خالقاً قادراً حكيما متصفاً بكل صفات الكمال ومنزهاً عن أقل مايشعر بالنقص . وأنه جل سلطانه وضع الكون على نظام مخصوص يستطيع من ينظر إليه بروية أن يستنتج منه تلك الصفات العليا استنتاجاً محسوساً ، وأن يتعلم منه أموراً يغني الجرى عليها مع قلتها وسهولة فهمها عن ألوف القواعد والتعاليم التى كانت تلقى على الناس فيحنون رؤوسهم خضوعاً لها ، ولكن على غير فهم لحكمتها ونتائجها . ثم رأوا بالاستقراء لنظام الكون ونواميسه أن الخالق جل شأنه يتعالى علواً كبيراً عن الاحتياج لكائن من صنع يده بل هو غنى بذاته عن كل ما عداه . ثم قالوا إن غناه هذا لم يمنعه عن الاهتمام بمخلوقاته اهتماماً يدل على عظيم رحمته وسعة رأفته وأقل نظرة فى الوجود تدل على صدق هذه النظرية دلالة حسية .

أنظر إلى أصناف النباتات والحيوانات من أدناها إلى أعلاها ترى آثار هذه المرحمة الكبرى تتجلى للإنسان تجلياً يبعثه رغم أنفه إلى محبة ذلك الخالق العظيم ، فإنه جل سلطانه لم يترك كائناً من الكائنات إلا ووهب له ما يقيم له أود حياته ويحفظ بقاءه ، وما يدفع عنه البوائق والجوائح ، إلا ما يستلزمه نظام الكون ويكون فى حصوله أثر مرحمة أسمى ورأفة أعلى بمجموع هذا الوجود . ثم إن إلهاً هذا شأنه لا يحمل الإنسان

من العبادة إلا ما فيه حكمة بالغة وفائدة عظمى لذات الشخص وبنى نوعه وسائر أجزاء الطبيعة . لأن بمجرد التدبر فى جميع أنواع الكائنات يدلنا دلالة واضحة على أن خالقها لم يخلقها وهو مريد إفسادها وملاشاتها بل خلقها وأراد إصلاحها وبقاءها ، ومما يدل على ذلك إيداعه فيها القابلية للترقى والتدرج لدرجة حددت فى سابق علمه . ولما كان الإنسان لا يفترق فى النسبة إلى الله عن سائر الكائنات الأخرى بل يزيد عليها فى كونه نهاية الإبداع وغاية الاختراع فيكون بالأولى خاضعاً لناموس الرقى والتدرج وقابلا له أكثر من سواه .

هذا هو الواقع فإن من يتأمل فى مبلغ الرقى الذى حصله الإنسان من أول نشأته إلى الآن يتحقق أن الخالق جل جلاله وهبه من الخصائص ما يستمر به ترقيه وتدرجه إلى نقطة لم يصل إليها الفكر البشرى للآن . ثم قالوا وبما أن أفعال الله مجردة عن البحث والتناقض فيجب أن تكون تلك العبادة المرغوبة لله تعالى موافقة للنواميس الثابتة السائدة فى الكون كله وملائمة للأميال والإحساسات المغروسة فى جبلة النوع الإنسانى . فاستناداً على هذه البداية العلمية التى لا يصح الامتراء فيها بنى طائفة عظيمة من علماء أوربا دياناتهم الطبيعية ، وإليك ما قاله فى هذا الموضوع أحد نصرائها وهو الفيلسوف الشهير (جول سيمون) قال : « إنا نؤدى فى أثناء هذه الحياة الواجب الذى رسمه الله تعالى لنا تحت رعايته وعنايته وعند ما ينتهى بقاؤنا فهو إما أن يثيبنا أو يعاقبنا » ثم ذكر الأسباب التى

تقتضى الإثابة والعقوبة فقال : « أما الأمر الذى يقتضى المثوبة الحسنة فهو طاعة الإنسان لقانونه الخاص وعمله للخير . أما قانون الإنسان الخاص فهو حفظ ذاته وترقية خصائصه المودعة فيه . ثم هى محبة وخدمة إخوانه ، ومحبة وعبادة خالق ذاته . ولكن ما هى الطريقة التى يعبد بها الإنسان ربه ؟ إن أداء الواجب وعمل الخير هو عين العبادة والحب ، والعمل والإخلاص هى نفس العبادة ونفس الصلاة ، والإخلاص للوطن هو عين خدمة الله تعالى . هذه هى الدنيا الطبيعية . وهذه هى العبادة الطبيعية . كل أصول مذهبنا هذا واضحة لا رموز فيها . أما أصوله فهى الاعتقاد بوجود إله قادر على كل شىء ولا يغيره شىء . خلق العوالم وحكمها بقوانين ونواميس عامة ، ووجود حياة أخرى تؤدى لنا كل وعود هذه الحياة وتكافىء الظالم بالجزاء الأوفى . هذا هو اعتقادنا . فأما صلاتنا فهى أن يكون قلبنا مملوءاً بمحبة الله تعالى ومحبة الإنسان ، وأن تكون لنا إرادة ثابتة فى أداء الواجب وخدمة إرادة الله تعالى بعمل الخير والبر » .

وهنا نستدرك فنقول : إن أصحاب هذه الديانة لا يكرهون العبادة الجسمية مطلقاً كما يؤخذ ذلك من كلام (جول سيمون) المشار إليه . إلا أنهم فقط لا يحتفلون بعبادة جسمية لا يكون من نتيجتها فائدة أدبية تذكر ، فهم يريدون أن تكون معتبرة وسائل لإحياء القلوب وتطهيرها من أدناسها لا أغراضاً قائمة بنفسها مجردة عن كل غاية . قال

(كانت) الفيلسوف الطائر الصيت: «العبادة الخارجية لا تكون رديئة إلا إذا اعتبرت أغراضاً لا وسائل. وهي يمكن أن تكون نافعة مفيدة إذا لم تعتبر إلا وسيلة لإيقاظ وتقوية العواطف الفاضلة في النفس البشرية».

أما نحن فنلخص من كل هذه الأقاويل أربعة أمور مهمة هي مذهب علماء أوربا في الدين وهي: (أولا) الاعتقاد بأن الله غني عنا وعن أعمالنا وأن ما نعمله من الخير لا نتيجة له إلا منفعتنا الخاصة. (ثانياً) أن الله تعالى رحيم بالإنسان ويود صلاحه ولا يكلفه بالعبادة إلا لفائدة نفسه (ثالثاً) أن العبادة يجب أن تنطبق على النواميس الثابتة للحياة وتلائم الطبيعة البشرية لا أن تعارضها وتسعى في ملاشاتها . (رابعاً) العبادة الجسمية يجب أن تعتبر وسائل لتطهير النفوس وتهذيبها لا أغراضاً مطلوبة لذاتها.

نقول إن هذه الأربعة الأمور التي لم يبلغها العقل البشري إلا بعد أن شابت ناصية الكرة الأرضية وجعلت علماء القرن التاسع عشر يتيهون بها عجباً ويميلون طرباً ليست هي إلا شعاعاً من الديانة الإسلامية وقطرة من بحرها الزاخر . ونحن لأجل زيادة الإقناع نأتي هنا على النصوص الشريفة التي تنطبق على هذه الأمور الأربعة مرتبة على حسبها فنقول:

(أولا) قال تعالى: «وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ، إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ». (ثانياً) قال الله تعالى: «يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ

الْعُسْرَ ، وقال تعالى : « مَا يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » . (ثالثاً) قال تعالى « لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا » وقال تعالى : « وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْكُمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ » وقال تعالى « يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الإِنْسَانُ ضَعِيفاً » .

(رابعاً) قال عليه الصلاة والسلام : « مَنْ لَمْ تَنْهَهُ صَلَاتُهُ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ لَمْ يَزْدَدْ مِنَ اللهِ إِلَّا بُعْداً » وقال عليه الصلاة والسلام : « كَمْ مِنْ صَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ صِيَامِهِ إِلَّا الْجُوعُ وَالْعَطَشُ » .

هذه هي عقيدتنا في فهم الدين . وقد رأيت أنها مطابقة للعقل والعلم تمام الانطباق ومتفقة مع النواميس الثابتة كال الاتفاق . ولما كانت مطاعن علماء أوربا على الأديان لم تتوجه إليها غالباً إلا من هذه الوجهة الرئيسية التي ينبني عليها سائر قواعد الدين ، فقد حق لنا أن ننادي بأعلى صوتنا : إن الإسلام أعلى وأسمى من أن يناله سهم من سهام ذلك التنديد الشائن ، وأكبر وأجل من أن يلحقه طعن الطاعن .

هذه الأربعة القواعد يعتبرها علماء الديانة الطبيعية أركاناً تنبني عليها كل قاعدة قانونية يكون في العمل بها تقدم الإنسان إلى النقطة الكمالية

التى أعد هذا النوع لبلوغها . ولما كان العلم هو المنوط إجماعاً بتحسس تلك القواعد المرقية للإنسانية فهم يعتبرون كل قاعدة يتوصل إليها من هذا القبيل كأنها قاعدة دينية ، فى الجرى على سنتها رضاء الخالق والقيام بطاعته .

أما المرويات القديمة ، والأساطير التى مضى عليها ألوف من السنين مع ما استلزمتها من قواعد الدين فقد صدفوا عنها وهجروها هجراً كلياً . قال (كانت) : « الديانة الحقيقية الوحيدة لاتحتوى إلا على قوانين أعنى قواعد قابلة للتطبيق ، نشعر من ذاتنا بضرورتها المطلقة وتكون مجردة عن الأساطير والتعاليم الكهنوتية » كأن (كانت) يريد أن يذكر المسلمين بقوله تعالى : « تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولاتسألون عما كانوا يعملون » .

الدين

الدين هو ذلك النور المبين والهدى الحكيم الذى أكرم الله به العالم من أول ما خلق الدنيا إلى أن تقوم الساعة ، وقد شهدت به الفطر ونطقت به الكتب ودلت شواهد الأعمال على أن لا حياة لأمة بغير دين . وقد حدثنا التاريخ أنه ما من أمة تخلت عن دينها ورسل ربها فلم تمض عليها القرون الكثيرة حتى عمتها الفوضى وشملتها وتخبطت فى دياجير مهلكة ، وكان من تقدمها المزعوم معاول قضت بها على حياتها فأصبحت كأن لم تغن بالأمس . وفى التاريخ القديم والحديث صور رائعة دلت على ذلك ، فهؤلاء المسلمون كانوا قلة بالنسبة إلى غيرهم من الأمم ولكن هذه القلة تعرف ربها ودينها لا تحيد عنه فى قليل ولا كثير ، ولهذا دوخت العالم وكسرت شوكة القياصرة والأكاسرة وفتحت الفتوحات حتى كانت فتوحاتها فى قرن واحد لا تتيسر فى قرون لغيرها من الأمم التى هى أوفر منها مالا وأكثر عدداً وأقوى استعداداً . ولا غرابة فى أن ينتشر الدين على هذا الانتشار العجيب فى أقل من قرن بصورة لم تعرف بعد دين محمد صلى الله عليه وسلم ، وهذا الدين هو الذى يجعل من الضعف قوة من القلة ما يغلب الكثرة ويفوقها كما قال الحق جل شأنه « يا أيُّها النبىُّ

حَرِّضِ المؤمنينَ عَلَى القتالِ إن يكنْ منكُمْ عشرُونَ صَابِرُونَ يَغْلبُوا مائتَيْن وَإن يكُنْ منكُمْ مِائَة يغلبوا ألفاً منَ الذينَ كفروا بأنهم قوم لا يفقهون الآنَ خَفّفَ الله عنكُمْ وعَلِمَ أنَّ فيكُمْ ضعفاً . فإن يكُنْ منكُمْ مائة صابرة يَغلبوا مائتين ، وَإنْ يكُنْ منكم ألفٌ يغلبوا ألفَيْن بإذْن الله ، والله مَعَ الصَّابرِينَ » .

فتأمل رعانى الله وإياك كيف جعل الله الغلبة على الكفار والظفر بهم والسلطان للمسلمين والأولوية لهم ، لأن هؤلاء المسلمين وإن كانوا قليلى العدد إلا أنهم صابرون عاملون متمسكون متدينون ، لا يزيدهم التألب عليهم إلا إيماناً وتثبيتاً . وهذا هو الذى يجعلهم فى قلة عددهم وعتادهم أقوى من خصومهم . وفى هذا يقول الله جل شأنه :

« الَّذينَ اسْتَجَابُوا لله والرسُول منْ بعْدِ ما أصَابَهم القَرحُ للَّذينَ أحسَنوا منْهمْ واتَّقَوْا أجرٌ عظيمٌ . الذينَ قالَ لهمُ النَّاسُ أنَّ النَّاسَ قدجَمَعُوا لَكُمْ فاخْشوهمْ فَزَادَهُمْ إيماناً ، وقالُوا حَسْبنَا الله ونِعْمَ الوكيلُ . فَانْقَلَبُوا بنعمَةٍ منَ الله وفَضْلٍ لم يمسسهم سوءٌ واتَّبعوا رضوانَ الله والله ذو فضْلٍ عظيمٍ »

* * *

وفى التاريخ الحديث شواهد على ذلك فها هى ذى فرنسا التى

عرفت بالعلوم والمعارف والمخترعات لم تستطع الوقوف فى وجه ألمانيا إلا أقل من شهر ثم انهزمت هزيمة منكرة ، ولم تكن أسباب الهزيمة إلا لانصرافها عن الدين وإخلادها إلى الشهوات ، ولم نكن متجنين عليها فى ذلك الحكم وإنما هى كلمة حاكمها العام فى ذلك وقائدها الذى تولى أمرها بعد هزيمتها وانتشلها من وهدتها .

ولقد انصرف المسلمون عن دينهم فأصبحوا أذلة بين الأمم ضعفاء لا يقام لهم وزن ، ولا أدل على ذلك شرذمة من سفلة العالم ضرب الله عليها الذلة والمسكنة ومسخ أجدادها قردة وخنازير تكاد تتغلب تلك الشرذمة التى لا وطن لها ولا دولة على دول الإسلام مجتمعة ، وهذا هو مصداق قول الرسول صلى الله عليه وسلم « لَتَأْمُرُنَّ بالمعروف ولَتَنْهَوُنَّ عن المُنْكَر أو لَيُسَلِّطَنَّ الله عليكُمْ شِرَارَكُمْ ثُمَّ يدعُوا خِيَارُكُمْ فلا يُسْتَجابُ لهم » ، وكم دعا المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها ، دعا خيارهم وأمن خيارهم ولكن الله لم يستجب لهم . بل تغلب هؤلاء الأشرار والأسافل عليها. ونحن نرجو أن يثوب المسلمون إلى رشدهم ويرجعوا إلى ربهم حتى يكرمهم بالنصر العاجل . ويحق الحق ويقطع دابر الكافرين ، ولولا الدين ما كان الإنسان إنساناً وإنما كان كعهده الأول بدائياً يعيش كما يعيش الحيوان . فالدين هو الذى أشرق على إنسانيته فنماها وكملها

وزكاها ، فعرفت به الحلال ، والحرام ، والخير ، والشر ، والحق ، والباطل ، والهدى ، والضلال ، والحسن ، والقبيح ، والنافع ، والضار.

عرف به الإنسان ما يحفظ نفسه ، وعرضه ، وماله ، وما يحفظ به شرفه وشرف أمته .

عرف به كيف يعامل ربه ، ويعامل الناس ، وكيف يقوى أواصر بينه بينه وبين زوجه وأولاده ، وكيف يربط بين الأفراد والجماعات والأمم برباط المحبة والوئام « واعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُوا وَكُونُوا عِبادَ اللهِ إخواناً » ، « لَوْ أَنْفَقْتَ ما فى الأَرْضِ جَمِيعاً ما أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ » ، « اتَّقُوا رَبَّكُمُ الذى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْها زَوْجَها وَبَثَّ مِنْهُما رِجالاً كَثِيراً وَنِساءً فاتَّقُوا اللهَ الذى تَساءَلُونَ بِهِ والأَرْحامَ ». (المُؤْمِنُ لِلمُؤْمِنِ كالبنيان يشد بعضه بعضاً) وبالجملة فالناس بغير هذا الدين لا يستقيم لهم أمر ، ولا يكون لهم وجود يذكر ، وبهذا تفكر العقول المستقلة الحرة حقاً فى الأمم التى أعلنت بعدها عن الدين فى وجوب العودة إلى تعاليم الدين ، وإلا فلا ينتظر الناس إلا أوخم العواقب فى شر مصير .

من أي شيء يؤخذ الدين

إن دين الله الذي رضيه لعباده لا يمكن أن يؤخذ إلا من منبعه الأصلي الذي ضمن الله له العصمة ، ولا يمكن أن يكون ذلك إلا كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، أما الكتاب الكريم فقد قال الله فيه : « وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوهُ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ، أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ، أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ » وقال « كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ » وقال « قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » ونهى الخلق عن اتباع غيره ، فقال « وَاتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا

مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ » ويبين الله أن الذين يتبعون هذا الكتاب ويسيرون على منهاجه وينظمون حياتهم وشئونهم على هديه وبنوره هم المبشرون النافعون المهتدون العقلاء الخليقون باسم أصحاب العقول السليمة قال الله « فَبَشِّرْ عِبَادِيَ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الأَلْبَابْ » ذلك لأنهم يفتحون آذانهم وأعينهم وقلوبهم لوحى القرآن ونوره فلا يسمعون إلا به ولا يبصرون إلا به ولا يفكرون إلا على مقتضاه .

قال الله تعالى « وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ » وإذا كان يوم القيامة اعترف الكفار بهذه الحقيقة المرة حيث لا ينفع الندم ولا يفيد الاعتراف بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير . « وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير ، فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير » .

هذه هى شهادة الكافرين على أنفسهم ولعلها ابلغ فى بابها من شهادة غيرهم عليهم ، بل هى أبلغ ألف مرة . والإمام على كرم الله وجهه يقول (لشد ما شهد أمرؤ على نفسه) .

ويبين النبى صلى الله عليه وسلم أن الفتن ستضرب بكلكلها

هذه الأمة، فهي حكمة جامعة تشمل الفتنة في الدين والدنيا من سياسية واجتماعية واقتصادية في محيط الأمة وداخلها أو في محيطها الدولي الخارجي، وبين أنه لا مخلص ولا نجاة ولا سلامة من هذه الفتن إلا بالرجوع إلى كتاب الله الذي أنزله رحمة وبشرى كما قال «وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ». يقول المعصوم صلى الله عليه وسلم في هذه الفتن والمخرج منها «إِنَّهَا سَتَكُونُ فِتَنٌ قِيلَ فَمَا الْمَخْرَجُ مِنْهَا يا رسول الله قال كتابُ الله فِيهِ نبأ ما قَبْلَكُمْ وَخَبَرُ ما بَعْدَكُمْ وَحُكْمُ ما بَيْنَكُمْ هو الْفَصْلُ لَيْسَ بِالهزل مَنْ تَرَكَهُ مِن جَبَّارٍ قَصَمَهُ اللهُ وَمَنِ ابْتَغَى الْهُدَى مِنْ غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللهُ وَهُوَ حَبْلُ اللهِ الْمَتِينُ وَهُوَ الذِّكْرُ الْحَكِيمُ وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ وَهُوَ الَّذِي لا تَزِيغُ بِهِ الْأَهْوَاءُ وَلا تَزِلُّ بِهِ الْأَلْسُنُ وَلا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ وَلا تَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ مَنْ قال به صَدَقَ وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أُجِرَ وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ وَمَنْ دَعَا إِلَيْهِ هُدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ».

وأما سنة النبي صلى الله عليه وسلم فحسبنا من ذلك أن الله أمرنا الاستماع إليها والعمل بها قال جل شأنه «وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وما

نهاكم عنه فانتهوا ، وجعل طاعته من طاعة الله فقال (مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً) وجعل اتباعه الأمارة الصادقة على حب العبد لربه وبذلك يكون العبد أهلا لأن يحبه ربه ، قال الحق تبارك وتعالى « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم » . ويبين الله أن الخروج عن أمر هذا الرسول الكريم باب إذا فتح على عبد أو أمة فتحت معه أبواب الفتن التى لامهرب منها ولا مفر وكان من ورائها العذاب الأليم .

والعنوان الصادق للذين يرجون الله واليوم الآخر إنما هو التأسى بهذا الرسول الصادق المصدق ، والتأدب بآدابه ، والتخلق بأخلاقه ، ولهذا يقول الله « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر » .

ويعجبنى فى ذلك قول هذا النبى الطاهر الكامل صلى الله عليه وسلم « لقد تركت فيكم ما لو تمسكتم بهما لن تضلوا كتاب الله وسنتى »

وبهذه المناسبة يجب أن تنتبه إلى مسألة هامة ربما خطرت ببال القارىء وهى تقليد المذاهب واتباع السابقين بإحسان من الأئمة الأربعة وغيرهم ، نحن لا ندعو إلى الخروج عنهم ، ولا إلى الاجتهاد لمن لم يكن أهلا له . وقد سبقنا الأئمة رضوان الله عليهم فاجتهدوا واستنبطوا من كنوز السنة ما فيه خير للناس وسعادة لهم ، وقد ضمن الله الأجر للمجتهدين وجزاهم الله عن هذا الدين خير الجزاء .

أركان الدين

قال الله تعالى فى كتابه الكريم : « إن الدين عند الله الإسلام ، قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير » . وقال رسول الله ﷺ (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا) .

جاءت الشريعة الإسلامية السمحاء لتكوّن الأمة وتوحد صفوفها وتجمع شملها ، وتقوى رابطتها ، كما تكفلت بتهذيب الفرد ، وتطهير النفس ، والترفع عن الدنايا والدنس ، حيث قال تعالى فى محكم كتابه : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر » .

والأمة الاسلامية لا يحويها صعيد واحد ، ولا يحصرها إقليم واحد فحسب ، بل هى تعمر مشارق الأرض ومغاربها ، فقال تعالى : « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرّقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها » .

ولما كان رسول الله ﷺ هو الوصلة العظمى والعروة الوثقى بين العبد وربه ، كما جاء ذلك فى كتابه الكريم فى عدة مواضع ، وأمرنا

أن نأتمر بأوامره ، ونتجنب نواهيه حيث قال تعالى : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » .

ولقد كان رسول الله ﷺ عند حسن ظن ربه به ، حيث امتدحه تعالى فى القرآن الكريم فقال : « وإنك لعلى خلق عظيم » ، فأمرنا ﷺ أن نتبع ما جاءت به الشريعة السمحاء كما قال له ربه عز وجل « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » ، وبين لنا فحوى هذه الرسالة العظيمة والأمانة القيمة التى نزلت عليه بطريق الوحى « وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى » ، لذلك علمنا الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم قواعد الدين الاسلامى الخمس وهى :

« شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت من استطاع إليه سبيلا» .

وسنشرح فرائض وسنن كل ركن من هذه الأركان الخمسة كل منها على حدة .


قل
لا إله إلا الله
محمد رسول الله

الركن الأول :



أخرج الشيخان عن عبد الله ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم :

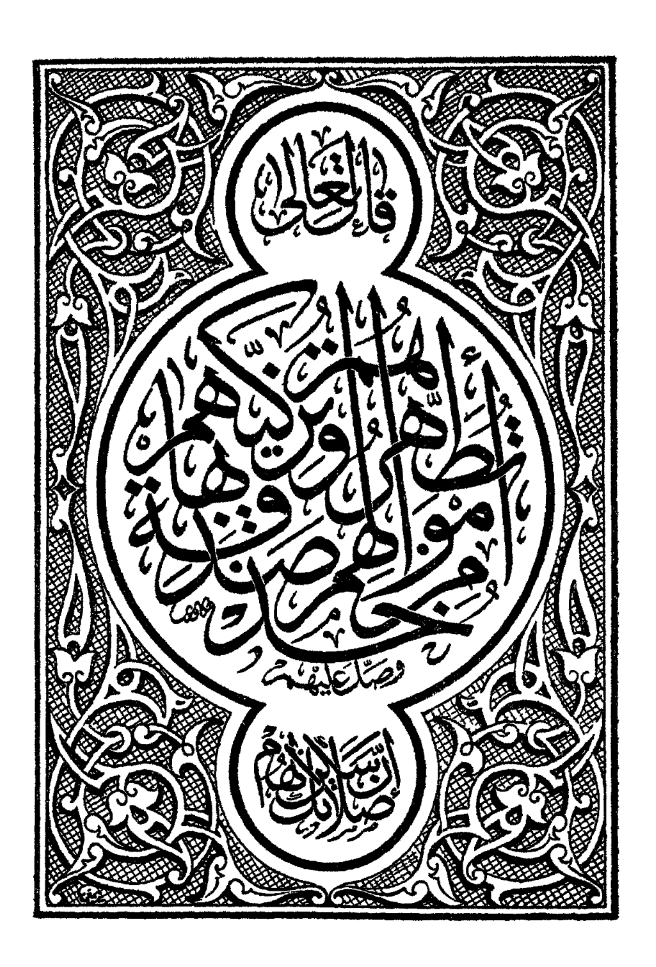
« بُنِيَ الإِسْلامُ على خَمْس : شَهَادَة أن لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ الله ، وإقام الصَّلاة ، وإيتاء الزَّكاة ، والحَجُّ ، وصَوْمُ رَمَضَانَ » وأول أركَان الإسلام هى (الشهادة) فأولى قواعد الدين الإسلامى إعتقاد أنه لا إله إلا الله حقيق تجب عبادته ويصمد إليه فى قضاء الحوائج وتحصيل المهمات إلا الله رب العالمين الذى خلق كل شيء وقدره تقديراً، وبيده وحده الأمر والتدبير وإليه المصير . وكذلك الاعتراف بأن سيدنا محمد رسول الله اختاره ربه واصطفاه من بين عباده وأرسله لهداية البشر على فترة من الرسل . لإرشادهم لمصالحهم النافعة وإعانتهم على شؤون الحياة وتعريفهم بالوحدانية لله عز وجل ، وتقريرهم بالرسالة المحمدية إذ هما لا شك أساسان للاعتراف بالحقائق ومبدآن للهداية الحقة ، ولذلك بدأ بهما الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم .


بسم الله الرحمن الرحيم
فأقيموا الصلاة
إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا

الركن الثانى :

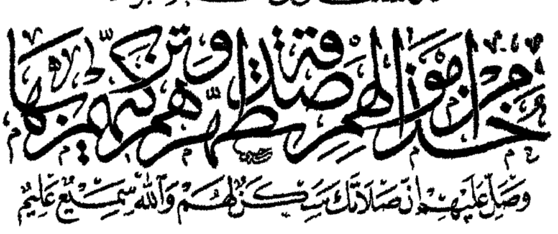


وثانى قواعد الدين الصلاة ، وهى دعاء وابتهال وخشوع وامتثال وتوثيق لصلة العبد بربه فيفيض عليه من خيره ، وتطهر نفسه من أدران الماديات وشوائبها ، وتقوى على النهوض بأعباء الحياة وتكاليفها وتعوده الإخلاص، وتبعده عن النفاق . وتبعث فيه الصحة والنشاط ، وتمرنه على أداء المأمورات فى مواعيدها المفروضة . يقرأ المصلى فى الصلاة القرآن وقلبه خاشع وذهنه حاضر ، فيتعلم من علومه ويهتدى بهداه وتصفو نفسه ويستنير عقله ، ولهذا كانت الصلاة عنصراً أساسياً فى بناء الدين وَصَدَق اللهُ إذ يقول عز من قائل : « إنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الفَحْشاءِ والمُنْكَرِ » .


قال تعالى
خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها
وصل عليهم
إن صلاتك سكن لهم

الركن الثالث :

قال الله تعالى فى كتابه الكريم



وثالث قواعد الدين : الزكاة : وهى قليل من مالك أيها المسلم ، زائد عن حاجتك تخرجه للفقراء والمساكين شرعت لتحرر به رقاب الأسرى والمعوزين وإغاثة المحتاجين وقضاء الدين عن المدينين ، وتأليف القلوب نحو هذا الدين دين الله المتين والاستعانة على نشر الدين وحفظ أهله ودياره بالجهاد فى سبيل الله ، وهى خير وسيلة لإصلاح المجتمع ونشر الرخاء ودفع الأضرار والمصائب التى تجتاح العمران وفيها طهارة وزكاة للأموال ونشر الحب بين الأغنياء والفقراء وبعد النفس عن ربقة البخل والشح ومطامع النفوس وتعلقها بمتاع الدنيا الفانى القليل .

وقد شرعت الزكاة فى السنة الثانية من الهجرة وهى واجبة على المسلمين الموسرين فذكرها مقترنة مع الصلاة فى كثير من آيات الذكر الحكيم تأكيداً لطلبها وتنويهاً بفضلها العظيم .


بسم الله الرحمن الرحيم
يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم
الصيام
كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون
صدق الله العظيم

الركن الرابع :

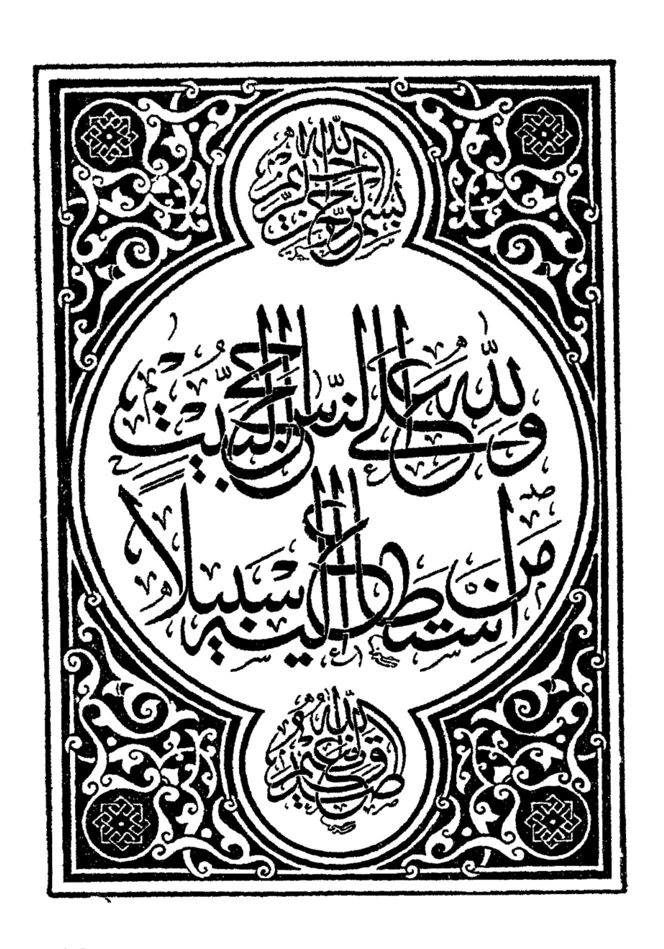


ورابع قواعد الدين : صوم رمضان : يطهر المعدة مما علق بها من بقايا الطعام ويريحها من العمل عدة أيام وينمى فى نفسك الشعور بحال الفقراء والمساكين إذ به تذوق ألم الجوع والظما فتتذكر إخواناً لك بائسين تساعدهم بمعونتك وبرك وتذكى فيك روح التفكير ، إذ البطنة كما يقولون تذهب الفطنة ، وهو يذكرك بربك فى كل حين فتقرأ القرآن ولسانك رطب بذكره وأنت قائم بامتثال أمره .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إيمَاناً واحْتِساباً غُفِرَ لَهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ » .

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما مِنْ عَبْدٍ يَصُومُ يوماً فى سَبيلِ اللهِ إلَّا بَاعَدَ اللهُ بذلِكَ اليَوْمِ عَنْ وَجْهِهِ النَّارَ سَبْعِينَ خَرِيفاً » .


بسم الله الرحمن الرحيم
ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا
صدق الله العظيم

الركن الخامس :



وخامس قواعد الدين : الحج إلى بيت الله الحرام . فتذهب إلى مكة البلد الأمين الذى نشأ فيه سيد العالمين ونبت فيه هذا الدين ، وترى أول بيت وضع للناس مباركا وهدى للعالمين ، وتقوم بأعمال متنوعة كلها قربات من طواف وصلاة وسعى ووقوف بعرفات وذكر وتهليل وتكبير وتلبية وذبح قرابين وتصدق على المساكين فتهذب نفسك بالسفر وتذكر النشأة الأولى للإسلام ، والذكرى كما يقول الله تعالى تنفع المؤمنين . وتجتمع بإخوانك المسلمين عند بيت مولاك الذى دعاك وحباك وقربك وأدناك واختارك أن تكون أحد أفراد الوفد المتقبلين الذين وفدوا من كل حدب ينسلون وأتوا من كل فج من مشارق الأرض ومغاربها وتفكر معهم فيما يعيد للإسلام مجده ويعلى سلطانه وتقف مع إخوانك المسلمين .

تلك هى قواعد الدين أيها المسلم فاحرص عليها وأحسن . إن الله لايضيع أجر من أحسن عملا .

وصلى الله تعالى على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

مقاصد الدين

١ – السموُّ الروحى عن طريق تقوى الله ومحاسبة الضمير حيث يقول تعالى « واتّقوا يوماً تَرْجعُون فيهِ إلى الله ثم تُوَفَّى كلُّ نفسٍ بمَا كَسَبَتْ وهُمْ لا يُظْلَمُون » .

٢ – الاعتصام بحبل الله حيث يقول تعالى « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون » .

٣ – المساواة التامة بين عموم الأفراد أمام القانون حيث يقول تعالى « ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير » .

٤ – الأخوة الصادقة القائمة على التواد والتراحم حيث يقول تعالى « إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم » ويقول الرسول عليه الصلاة والسلام « المسلم أخو المسلم لايظلمه ولايحقره » ويقول أيضاً « مثل المؤمنين فى توادِّهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له باقى الجسد بالسَّهر والحُمَّى » .

٥ – التعاون حيث يقول تعالى « وتعاونوا على البر والتقوى

ولاتعاونوا على الإثم والعدوان » وحقيقة البر هى مابينها الله فى قوله « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البرّ من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ، وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هُمُ المتقون » .

٦ — القسط أو العدالة العامة حيث يقول تعالى « قل أمر ربى بالقسط » ويقول : « لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرّوهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين » .

٧ — الإحسان حيث يقول تعالى « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولاتنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً إن الله يعلم ماتفعلون » ويقول تعالى « وأنفقوا فى سبيل الله ولاتلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين » ويقول أيضاً « لاخير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضات الله فسوف نؤتيه أجراً عظيما » .

٨ — الحرية الكاملة مع الطاعة لأولى الأمر فى حدود الدستور الإلهى الذى وضعه ربُّ العزة لإصلاح حال المجتمع وأكمل به جميع الأديان ، ألا وهو القرآن حيث يقول تعالى « يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِى الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً » ، ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم « إنى تارك فيكم أمرين لن تضلوا ما إن تمسكتم بهما كتاب الله وسنتى » .

٩ — الوحدة الشاملة فى كل شىء فى الدين واللغة والاتجاه والمقاصد والعادات والأخلاق والثقافة والتعلم والسياسة والقوى ، وكل ما من شأنه أن يجعل الأمة متضامنة متحدة إتحاداً وثيقا لا انفصام له .

١٠ — التزام الصدق فى القول والإخلاص فى القول والعمل والوفاء بالعهد والمحافظة على المواعيد والصبر على الشدائد والبر بالآباء وتوقير الكبير والعطف على الصغير مع التواضع والحلم والكرم والعناية باليتيم .

١١ — الامتناع عن الغيبة والنميمة ، والحسد ، والخيانة ، والكذب والنفاق والتجسس ، والإيقاع بين الناس والغش فى المعاملة . والتطفيف فى الميزان وغير ذلك من كل ما يؤدى إلى العداوة والبغضاء . . كالسكر وتعاطى الرباء .

١٢ — والإسلام يدعو إلى جميع الفضائل والمكرمات ويأمر

بالعمل لتحصيل منافع الدنيا وكسب الرزق بشتى أنواع العمل المشروعة كالتجارة والزراعة والصناعة والأخذ بأسباب القوة وإعداد العدة ومايكون موجوباً للعزة وإقرار السلام والاحتياط لمنع الحرب. ولحض الناس على النظافة والزينة وجميع الطيبات ويدعوهم إلى البحث والتفكير فى أسرار الكائنات وطبائع المخلوقات ويوجب تعميم تعليم المتعلم للعلم النافع : الأصول والعقائد والتفسير، والحديث والفقه واللغة. ويحترم قرار العلماء فى كل ماتخصصوا فيه من الطب والإدارة والاقتصاد وسياسته وسائر الشئون العسكرية، والفنية، ويعتبر كل مايقوم به الفرد فى حياته الخاصة والعامة طاعة يؤجر عليها إذا قصد بها وجه الله والنفع بعباده وكانت فى نطاق الشرع والطرق شرعها الله سواء أفادت نفعاً خاصاً أو كان من شأنها ان تؤدى إلى عمارة الكون ومصلحة العموم. فقد روى عن الرسول صلى الله عليه وسلم «إن فى بضع أحدكم لأجراً». فقال الصحابة «أيباشر الرجل لذته ويكون له أجر؟» قال : أليس إذا وضعها فى حرام يكون عليه إثم قالوا بلى. قال كذلك، إذ وضعها فى الحلال فله أجر». والإسلام لا ينهى إلا عن كل ما فيه ضرر بالعقل أو الجسم أو كان مناقضاً لما يرضى الله أو قصد به التزلف إلى غير الله كما أنه ينهى عن الاعتداء على حقوق الغير أو الإساءة إليهم ولو حتى بمجرد القول وربأ بمعتنقيه عن كل أمر فيه أى مساس بالشرف ومدعاة إلى الانحطاط أو المنافاة للأدب وعزة النفس وعلو الهمة.

التفقه فى الدين

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين ، وإنما أنا قاسم والله يعطى ، ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله لا يضرهم من خالفهم حتى يأتى أمر الله » .

الدين الإسلامى هو الأحكام التى وضعها الله العليم الحكيم لعباده مشتملة على جميع ما تصلح به حياتهم الدنيوية والأخروية صالحة لكل زمان ومكان لأى أمة من الأمم على ألسنة رسله عليهم الصلاة والسلام المؤيدين منه سبحانه بالمعجزات والآيات البينات .

شرع سبحانه هذه الأحكام وفصلها تفصيلا وأقام الأدلة الناطقة الباهرة على صحتها وموافقتها لمصالحهم وأردف ذلك ببيان المنافع والثمرات الطيبة العائدة عليهم ما داموا عاملين بها واقفين عند حدودها ، يعرف ذلك من مارس هذا الدين ونظر فيه نظر المتدبر المنصف الباحث عن الحق إذا تبين له اتبعه وكان به من المهتدين .

شرع لنا جلت قدرته هذا الدين وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يبلغه لنا فأخبرنا عليه الصلاة والسلام أن علامة إرادة الله تعالى الخير للعبد أن يفقهه فى الدين وأن يهبه من الفطنة والذكاء مايوصله إلى إدراك حقيقة هذا الدين وحقيته ، وإلى معرفة مافيه من الأسرار والحكم البالغة وإلى العلم بأنه الوسيلة العظمى إلى نيل السعادة الكاملة فى الدنيا والآخرة

فمن كان متفقهاً فى دين الله تعالى هذا التفقه ، فهو ممن أراد الله به خيراً كثيراً ينال حظه فى دنياه وآخرته . ومن لم يكن كذلك فهو من المحرومين الذين ذكروا بآيات ربهم فأعرضوا عنها وتولوا مستكبرين وضلوا عن سواء السبيل .

بعد ذلك أرشدنا الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله (وإنما أنا قاسم) إلى أنه عليه الصلاة والسلام إنما هو موزع عليهم جميع علوم الدين وموصلها إليهم مع التسوية بينهم فى تبليغها لهم لا يخص فريقاً بشىء دون فريق ولا تأثير له فى تعيين مقدار نصيب كل واحد منهم بل إنما ذلك التعيين لله سبحانه ، وذلك قوله صلى الله عليه وسلم (والله يعطى) أى أن التفقيه فى الدين إنما هو من الله وحده لأن نعمة الذكاء والفطنة التى بها يكون التفقه والفهم الكامل إنما يقدر عليها الله تعالى دون سواه ، فهو سبحانه الذى يجعل نصيب الانسان من التفقه فى الدين بمقدار معين فيكون هو قسمه ونصيبه الذى يوصله إليه الرسول صلى الله عليه وسلم بتبليغه كل على قدر إدراكه وذكائه الذى وهبه الله له . واعتبر هذا الرأى الذى ذكرناه بما تعلمه من أمر المعلم مع من يعلمهم يظهر لك معنى الحديث الشريف واضحاً جليا . ألا ترى أن المعلم يلقى على المتعلمين المسائل محدودة مضبوطة من قبل إلقائه رتب أجزاءه ترتيباً ونسق جمله تنسيقاً وأسمعهم عبارته جميعاً وسوى بينهم فى الإعلام والتعليم . وبذل ما استطاع من أساليب الإفهام والتفهيم ، ثم بعد ذلك يكون حظ كل متعلم مما تلقاه عن معلمه

بقدر استعداد فطرته وذكاء عقله وصفاء نفسه الذى فطره الله تعالى عليه ووهبه إياه . فما أشبه هذا المعلم المخلص حينئذ بالزارع الخبير المجد ! يهيء الأسباب ويعد الوسائل ويمهد المزرعة ثم يبذر الحب وينثره فيها بالتساوى والقسطاس ثم يسلم الأمر ويفوض العاقبة إلى الله الذى جعل لكل شىء قدراً وخص من فضله من شاء بما شاء من نعمته وهو العليم الحكيم .

هذا : ثم إن الفقه فى اللغة ، هو أن تتوصل بالأمر الذى تعلمه إلى الأمر الذى تجهله فتجعل الشىء المعلوم لك الحاضر فى ذهنك وسيلة تتوسل بها إلى إحضار الشىء الغائب عنك ، فمن هذا يتبين لك أن الفقه أخص من مطلق العلم . ويكون معنى تفقيه الله تعالى لمن يريد به خيراً هو أنه سبحانه يفيض عليه من لدنه فيوفقه لصحة ترتيب ما فى نفسه من المعلومات ويلهمه نظم ماهو حاضر عنده من صحيح المقدمات ليعبر منها إلى العلم بما هو مجهول له ، ويستنبط منها ما يتناسب معها ويشاركها فى حكمها وحكمتها .

فإذا تلقى المتعلم عن معلمه مسألة وعلم حكمها فعلى قدر إدراكه الغريزى يكون قدر فهمه لها ، فإن كان ضعيف الفطنة فإنه يفهمها ويقف إدراكه عند فهمه لما ظهر له منها لا يتجاوزه إلى ما يماثلها من مسائل أخرى لم يسمعها من المعلم ، وإذا كان قوى الفطنة ذكيا فإنه يتخطاها ويقيس عليها أمثالها ويستنبط منها أشباهها والناس فى ذلك متفاوتون تفاوتاً لا يتناوله عد ولا إحصاء .

على هذا السنن وأمثل منه وأحكم كان الرسول صلى الله عليه وسلم يعلم المسلمين ويلقنهم أحكام الله تعالى التي علمه إياها ويرشدهم إلى تفهم ما أنزله عليه فى كتابه العلى الحكيم . كان يلقى عليهم ما يراه أنسب بحالهم الحاضرة ويقدم إليهم ماهم أحوج إليه من غيره . يعدل بينهم فى التعليم ، ويسوى بينهم فى التقسيم والتوزيع ، ولكل منهم نصيب من عناية النبي صلى الله عليه وسلم وتبليغه يعادل نصيب أخيه الآخر ، وهذا كما قدمناه لك معنى قسمته عليه الصلاة والسلام فى قوله (وإنما أنا قاسم) أى موزع بينكم بتبليغ دين الله تعالى بالعدل وموصله إليكم على المساواة بعد أن تتساوى أنصبتهم فى قسمة الرسول صلى الله عليه وسلم التبليغ بينهم وفى فهمهم لها فهماً صحيحا تتفاوت حظوظهم فيما فهموه قوةوغيرها قلة وكثرة تفاوتاً نشأ من تفاوتهم الخلق فى الاستعداد والذكاء والأفهام ، لا من تفاوتهم فى التبليغ والتعليم والإفهام .

لذلك كان منهم من يفهم المعنى الظاهر الجلى ، فهماً سديداً من تبليغ النبي صلى الله عليه وسلم لا يتعداه إلى ما هو خفى عليه لأن استعداده لا يقوى على الوصول إليه ، ومنهم من إذا فهم ما سمع تأمل فيه وتدبر وجال فكره فيه وأمعن فى نواحيه حتى يدرك ما فيه من رموز وإشارات صحيحة ويعرف ما اشتمل عليه من أسرار وحكم بالغة ، وتتجلى له المعانى التى هى وراء ما سمعه فيقيس الأشباه على الأشباه ويلحق النظائر بالنظائر ويستنبط من أصول دين الله الصالح لكل أمة فى أى زمان ما يوافق

المصالح الحاضرة ، مبيناً للناس ما فهمه وما استنبطه موضحاً لهم من أين استنبط وكيف استنبط لا يتهم بعد ذلك أنه شرع لهم ما لم يأذن به الله فإذا أصاب فيما اجتهد فيه قبلوه منه وله عند الله أجران ، وإن لم يصب ردوه إلى الصواب وله أجر ، وعلى الجملة كانوا فى تعرف أحكام الدين واستنباط ما ينطبق على مصالحهم المشروعة الحاضرة مؤتمرين بقول الله تعالى (واتَّقُوا اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ الله) وقوله (وما اخْتَلَفْتُمْ فيه من شىء فَحُكْمُه إلى الله) وقوله (فإنْ تَنَازَعْتُمْ فى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إلى الله والرَّسول إنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بالله واليَوْم الآخر ، ذلكَ خَيْرٌ وأَحْسَنُ تَأْويلاً) .

هذا هو الصراط المستقيم الذى سار عليه الصحابة رضى الله عنهم ، ثم اقتدى بهم فى ذلك خلفهم الصالحون من التابعين وتابعيهم ، ثم جاء من بعدهم الأئمة المجتهدون فاهتدوا بهديهم واستنوا بسنتهم ، إمامهم كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه الذى جمع كل صلاح الدين والدنيا كما قال عز وجل (مَا فَرَّطْنَا فى الكتَاب منْ شَىْء) .

وكذلك كانت قدوتهم الحسنة سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم تفسر لهم كتاب الله تعالى وترشدهم كيف يتعلمون ويعلمون كما قال الله تعالى جل ذكره (وَأَنْزَلْنَا إليْكَ الذِّكْرَ لتُبيِّنَ للنَّاس مَا نُزِّلَ إليْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) .

لعل الذين اجترأوا على الدين الإسلامى فاتهموه عمداً أو جهلا بأنه

كغيره من الأديان إن صلح فإنما يصلح للأرواح . أما الحيـاة الدنيوية الزمنية فإنه لا صلة بينه وبينها، لأنه خلو مما يصلحها ويقومها ، وأن مايدعيه له أنصاره فإنما هو أشياء جافة جمدوا عليها وأنها إن نسبت كما زعموها له فإنما هي أمور قدم عهدها كانت لزمن سلف وأمة قد خلت ، لعلهم تبينت لهم مما شرحناه حقيقة ذلك الدين فعلموا أنهم في اتهامهم له بذلك كانوا عن صراط الحق ناكبين ، ولعلهم اعترفوا لدين الله تعالى بأنه دين حرية العقل المشروعة وأنه سبيل للاصلاح الدنيوي والأخروي مذعنين .

نقول أما إن حقيقة الإسلام الحنيف قد تبينت لهم فانه لاشك فيه ولا جدال على أنها ماخفيت على بصائر أولى الألباب منذ أن أشرقت شمسها وبلغت الدعوة إليها مشارق الأرض ومغاربها ، كما قال عز وجل (لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ) . وأما أنهم علموا أنهم كانوا عن سواء السبيل منحرفين فإنه كذلك لانزاع فيه ولا مراء ، فإن المبطل إذا أخذته العزة بالإثم فانكر على الناس علمه بالحق فإنه لن يستطيع إنكاره على نفسه التي بين جوانحه .

وأما اعترافهم بأن دين الإسلام هو وحده دين الله الذي لن يقبل من أحد دين سواه كما قال سبحانه (وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ) فإن كان هذا الاعتراف منهم بألسنتهم ترجماناً لما في قلوبهم فقد آمنوا بمثل ما آمنتم به وكانوا مهتدين ، وإن كان الاعتراف منهم على

غير ذلك الوجه أو لم يعترفوا أصلا (وَلَا تَخَالُ صُدُورُهُ عَمَّنْ جَعَلَ اللَّهُ لَهُمْ سمعاً وأبصاراً وأفئدةً يقدرونها قَدْرَهَا) فإننا لا نيأس من رجوعهم إلى الحق وقتاً ما ، فإن الباطل لا يتراءى للنفوس إلا فى اشتغال الحق عنه فإذا فرغ له دمغه فإذا هو زاهق (إن الباطل كان زهوقا) .

هذا . ثم أوضح الرسول صلى الله عليه وسلم بعد ذلك العاقبة الحسنى لمن اعتصم بهذا الدين الحنيف وأطاعه والعاقبة السّوءى لمن أعرض عنه وعصاه ، فأخبر أن هذه الأمة المحمدية التى أكرمها الله المتفضل بهذا الدين القويم ستستمر قائمة على أمر الله . سائرة على تعاليم دينه ، ممتثلة أوامره ، مجتنبة نواهيه ، منفذة أحكامه ، حافظة لشرائعه . وحينئذ يكافئها الله تعالى فى الدنيا بأن يحفظها ممن يخالف دينها فيرد عنها كيد أعدائها ويدفع عنها شرورهم ولا يسلطهم عليها ، ولن يجعل الله لهم عليهم سبيلا بل يجعلها مهيبة ملء قلوبهم وأعينهم ، ويجعل الفوز والنصر العزيز ، ونفاذ الكلمة ، وعزة السلطان ، وقوة الجانب لها عليهم . ولكن هذه المكافأة الحسنى من الله تعالى لهذه الأمة المحمدية إنما تكون ما داموا معتصمين بعروة دين الله الوثق ، عاملين بتعاليمه ، أما إذا نبذوه وراء ظهورهم وعصوا أوامره وارتكبوا محارمه فإذ ذاك يأتى أمر الله وهو حكمه على من يعرضون عن دينه ويعصون أوامره وينتهكون حرماته بالذلة والصغار والفقر والحاجة وتسليط غيرهم عليهم جزاء وفاقاً

(وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون) وقال سبحانه (وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون) فلينظر المسلمون بعد ذلك ليعلموا من أي شطر من شطري هذا الحديث المبشر المنذر هم؟ فإن كانوا من شطره الأول قائمين على أمر الله شكروه سبحانه أن هداهم للإيمان ووفقهم لما يرضيه عنهم ويرضيهم عنه واستوهبوه دوام توفيقهم وشكرهم له حتى يزيدهم من فضله كما وعد الشاكرين في قوله (لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ).

وإذا كانوا من شطره الثاني الذين نسوا الله فنسيهم واستهدفوا لأمر الله يأتيهم بغتة وهم في خوضهم يلعبون، فخير لهم أن يتقوا الله وينظروا ما قدموا لغد إن الله خبير بما يعملون (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون) (يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون. إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون؟).

الإسلام دين الفطرة

قال الله تعالى (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ) وقال تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إلا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ)

لقد تضمنت أحكام الشريعة الغراء من بالغ الحكمة ووفائها بمصالح البشر على وجه يكفل سعادة الحياتين ونعيمهما فنقول :

الأحكام العملية ثلاثة أقسام (الأول) المتعلقة بما بين العبد وخالقه و (الثانى) الأحكام الراجعة إلى الإنسان فى خاصة نفسه و (الثالث) الأحكام المنظمة للعلاقات بين المرء وسائر الناس أو وسائر الخلائق .

نقسمها هذا التقسيم وإن كانت جميع الأفعال التى قصد بها الوقوف عند حد ما أذن الله فيه كانت مرضاة لله موجبة للمثوبة ، وإذا تعدى بها حدود ما نهى الله عنه كانت موجبة لسخطه ، وكذلك بعض أفعال العبادات راجعة إلى تنظيم العلاقات بين الناس بعضهم وبعض .

(فالقسم الأول) هو ما يعرف بالعبادات قد جمعه الحديث الشريف

«بنى الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والحج، وصوم رمضان» رواه البخارى، وقد سميت أركان الإسلام وقواعده، فانظر إليها وأطل التأمل والتفكير تستجل ما حوت من معان وحكم، ألا ترى عمادها الأول وركنها الأقوم شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، أنظر فى التعبير بكلمة شهادة وقد عرفت فى التحدث بما تعلمه علم الشهود، علماً لا شك فيه ولا ريبة، علماً يجعلك كأنك تحدث عما تشاهد، لا أنك سمعت الناس يقولون قولا فقلته، ثم انظر إلى الشطر الأول منها تجد الاعتراف والإذعان بأنه ليس فى الوجود من له الهيمنة والتصريف وبيده وحده مقاليد كل شىء ومن له الخلق والأمر ومن وسع كل شىء رحمة وعلما ومن بيده تقليب القلوب وتصريف الأمور وتقدير الشؤون، ومن هو الضار والنافع وهو على كل شىء قدير، سوى واحد أحد هو الله لا شريك له فى الملك وليس لأحد معه فى الأمر شىء، فلا ينبغى أن تخضع النفوس إلا له ولا ترجو ولا تخشى سواه. أنظر كم فيها من إطلاق نفس الإنسان من العبودية للإنسان بله الجماد والحيوان، أنظر، كم فيها من السمو بالنفس إلى مرتبة السيادة والاستقلال والرجوع إلى من هو مرجع الجميع، لا فضل لأحد على أحد إلا بالزلفى لديه والتقرب إليه .. أنظر، كم فيها من الإشعار بأنه هو الإله الذى يعلم السر وأخفى، ويعلم خواطر النفس وما تخفى الصدور، الذى يطلع عليك فى خلوتك

ويعلم دخيلة نفسك وهو قابض على ناصيتك ومالك زمام قوتك وأنت الغارق فى نعمته السابح فى بحر رحمته (وما بكُمْ من نعْمَةٍ فَمِنَ الله)(وهُوَ القَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ) ، انظر وتأمل كثيراً ثم حدثنى بالله أليس من أكبر العجب كما قال الحريرى : « إن تتوارى من مملوكك وأنت بمرآى من مليكك وأن تجاهر بمعصيتك مالك ناصيتك »؟

ألا تشهد معى معنى قوله صلى الله عليه وسلم (لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن) أليس صحيحاً أنه لو استحضر معنى ما ينطق به كل ساعة ويعتقده اعتقاداً تاماً وإن كان يغفل عنه أحيانا ــ وهو أن القوة التى يحارب بها ربه هى هبة من ربه وأنه مطلع عليه كما يطلع الرجل على الرجل بل أكثر وأكثر ؟! ــ لو استحضر ذلك لكان على صفة صهيب التى وردت فى الأثر الشريف « نعم العبد صهيب لو لم يخف الله » بلى إن أمر الإنسان لعجب ؟؟ يستخفى من مملوكه الذى لا يقدر له على شىء وهو بمرآى مليكه الذى بيده مقاليد كل شىء ، وما أصدق قوله صلى الله عليه وسلم (لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن) فلو استحضر معنى ما هو مؤمن به وأجراه على قلبه لكان إن لم يمنعه الخوف من عقاب الآخرة منعه الحياء من اطلاع سيده الذى وهبه نعمته ليستعملها فى طاعته فقلب على نفسه النعمة وصيرها نقمة .

(فَاعْلَمْ أنهُ لاَ إِلَهَ إلا اللهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ) .

وأما الشطر الثانى وهو « وأن محمداً رسول الله » فهو الوصلة العظمى والعروة الوثقى بين ما يفهم من الشطر الأول وبين جميع أحكام الشريعة الغراء ، فمتى أذعنت النفس واعترفت بما تعلمه علم اليقين والمشاهدة حتى صح لها أن تقول أشهد وأحدث بما أعلم أن ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم هو من عند الله أرسله إلينا بالبينات والهدى ، فما أمرنا به فإنما أمرنابه ربنا وما نهانا عنه فهو جل شأنه الناهى فى الحقيقة كما قال تعالى فى الكتاب العزيز (وَمَا آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا) .

كان ذلك مدعاة للنفس التى يصح أن يقال لها نفس إنسانية تميز ما ينفعها عما يضرها أن تأخذ بقدر استطاعتها من هذه الأمور التى هى تجارة رابحة وموجبة للزلفى عند الله وباب مرضاته ، وأن يرتدع ارتداعاً تاماً عما يوجب غضبه ، وأنه ليكفى العاقل فى المسارعة إلى امتثال هذه الأوامر علمه أنها من أمر ربه موجبة لرضائه ، وأن مخالفتها موجبة لسخطه وغضبه ، يكفى هذا لدى العاقل ولو فرض أنه لا يترتب على امتثالها أو مخالفتها ثواب أو عقاب . فإن النفوس الشريفة ليس شىء أحب إليها من أن تعمل عملا يبلغ مرضاة من له عليها منة ما ، فما بالك بمرضاة من هو صاحب المنن كلها فى الحقيقة ! وما كانت منة أحد على أحد إلا لأن المنعم الأعظم جعل بعض عباده طريقاً لتوصيل نعمته إلى بعض ، والكل من الله وحده فلا إله إلا الله ولا متصرف فى الكائنات سواه : أجل يكفى هذا وحده فى إقبال النفوس على الطاعة وارتداعها

عن المعصية . فكيف إذا علم أن الطاعة موصلة إلى جنة عرضها السموات والأرض ، وأن المعصية قائدة إلى نار وقودها الناس والحجارة ؟ أليس هذا يجعل من أكبر العجب أن يحارب المرء بمعصيته مالك ناصيته ؟ أو ليس هذا مما يشرح لنا قوله صلى الله عليه وسلم « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن » إلى آخر الحديث ، وفوق هذا فقد اقتضت حكمته جل شأنه أنه لم يتعبدنا إلا بما فيه مصلحة عاجلة لنا

لم يمتحنا بمـا تعيا العقول به   حرصاً علينا فلم نرتب ولم نهم

وإن كان هو السيد المالك يكفى فى وجوب المسارعة إلى امتثال أمره إن ذلك موصل إلى رضاه ، وهو صاحب النعمة حتى فى أصل الوجود والتكوين .

نقول لم يتعبدنا إلا بما فيه مصلحة واضحة لنا سواء فى العبادات وهو ظاهر فى أصولها وجملتها وإن خفى علينا فى بعض تفاصيلها ، وفى المعاملات وهو ظاهر واضح فى جملتها وتفصيلها وإن غم على بعضهم انقياداً للنظرة العجلى فى مستحدثات الشؤون ومجاراة الأهواء ، وفى الأخلاق وهو أظهر وأوضح .

وإليك البيان فى بقية أقسام العبادات :

الصلاة : الصلاة عماد الدين فمن ضيعها فهو لما سواها أشد تضييعاً . أجل ، فإنها جماع أركانه ، فقد اشتملت على الشهادتين وأنفق المصلى بعض ماله فى العبادة . وهو بذل الماء للطهارة ، وأمسك عن كل ما يمسك

عنه الصائم ، واتجه نحو البيت الحرام تنسكا وتعبداً ، وقد عني الشارع بها حتى جعلها تتكرر فى اليوم حتما خمس مرات ، وجعل أعمالها مكررة فى كل مرة مثنى وثلاث ورباع تثبيتاً لها وتمكيناً فى النفس ، بل جعل بعض أعمال الركعة الواحدة متكررة فيها كالسجود مبالغة فى إخضاع النفس لخالقها وحده ، ولقد شبهها صلى الله عليه وسلم بالنهر يكون أمام بيت الرجل يغتسل فيه كل يوم خمس مرات ، فلا يبقى فيه من درن وبلغ من عناية الشارع بأمرها أنه لن يبيحها لشخص حتى يستعد لها الاستعداد اللائق بها فيتطهر من الحدث والنجس فيطهر ثوبه وبدنه ومكانه ، وكأنه وهو يتطهر يقول بلسان حاله : رب قد طهرت ظاهري من الأدران والأقذار استعداداً لمناجاتك والوقوف بين يديك وأعني على تطهير باطني من كل ما يدنسني ويمنعني عن الوصول لمرتبة الصديقين ، رب قد غسلت فى بالماء فاجعل ذلك تكفيراً لما جرى به لساني مما لا ترضاه لى ، رب وقد غسلت وجهي وهو مجمع حواسي فاجعل ذلك تطهيراً لها مما اقترفت مما أشعر به وما لا أشعر ، وكذلك غسل يديه التي هي مظهر بطشه ومرجع عمله ، ثم مس رأسه الذى هو مستودع قوة تفكيره فكأنه يقول : اللهم هذا مبلغ طاقتي فى تطهير نفسي فأعني على ما بقي خفياً عني ، فإذا غسل رجليه فلكي يسعى بهما طاهرتين إلى حيث ما تسعى القدم ، ذلك هو الوقوف بين يدي ربه خاشعا خاضعا مستحضراً عظمته وجلاله و[illegible] كل ما سواه قائلا بلسانه وقلبه [illegible] كبره [illegible]

هذه الكلمة بعد هذا الاستعداد العظيم كافية للنفس التى تعرف فيها أن تنصرف عن كل ما سواه وكل ما سواه صغير حقير والله أكبر ؟؟ أليس ينبغى له وقد وقف بمرآى من ربه أن يقبل عليه فيذكر نعمته ويشكرها ويثنى عليه بأنه هو صاحب الحمد وحده فى كل نعمة ، فما من نعمة إلا وهى منه وأنه هو رب العالمين خلق كل شىء فسواه وأعطاه كماله اللائق به ، ثم هو مصدر الرحمات والواهب لجميع العطايا ، فإن لم يكفه هذا ليجذب نفسه نحوه رغبة فى فضله واعترافاً بشكره فهو مالك يوم الدين (يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ العَالَمِين) (يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً) وهنا تجد نفسك بين الرغبة العظمى والرهبة الكبرى فلا تجد مناصاً من إفراده بالعبادة وحده ، فتتجه إليه مستحضراً عظمته وتخاطبه كأنك تشاهده (إياك نعبد) ولما لم يكن للنفس قدرة إلا منه ولا معونة إلا به تخصه بطلب المعونة (وإياك نستعين) وهنا تشعر بأن التوفيق والهداية ليس لهما باب إلا رحمته الواسعة ، فكم من عقول كانت راجحة فزلت وضلت لأنها لم تدركها هدايته فيبتهل المصلى إلى ربه طالباً منه الهداية إلى الطريق الأقوم ، طريق المتقين وأن يباعده عن سبيل المنكرين المعاندين والضالين الزائغين فيقول (اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين) .

وبعد هذا فسواء أقرأ بعد ذلك ما تيسر من القرآن أم اقتصر على

أم الكتاب . فإن هذا المقدار كاف فى أن يخضع لجلال الله ، ويطأطىء هامته أمام عظمته مسبحاً حامداً معترفاً بلسان حاله أنه هو الجدير وحده بأن يخضع له ويخشع أمام هيبته ، وتحنى الهامات تعظيما لقدره . فإذا ما اطمأن لهذا طلب إليه أن يرفع قامته استعداداً لامتثال ما يطلب منه والقيام بما يؤمر به ، فيطلب إليه بعد هذا أن يخر ساجداً لله وأن يضع جبهته — وهى أعز شىء لديه — على الأرض خضوعاً لله وحده ليحرر نفسه من العبودية لغيره ، وهنا يجىء « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد » ثم يكرر ذلك تثبيتاً وتمكيناً لمعالم الذلة لله وحده التى هى باب العزة للنفس ، فإذا ما كرر هذا العمل مثنى فى الصبح وثلاث فى المغرب ورباع فى باقى الأوقات قائماً باستحضار تلك الأسرار ، فكم يكون مطهراً لنفسه ؟ وكم يكون للصلاة من أثر فى تهذيب النفوس وتطهيرها من الأدران كما يغتسل المرء فى نهر أمام منزله خمس مرات كل يوم فلا يبقى فيه من درن كما فى الحديث الشريف . أولم يتضح لنا بذلك قوله تعالى (إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ) أولم يظهر صدق قوله صلى الله عليه وسلم فى الرجل الذى قيل عنه أنه يفعل كيت وكيت وقد سأل : أليس يقيم الصلاة ؟ قالوا بلى ! فقال إن صلاته ستنهاه .

أجل . إن الصلاة على هذا الوجه وبهذا الاستحضار عماد الدين فمن أقامها فقد أقام الدين ، ومن ضيعها فهو لما سواها أضيع ، ولا يفوتك أن تتأمل بنفسك مغزى كلمات التشهد فى آخر الصلاة أو وسطها وما فيها

من توجيه التحيات والتعظيمات لله ثم إهداء السلام للواسطة العظمى صلى الله عليه وسلم ، ثم السلام على نفسك وعلى عباد الله الصالحين والعودة إلى الأساس الأكبر شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ثم الصلاة على النبي وعلى آله لأنه الوسيلة إلى هذا الخير كله .

وأما التوجه إلى القبلة فليشعر بأنه وإخوانه المؤمنين جميعاً متجهون إلى جهة واحدة هي أول مهبط للوحي ، فينبغي أن تتحد قلوبهم كما اتحدت وجهتهم .

ناشدتك الله أيها المصلي أن تروض نفسك المرة بعد المرة على أن تستحضر في صلاتك هذه الأسرار حتى تتمكن من نفسك وتصبح ديدنك وعادتك ، فإنك بلا شك ذائق حلاوة الإيمان وشاهد مصداق قوله صلى الله عليه وسلم « وجعلت قرة عيني في الصلاة » ومصداق قوله تعالى (إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عن الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ) وبالغ درجة الإحسان وهي « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

الزكاة : قد جعلها الشارع الحكيم قرينة الصلاة في غير ما آية من الكتاب العزيز ، وذلك أن المال أعز شيء على النفس حتى قالوا : المال شقيق الروح ، إذ يشعر المرء أنه ما من غرض يبتغيه إلا وجد المال وسيلة إليه . فأمر هذه صفته ومنزلته في النفس كم يكون الخروج عنه بلا مقابل عاجل صعباً على النفس وشاقاً ، فلا جرم أن جعل الشارع بذله وهو على هذه الصفة ابتغاء مرضاة الله علامة الانقياد لطاعته والرغبة

فى مرضاته ، وكان جديراً بالنفس التى ريضت على التهذيب الدائم حتى أصبحت سلسلة القيادة لطاعة مولاها أن يكون أول مظهر هذا الانقياد الإقبال على بذل النفيس العزيز حباً فى إحراز المطلب العزيز وهو رضا الرحمن ، فانظر كيف أن العبادات يأخذ بعضها بحجز بعض حتى تكوّن هيكلا عظيما وبناء شامخاً . وقد أفردنا للزكاة مقالا فى هذا الكتاب شرح بعض ما لها من مزايا وإن كانت أسرار التشريع أوسع من أن يستوفيها مثل هذا القلم القاصر .

الصوم : أما الصوم فما أحوج النفوس التى غرقت فى لذائذ الحياة وانغمست فى الترف والنعيم أن تشعر ردحاً من الزمن بالحاجة إلى المربى الأعظم وتذكر نعمته عليها ولا يذكر بالنعمة إلا فقدها كما قالوا : « الصحة تاج على رؤوس الأصحاء لا يراه إلا المرضى » وليس هذا قاصراً على نعمة الصحة ، فالإنسان دائماً مولع بالنظر إلى ما حرم منه غافل عن الاعتداد بما متع به ، ولذلك جاءت الآيات تترى حاثة على تذكر النعم للقيام بشكرها ، ومن أعظم نعم الله على عباده المؤمنين التى تكررت حتى أصبحت كأنها أمر طبعى مألوف لا يحس به ، هو إطعامه من جوع ، فاقتضت حكمة العليم الحكيم أن يكلف الإنسان أن يجيع نفسه جزء من الزمن ليشكر نعمته عليه وليذكر حال من حرم من هذه النعمة بسبب الفقر فيعطف عليه ، وليهذب نفسه ببيان عجزها وضعفها حتى ترجع إلى خالقها ، ثم تعويد النفس على ضبط عواطفها ، وتربية ملكة الصبر والأمانة فيها .

الحج : جاءت الشريعة الإسلامية المطهرة لتكوّن الأمة وتوحد صفوفها وتجمع شملها وتقوى كتلتها وتمتن بنيتها ، كما كفلت تهذيب الفرد وتطهير نفسه ورفعه عن الدنايا والدنس وعن الخضوع ، خضوع العبادة لغير ربه ، والأمة الإسلامية لا يحويها صعيد واحد ولا يحصرها إقليم واحد ، وإنما هى تعمر الأرض مشارقها ومغاربها ، ولكل أمة مزاياها ورزاياها ، ورب أمة متعة بمزايا جمة قد حرمت مزية كبرى امتازت بها أمة تعيش بمنأى عنها وكذلك رب رزية حلت بقوم وقد نجا منها غيرهم بما هداهم الله إليه .

ولما كان الإسلام قد جعل المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا وجعل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم كالجسد الواحد إذا اشتكى عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى . كان تشريع أمر الحج تشريعا عجبا يهدى إلى الرشد وينقذ من الضيم ويعين البعض على مساعدة البعض ويجعل التراحم بين المؤمنين والتساند حقيقة لا خيالا ففرض على المؤمنين أن يحج منهم من استطاع ليشهدوا منافع لهم وليطوفوا بالبيت العتيق الذى هو قبلتهم ورمز وحدتهم ووجهتهم فى عبادتهم لحكم جليلة لا لأن الله فى مكان سبحانه عن أن يحويه مكان ، وقد تضمن بما شرع فيه من التجرد عن متاع الحياة الدنيا ذكرى يوم البعث والنشور ، ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود ، وكأن الحجاج يقولون بلسان حالهم : ربنا إننا تجردنا من كل شىء لنقبل عليك فلبيك اللهم لبيك .

وقد اقتضت حكمته جل شأنه أن يجعله فى واد غير ذى زرع تجبى إليه ثمرات كل شيء لينجو من أن يكون مثار التنازع على الملك من حيث احتواؤه على زخرف الحياة الدنيا ومتاعها . فإذا ما تنوزع على الأمر فيه فليس إلا للقيام بخدمة عباد الله ، وإقامة شعائر الله . وهكذا كان ، وهكذا يبقى إلى ما شاء الله .

نسأل الله تعالى أن يرزقنا التوفيق لطاعته . ويباعد بيننا وبين معصيته . فانظر إلى هذه الأحكام وما احتوت من أسرار وحكّم عقلك فيما إذا كشف لك الغطاء وكنت من أنوار الناس بصيرة وأرجحهم عقلا وهديت إلى مالم يهتد إليه غيرك ، ثم كلفت أن تضع للناس قانوناً يهذب من طباعهم ، ويسلس من قيادهم . ويلين شكيمتهم . ويزيل الأحقاد من نفوسهم حتى يتم تراحمهم ، أفكنت واجداً خطة أهدى تتبعها أم أنت معترف بأن الكمال لله وحده ، وإن هذا هو الدين الحنيف (فطرت الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك لدين القيم) .

بين العلم والدين

هل الدين ضروري للحياة ؟

ربما كانت هذه المسألة أحق المسائل بالبحث ، وألزمها بالمراعاة في هذا العصر ، الذى سيطرت فيه على الحياة والأحياء ، هذه الظاهرة المادية . ووقف الإيمان بناسه عندما تلمسه اليد ، وتحيله في بوتقات التجارب ، ولعلهم يشكون فيما تراه العين ، وتسمعه الأذن ، وبشمه الأنف . . . حتى عاد هذا العصر أشبه شيء بعصور الوثنية ؟ وصار أهلوه أشبه بمن يصنعون التماثيل ويعبدونها من دون الله ! :

هذه الروح العامة تلقاك حيث سرت ، وأين حللت ، تلقاك في العلم بين العلماء ، وفى الفن بين الفنيين ، وفى المصانع بين العاملين ، سحرت الشبان ووقفت بتفكيرهم وعقائدهم وإيمانهم عند هذه الدرجة ، كأنما الحياة جسم لاروح فيها ، وكأننا ألغينا العقول واستحلنا زنوجاً نجدد تاريخنا مطلع كل شمس ، أو حجارة ليس لها من الحياة والممات إلا ملء الفراغ والتحيز فى الأجواء .

نحن فى حاجة قصوى إلى استرداد إنسانيتنا . وعرفان هذه الناحية الروحية التى تميزنا من سائر الكائنات ، وتتجاوز بنا هذا الستار الحسي

السخيف ، إلى حيث نعرف أنفسنا ، ثم نعرف خالقنا ؛ إلى حيث الإيمان والدين .

أما أن الدين مسألة طبعية للإنسان ، فشيء ثابت لايتردد فيه الباحثون الآن مهما يكن لون هذا الدين : فليكن ديناً أرضياً ، وليكن ديناً سماوياً ، وليكن مذهبا اجتماعيا أو علميا ، ولكنه على كل حال عقيدة يطمئن إليها الإنسان ، ويصدر عنها فى حياته ، وتظهر آثارها وروحها فى كل أعماله ؛ فالدين هو هذه الشخصية الروحية للإنسان ، وهو كما يحكى « كارليل » : أحسن مافى الإنسان ، وأى شيء أحسن من الهداية والرشاد ، وأى شيء أقوم من هذا الذى يرسم لك طريق الحياة ، ويطمئنك على مابعد الممات ؟ !

* * *

ولكن المسألة هى : أى دين هذا الذى يستطيع السيطرة القوية الخالدة على الحياة والأحياء ؟ أيكفى فيه هذه المواضعات البشرية ، والقوانين الاجتماعية ، التى يضعها العلماء النابهون ؟ أم أن الدين بحكم طبيعته ووظيفته يجب أن يستمد أصوله وروحه من مصدر أسمى من هذا الإنسان ليستطيع السيطرة على الإنسان ، ويجب أن يبسط سلطانه على الحياة ومابعد الحياة ، ليبعث فى الناس الصبر والاحتمال والأمل العريض ؟

(١) لعل أهم ميزة للدين السماوى كالإسلام ، هى الاعتراف بحياتين :

هذه الحياة الدنيوية التي يجول فيها الناس ، وتقف عندها جهودهم ، وتقصر عليها معارفهم ، وتوضع لها قوانينهم العلمية المدنية ، ثم تلك الحياة الآخرة التي قد تعد أمام المعرفة الإنسانية سراً مجهولا ، وربما صارت عند البعض سرابا خداعاً ووهما باطلا ، ولكنها أمام الإيمان الصحيح ، والعقائد السديدة نتيجة منطقية للحياة الدنيا ، ومستقر طبعي محتوم .

بهاتين الحياتين يعترف الدين الإلهي ، وأما العلم فمنتهى عرفانه ومجال سلطانه لايعدو هذه الدنيا الفانية ، وهو بعد ذلك لايزال مذ فجر الحياة يحاول إسعاد الناس ، وبعث الطمأنينة في نفوسهم حتى فشل وعجز ، بل بعث اليأس في الحياة ، وحول سذاجتها وطهرها جحيما مستعراً وعذاباً أليما !

خبّرني : علام يعتمد هذا العلم الإنساني وتقوم قوانينه الوضعية ؟ أليست تعتمد في تجميل الحياة على الصناعة وآثارها ، أو بالأحرى على المال ؟ ثم قل لي : كم من الناس يستطيع أن يوفر لنفسه من المال مايمكنه من مسايرة هذا العيش الصناعي ، والهدوء في هذه الحياة الدنيا؟! طبعاً ، لا أحد ، أو هم أقلية لاتكون نسبة مئوية ولا ألفية ، وأما سائر الناس في رأى هذه الحياة العلمية ، فهم جد أشقياء بائسين ، على أن هؤلاء الأفذاذ ، الذين أتيحت لهم كثرة مالية لايضمنون السعادة بهذا المال ، بل كثيراً ما يضمنون به الشقوة والهلاك . والسعادة كما نعلم لاتفرض على النفوس فرضا ، وإنما تفيض منها فيضا ، إذ هي عقيدة ذاتية ،

ورضا ، وقناعة ، وشعور بالهدوء والاطمئنان . . .

العلم عاجز ، وقوانينه قاصرة ، ولكن هذا الدين السماوى يعرف الحياتين ويكمل كلا بالآخرى ، ويسبغ على النفوس اليسر والطمأنينة ؛ فيطلب إلى الأغنياء زكاة المال للفقراء ، وينادى بالمساواة والعدالة . ويعد الفقراء والمجهودين فى الدنيا حياة أخرى أطول أجلا وأنعم حالا تعوض عليهم من هذا الحطام الزائل نعيما مقيما وسعادة خالدة ، فيحيون صابرين رجاء المثوبة ، ويعمرون الحياة آملين راغبين ، ولولا هذا الأمل لضاقت مدة العمر عن توفير السعادة والخير . واستولى اليأس على النفوس وكان شقاء العالم والانتحار ؛ فالدين السماوى يغمر الأحياء بهذا الروح الذى يرضيهم بهذا العاجل الواقعى ، ويقويهم بالأمل فى ذلك الآجل الكالى ، وهو بذلك ضرورى للحياة الدنيا ، والآخرة خير وأبقى .

ولو حاولت القوانين الوضعية فرض حياة آخرة لكانت هذه الحياة موضع شك وسخرية ، وتعرضت للزوال منذ ولادتها ، وليس فى الإمكان أبدع مما كان .

(٢) ثم خبرنى كيف يستطيع هذا الدين الوضعى السيطرة على الحياة الروحية ، وفرض الرقابة على ماخفى وظهر ، والمحاسبة على ماتراه عين القانون ولايقع تحت طائلته ؟

يستطيع الإنسان السرقة والقتل وانتهاك الحرمات خفية لا يراه

الشرطى ، وهو بعد ذلك آمن وادع يسلب الناس الأموال والأعمار دون قصاص ، مادام بعيداً عن رقابة أو شهادة . فأى سلطان يردعه عن الآثام والعدوان ؟ لابد إذاً من سلطان روحى غير عادى ، أقوى من هذا السلطان الحسى . . لابد من قانون يحاسب على الظاهر والخفى إن لم يكن عاجلا فآجلا ، حتى يستقر فى النفوس مايزعها عن الشر ويتكون فيها هذا الضمير الدينى الذى هو أسمى المظاهر الخلقية فى الإنسان ؛ ذلك هو الدين الإلهى الذى لايقف عند تربية هذا الوازع النفسى بل يحمل الناس على عمل الخير خفية دون الشر رجاء المثوبة ، وحفظاً لحياة الناس ، وإبقاء على كرامة المعوزين ، وهنا يستريح العالم ويحيا حياة روحية ويعيش الإنسان إنسانا .

(٣) ومسألة أخرى يمتاز بها الدين السماوى هى الخلود ، ولاتزال الشرائع الأرضية بين نقض وإبرام متعاقبين ، ولاتزل بادية النقص ضيقة التأثير والملاءمة للمجتمعات ، ولكن الله سبحانه هو القادر على خلق هذا الدين الخالد ، الصالح للبيئات الزمانية والمكانية جميعا .

وأنت إذا نظرت فى تعاليم الإسلام . وجدت فيها من رحابة الصدر والملاءمة لفنون الحياة ، مايقنعك بأن هذا الدين الحنيف هو دين الخلود .

(٤) وبعد فماذا وراء الإلحاد والكفران غير الوثنية والحيرة ، وسلب الحياة روحها ، وعبادة الحديد والنار ، والتعلق بالمال وهو صعب المنال ، سريع الزوال ؟ أليس من الخير بعد هذا الانتكاس الدينى

أن نعود إلى حظيرة الدين آمنين مؤمنين ، سالكين إليه تلك الطريق البسيطة المقنعة التى سلكها أبونا إبراهيم عليه السلام . لما استعرض مظاهر الكون فبدا له نقصها وزوالها فتركها إلى خالقها وقال : « إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلذى فَطَرَ السَّمٰوات وَالأرْضَ حَنيفاً وَمَا أنا مِنَ الْمُشْرِكِينْ » ؟ !

العودة إلى الدين

تقضى الشرائع السماوية على أن الدين هو الدولة — أو بمعنى أصح، هو قانون الدولة ، أو دستور الحكم فيها ، هكذا يجب أن يكون . ذلك لأن الأديان إنما تخدم فى حقيقتها ومعانيها عالمين ، وتربط بعضهما ببعض برباط وثيق . . فلا انفصام لأحدهما عن الآخر ، فما قبل الموت عالم ، ومابعده عالم آخر ، وهما حياة دنيا ، وحياة أخرى ، والفناء بينهما . أداة للبقاء أو رمز للانتقال من حال إلى حال . فسبحان مغير الأحوال وقد قال الشاعر الحكيم :

خلق الناس للبقاء فضلت أمة يحسبونهم للنفاد
إنما ينقلون من دار أعما ل إلى دار شقوة أو رشاد

ذلك ماتقرره الأديان التى أحكمت الربط بين ماضى الإنسان ، وحاضره ومستقبله فجعلت من ذلك وحدة متشابكة مترابطة ، تتأثر الأخرى بما يعتور الأولى من خلل أو انحلال أو ضعف ، ومعنى هذا أن هذه الأديان الإلهية العظيمة كانت تقضى أو تأمر ، أن يكون الحكم فى هذه الحياة . لها أو بها لأن نتائج مابعد الموت مترتبة على ماقبله فمن يذنب فى الدنيا ، يعاقب فى الأخرى ، ومن يصلح فى هذه ، يفلح فى تلك ، ومن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره .

تلك هى حقائق الأديان ، وحكمتها ومراميها ، وهى بهذا تجعل من نفسها ، أو جعل منها الله صانعها ، وخالقها ، حكما ، ودستوراً .

فإذا نظرنا بهذا المنظار ، إلى الدساتير الوضعية ، التى أنشأتها بعض الدول التى تنتسب إلى ديانة ما ، وجدناها تخالف هذه القاعدة ، أو تختلف عنها اختلافاً واضحاً ، فانجلترا مثلا ، أو فرنسا ، أو هولندا تنتسب إلى المسيحية كدين رسمى للدولة ، ولكن قوانينها ودساتير الحكم فيها ليست مستمدة من الإنجيل ، ولا هى قائمة عليه . وكذلك الشأن فى بعض البلاد الإسلامية ، فبينما ينص دستورها على أن دين الدولة الرسمى هو الإسلام تجد أن قوانينها مستمدة من بعض القوانين الفرنسية أو الهولندية ، أو غيرها .

أما الإسلام فكما قيل عنه ، أنه دين الدولة فقط ، وليس هو دستورها المحكوم بمقتضاه وعلى أساسه .

وما معنى هذا إذن ؟

إن الأديان وجدت لتكون عملا يؤدى ، وشرعة تتبع ، لا لتكون رمزاً فقط . فإذا قيل إن دين الدولة شىء ، ودستورها شىء آخر ، فإن هذا تهريج لا معنى له .

ذلك لأن الأديان ربطت بين حياتى الناس ، دنياهم وأخراهم ، فالنعيم أو الشقاء فى الأخرى مترتب على الصلاح أو الفساد فى الأولى . أما هذه القوانين الوضعية ، فقد وجدت لتعالج حال الدنيا فقط ،

أما الأخرى فإنها عنها بمعزل ، والأديان من صنع الخالق ، وتدبيره ؛ أما القوانين ، فمن وضع المخلوق وتفكيره ؛ ومتى كان عمل الخالق ، يتساوى فى الحكم والصفة مع عمل المخلوق ؟

ولو كان الإنسان يستطيع أن يهتدى بفكره ويسعد بعمله ؛ لما أنزل الله كتبه المقدسة وأرسل رسله مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل .

والناس متدينون بالفطرة ؛ هكذا خلقهم الله وأنشأهم ، فإذا أرادت الحكومات ، أو الأفراد تحويلهم عما طبعوا عليه ، فإن فى ذلك تباعداً بين المرء وقلبه ، وتفريقاً بين الجسم والنفس ، فترى الجسم منساقاً مع تيار وضعي مادى ، بينما النفس منقادة إلى تيار طبيعى روحى ؛ وهذا ما جعل الحيـــاة فى حالتها الحاضرة جحيما لايطاق ، ومسرحاً للشقاء والفوضى . . والأفكار المتناقضة ، والمبادىء الهدامة .

ولن يستعيد العالم سعادته ، ويستشعر الراحة واللذة ، حتى يسود إلى الدين ، الدين الذى جعله الله قانوناً للحياة ، وتقريراً لما بعدها ، من حياة أخرى ، لاالدين الذى وضعه الإنسان لنفسه ، واستمد تعاليمه من شرور طبيعته ، واندفاع أفكاره وتناقضها وإلا فلماذا هذا التفريق بين الطبقات ، والتميز بين الأجناس والتناحر بين الحكومات وقدخلق الله الناس جميعاً من طينة واحدة ، وسوى بينهم فى الشكل والوضع ،

والتناسل والنشوء ؛ فلا ميزة بين شخص وآخر إلا بعمل الخير .
ولا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى .

ولقد كان من أثر الاستعمار الغربي ــ لبعض البلاد الإسلامية ــ أن فرق بينها وبين الإسلام ، فتحللت من بعض تعاليمه السمحة وجاءت دساتيرها تعترف بالإسلام كدين رسمي للدولة ؛ ولا تتمشى على تعاليمه أو تهتدي بهداه .

فلا القاتل يقتل ، ولا السارق تقطع يده ، ولا الزكاة مدفوعة ولا الخمرة ممنوعة ، ولا البغاء محرم .

ولئن كان لتلك البلاد بعض العذر يوم إن كان الاستعمار الأجنبي جاثماً على صدرها ، متغلغلا بسمومه بين شرايينها . فما هو عذرها الآن بعد أن أخذ شبح الاستعمار يتزايل ، وظله يتقلص إلى غير رجعة إن شاء الله تعالى ؟

المرأة العربيـة فى صدر الاسلام

كان تعلم العلم الدينى فى عهـد النبوة عاماً للكبار والصغار والذكور والإناث فكان النساء يتدارسن القرآن ، ويروين الأحاديث ، ويحافظن على العبادات ويصلين صفوفاً فى المساجد ، ويستمعن الخطب والمواعظ ويحضرن صلاة العيدين فى المصلى العـام ، ويسافرن لأداء فريضة الحج والعمرة ، بل كن أيضاً يشهدن الحروب ويهيئن للمجاهدين الطعـــام ، ويسقينهم الماء ويغسلن الثياب ويضمدن الجروح ، ويشتركن فى الجهاد أحيـاناً .

نعم إن الشريعة لم توجب على المرأة حضور الجمعة والجماعة إيجاباً ولم تفرض عليها القتال مع الرجال ، وحماية الديار . والدفاع عن الحق بالقوة ، وإنما خصت الرجال بذلك كله ، لأن للمرأة من نظامها الفطرى واختصاصها المنزلى . ما يعوقهـا عن مشاركة الرجال فى كل حين بمثل هذه الأعمال ، ومن أكبر موانعهـا الحمل والولادة وحضانة الأطفـال وإعدادهم رجالا للمستقبل ، وإدارة شئون المنزل .

وأما عملها الإسلامى فى الجهاد فيظهر بمثل ما قامت به فى وقعة أحد بطلة الحروب والوقائع العربية الإسلامية ، الصحابية الجليلة أم عمـارة نسيبة بنت كعب المازنية الأنصارية الشهيرة . وإليكم الحوار الذى دار

بينها وبين أم سعد بنت سعد بن الربيع ، قالت أم سعد : دخلت على أم عمارة فقلت يا خلة : أخبريني خبرك . قالت خرجت أول النهار وأنا أنظر ما يصنع الناس ، ومعى سقاء فيه ماء ، فانتهيت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فى أصحابه والدولة والريح للمسلمين . فلما انهزم المسلمون انحزت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فكنت أباشر القتال ، وأذب عنه بالسيف وأرمى عن القوس ، حتى خلصت الجراح إلى ، فرأيت على عاتقها جرحاً أجوف له غور ، فقلت من أصابك بهذا قالت ابن قمئة أقمأه الله (أذله وأصغره) لما ولى الناس عن رسول الله أقبل يقول : دلونى على محمد ، فلا نجوت إن نجا . فاعترضت له أنا ومصعب ابن عمير ، وأناس ممن ثبت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فضربنى هذه الضربة ، ولكنى ضربته على ذلك ضربات ، ولكن عدو الله كان عليه درعان ، وقد أثنى الرسول على شجاعتها فقال : ما التفت يوم أحد يميناً ولا شمالا إلا ورأيتها تقاتل دونى .

شهدت بيعة الرضوان ، ثم شهدت وقعة اليمامة ، فقاتلت حتى قطعت يدها ، وجرحت اثنتى عشرة جراحة ، وكانت فوق ذلك كله محدثة جليلة ، روى عنها ابنها عباد بن تميم ومولاتها ليلى ، وعكرمة والحارث بن كعب وأم سعد ، وحديثها فى كتب السنن الأربعة .

ويمثل ما قامت به أيضاً ، خولة أخت ضرار بن الأزور الكندى التى كانت أشجع نساء العرب فى عصرها ، وكانت تشبه بخالد بن الوليد

فى حملاته . بل ظنها أناس فى بعض وقائعها خالداً ، بل خالد نفسه كان معجبا بفرط شجاعتها ، وما ظهر من خلالها وشمائلها ، ولها أخبار كثيرة فى فتوح الشام ، وما حدث به ابن هشام وغيره أنه لما أسر أخوها ضرار بن الأزور فى وقعة اجنادين ، سار خالد بن الوليد (رضى الله عنه) فى طليعة من جنده لاستنقاذه ، فبينا هو فى الطريق مر به فارس محتقل رمحه ، لا يبين منه إلا الحدق وهو يقذف بنفسه ، ولا يلوى على ماوراءه فلما نظره خالد قال ليت شعرى من هذا الفارس وأيم الله إنه لفارس ، ثم اتبعه خالد والناس من ورائه ، حتى أدرك جند الروم فحمل عليهم وأمعن فى صفوفهم وصاح بين جوانبهم ، حتى زعزع كتائبهم ، وحطم مواكبهم ، فلم تكن غير جولة جائل ، حتى خرج وسنانه ملطخ بالدماء ، وقد قتل رجالا وجنداً أبطالا ثم عرض نفسه للموت ثانية فاخترق صفوف القوم غير مكترث وخامر المسلمين من القلق والإشفاق عليه شىء كثير ، وظنه أناس خالداً . حتى إذا قدم خالد ، قال له رافع بن عميرة من الفارس الذى تقدم أمامك فلقد بذل نفسه ومهجته ؟ فقال خالد : والله لأنا أشد إنكاراً وإعجاباً لما ظهر من خلاله وشمائله ، وبينا القوم فى حديثهم خرج الفارس كأنه الشهاب الثاقب والخيل تعدو فى أثره ، وكلما اقترب أحد منه ألوى عليه ، فأنهل رمحه من صدره حتى قدم على المسلمين فأحاطوا به وناشدوه كشف اسمه ورفع لثامه ، وناشده ذلك خالد وهو أمير القوم وقائدهم فلم يحر جوابا ، فلما أكثر خالد أجابه وهو ملثم

فقال أيها الأمير إنى لم أعرض عنك إلا حياء منك لأنك أمير جليل ، وأنا من ذوات الخدور ، وبنات الستور وإنما حملنى على ذلك أنى محترقة الكبد ، زائدة الكمد ، فقال خالد من أنت ؟ قالت : أنا خولة بنت الأزور ، كنت مع نساء من قومى فأتانى آت بأن أخى أسير ، فركبت وفعلت ما رأيت . هنالك صاح خالد فى جنده فحملوا وحملت معهم خولة وعظم على الروم مانزل بهم منها ، فانقلبوا على أعقابهم . كان لوحى الله المعجز سلطان على روح المسلمة ووجدانها ، وكان إيمانها عدتها فى جميع الأمور وعتادها ، فهو يفرغ على قلبها نعمة الصبر والثبات فى جميع المهمات والملمات ، ويعدها بالجزاء الأوفى فى دار الرضوان ، وقد استبان لك الفرق الآن بين حاليها فى صدر الإسلام وما هى عليه فى هذا الزمان .

الصلة بين الدين والأدب

الأدب مدين للدين بالشيء الكثير ، وهذه حقيقة أحسبها بديهية ليست فى حاجة إلى تقرير ، ولكنها فى حاجة إلى شيء من التوضيح أو التفسير .

ولكى يكون التوضيح منطقياً يحفزنا البحث إلى الرجوع إلى تاريخ الأدب العربى واستقراء الأطوار التى درج فيها ، وإذا لم يتسن ذلك فى هذا المجال الضيق ، فلا أقل من إلمامة عابرة ترسم الخطوط الأولية الرئيسية .

يعلم القراء أن الأدب العربى القديم ، أعنى الأدب الجاهلى لم يعرف أدب الكتابة ، فكان مقصوراً على الشعر والخطابة وسجع الكهان ومن فى حكمهم من فصحاء العرب ، وقد خدم الرواة الشعر فنقلوا إلينا أكثره حتى شاء الله له أن يدون حينما أخذت الكتابة العربية طريقها إلى التاريخ ولكن النوع الآخر . أو النثر الفنى فى الخطابة وما إليها ، يستطيع الرواة أن يعوه وعيهم للشعر الذى أعانهم على حفظه ووزنه وموسيقاه ، فلم يكن فى ذلك النثر القليل غناء ، ولم يكن له الأثر الكبير فى توجيه الأدب فى العصور التالية للعصر الجاهلى .

ولما جاء الإسلام استحوذ على أرواح العرب ، فشغلهم الحماس له عن

كل مظهر من مظاهر النشاط الثانوى ، فكان فى ذلك الخير كل الخير للإسلام ودعوته ، فقد استغرق العرب كل جهودهم لتأييد الدين الجديد فصرفوا أرواحهم إلى مواطنه العميقة ، وظواهره التعبدية ، ثم جردوا القوة البيانية لنشر الدعوة كما صرفوا القوة الحربية لهذا الغرض ، ثم انتشروا فى بلاد الله فاتحين داعين . فكانت هذه الفترة التى قضوها فى حياة الجهاد والانتقال من بلد إلى بلد لا تعين على استقرار الأدب ، أو المظاهر التمدنية ، لأنها حياة ينقصها الاستقرار نفسه .

لكن هذه الفترة نفسها لم تخل من النوعين المتقدمين من الأدب ، فظهر فيها الشعر ، ولكنه لم يكن على درجة من الجودة تضعه فى صف واحد مع الشعر الجاهلى الفحل . وظهر فيها أيضاً النثر الفنى فى خطابة الخلفاء والولاة والقادة ، ووصاياهم للشعب وللجيوش .

وعندما بدأت حياة الاستقرار وتركزت الخلافة فى دمشق وبدأ الخلفاء وكبار الرجال يضعون اللبنات الأولى فى حضارة الإسلام بدأت الصلة تتحكم بين الأدب والدين ، وبدأت تظهر جلية تلك الخدمات القيمة التى قدمها رجال الدين للأدب .

وقبل أن أدلف إلى صميم الموضوع لا أحب أن تغيب حقيقة كبرى ليست فى حاجة إلى مماراة . كما أنها ليست فى حاجة على إبانة أو تدليل . هذه الحقيقة هى أثر القرآن فى الأدب ، فالقرآن هو كتاب الله الذى لم يلحقه ولن يلحقه تغيير أو تبديل . ولذلك كان

مصدراً دائماً للبيان الذى لايجارى ينهل منه الأدباء والشعراء فلاينضب معينه ، ولا يبلى جديده ، وقد ساهمت تلاوته التعبدية فى تعميق أثره فى الأدب العربى ، إلى جانب تعمقه فى الشعور الدينى .

إن هذه الحقيقة الكبرى ليست فى حاجة إلى إبانة أما الهدف الذى نبتغيه فهو شرح الروابط الأخرى التى ربطت الأدب بالدين .

بعد حياة الاستقرار التى أشرت إليها من قبل بدأت بوادر التدوين وكان الغرض منه دينياً بحتاً . فشرع علماء الدين فى تسجيل الحديث الشريف وخدمته خشية على ضياعه وتفرع منه العناية المنقطعة النظير بتتبع حياة رواة الحديث بغية التصحيح أو التجريح . وامتد ذلك إلى مالا يكتنف حياة الرواة من التعرض لما امتاز به بعضهم من ميزات أدبية . وعن هذا النوع نشأ أدب التراجم فى الأدب العربى وعن الحديث نفسه ، أقصد عن المتن صدرت على توالى العصور العناية بأسرار البلاغة فى القرآن والحديث فهذان النوعان : أدب التراجم والبحث فى البلاغة كانا فرعين من فروع العناية بعلوم الدين .

ثم هناك اللغة ، مادة الأدب فإن مصدر التحقيق اللغوى وتقويم الألسن بالنحو يرجعان إلى الدين نفسه ، فقد عنى التفسير بالتحقيقات اللغوية للألفاظ ، كما أن شرح الحديث أدى إلى نفس هذه النتيجة .

لقد وضعت الأسس الأولى للنحو . لغرض دينى بحت كما يحدثنا التاريخ فى بعض رواياته فإن خشية اللحن فى القرآن دفعت إلى الغيرة

عليه ، فاتخذت القواعد الأولى من النحو طريقها نحو الغاية التى تدرجت إليها فيما بعد .

والكتابة الفنية حينما ظهرت كانت تستند بقوة على دعائم التضمين من القرآن والتدليل به ، والاستنباط منه . واستعمال بعض صيغه ، يهدف الكتاب من وراء ذلك إلى الإقناع وإثارة العاطفة الدينية فيمن يعنيهم الأمر وإلى تحلية نثرهم وإضفاء لون طريف عليه من الإبداع .

ليست هذه كل روابط الأدب بالدين . ولكنها أمثلة من تلك الروابط لعل فى إشارتها أو التذكير بها فى هذه الكلمة باعثاً على تحكيم الصلات بين المسلمين وتوثيق التقارب فيما بينهم ، وهذا التقارب ألوان من التقارب الثقافى ، وهو الدور الذى يجب أن نقوم بتأديته كاملا والتقارب الثقافى أنواع وصنوف ، فيجب أن نضع منهاجاً للتقارب فى الأفكار والآراء الدينية والأدبية . ومن هنا كان حق الأدب أن يجاور الأبحاث الدينية ، ما دام يرمى إلى الأهداف الإسلامية الصحيحة .

الإسلام دين ثقافة

أرسل الله محمداً صلى الله عليه وسلم رسولا يخاطب بمعجزته العقول ، ويحاور الألباب « أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ، وإِلَى السَّماءِ كَيْفَ رُفِعَتْ . وإِلَى الجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ » ، « إِنْ فى خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ واخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ لآياتٍ لأُولِى الألباب » ، « وفى أَنْفُسِكُم أَفَلَا تُبْصِرُونَ » ليرشد الناس إلى أن العقل أساس الحياة ، وسر الوجود ، والعلم رائد العقل وهاديه وشمسه التى تضىء له الآفاق المظلمة فيحض القرآن الكريم الناس على العلم ، ويغريهم به فى أسلوبه الساحر الجذاب « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون ، إنما يتذكر أولوا الألباب » ، « إنما يخشى الله من عباده العلماء » ولعل فى نزول أول سورة منه بالدعوة إلى القراءة والتعلم « إقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، إقرأ وربك الأكرم » أعظم تمجيد للعلم والعلماء . وتنبيهاً سافراً إلى أن عصر الإسلام هو عصر العلم والثقافة ، ويدفع النبي صلى الله عليه وسلم أتباعه بكلتا يديه إلى محو الجهالة وإزالة الأمية ، ويرسم لهم خطة ذلك الكفاح المجيد عقب أول غزوة غزاها . فيجعل فداء الأسير الذى يحسن القراءة

والكتابة ، تعليم عشرة من المسلمين ؛ ويوجه إلى كل قبيلة تعتنق الإسلام معلماً يرشدهم ويهذبهم ويثقفهم ، ثم يوالى حملته المقدسة الناجحة على الجهل ، فيحض الناس على التعلم تارة بالأمر الجازم « أطلبوا العلم ولو بالصين » وتارة بالترغيب والتحبيب « الناس عالم ومتعلم وسائرهم همج » « إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يطلب » ، ولمداد ماجرت به أقلام العلماء خير من دماء الشهداء فى سبيل الله » إلى غير ذلك من الأحاديث الشريفة الكثيرة الداعية إلى التعلم .

ويرى النبى صلى الله عليه وسلم أن مهنة التعليم شاقة عسيرة ، ومهمة صعبة معقدة فيغرى بها المتعلمين ويرغبها إلى العلماء بمختلف الأساليب فينصب من نفسه معلماً للناس فى مسجده الشريف ويبين أن التبتل للتعليم أسمى من التبتل للعبادة والذكر فيقول صلى الله عليه وسلم « فضل العالم على العابد كفضلى على أدناكم » ويخرج ذات يوم مع بعض أصحابه فيرى مجلسين أحدهما فيه قوم يدعون الله عز وجل ويرغبون إليه . وفى الثانى جماعة يعلمون الناس فيقول : « أما هؤلاء فيسألون الله فإن شاء أعطاهم وإن شاء منعهم وأما هؤلاء فيعلمون الناس وإنما بعثت معلماً » .

وقف الإسلام فى ذلك مع الأنثى موقفه مع الذكر وأخذت المرأة من ذلك التعليم بنصيب موفور فقد كانت تقرأ القرآن ، وتحفظ الحديث وتنشد الأشعار ، وتروى الأخبار وتسير مع الرجال إلى ساحات القتال فتسقى العطاش وتضمد الجرحى . جاء فى صحيح البخارى أن النساء قالوا :

يارسول الله غلبنا عليك الرجال فاجعل لنا يوماً من نفسك . فجعل لهن يوماً ليعظهن ويعلمهن فيه . قال الإمام أحمد فى مسنده عن الشفاء بنت عبد الله قالت : دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا عند حفصة فقال : "لا تعلمين هذه رقية النملة كما علمتيها الكتابة ، قال الأثرم قال إبراهيم بهذا حدثت أحمد بن حنبل رضى الله عنه فقال : هذا رخصة فى تعليم النساء الكتابة ، والحديث ظاهر فى الحض على تعليم المرأة ماهو فوق الكتابة ، فالرقية طب نفسى ، له منزلته فى علاج الأمراض .

يقول المؤرخ الفرنسى الكبير « سديو » فى كتابه خلاصة تاريخ العرب : « كان عرب أسبانيا متفوقين على الفرنج فى العلوم والصنائع والأخلاق الكريمة ، مما حبب لملوك قسطيلة أن يقدموا إلى قرطبة لاستشارة أطبائها الذين كانوا معروفين بتضلعهم فى هذه الصناعة . . . والذى ساعد هؤلاء العرب على بلوغ أبعد شأو من العظمة اتساع دائرة العلوم والفنون لديهم ، وانتشار المعارف الفلاحية والصناعية فيهم ، لهذا ذاق جميعهم لذة العلم وتنافسوا فى ابتكار مايمتازون به من الأعمال النافعة ، إلى غير ذلك مما ذكره فى عظمة المسلمين العلمية فى أسبانيا وما أفادته أوربا من معارف المسلمين تلك ، ولم تكن حال المسلمين بالمشرق بأقل من حالهم بالأندلس فقد اطردت النهضة العلمية فى البلاد الإسلامية اطراداً وتوفيقاً ونجاحاً حتى جددوا عهد العظمة الإسلامية والنهضة المحمدية المباركة .

قال الله تعالى فى كتابه الكريم



قال تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)

قرر الإسلام أن الناس كلهم بنو أب واحد وأم واحدة ، فهم إخوة أشقاء يجرى فى عروقهم جميعاً دم الأخوة الإنسانية عربهم وعجمهم ، أسودهم وأحمرهم والأصفر والأبيض ، لا فضل لأحد على أحد إلا بالعمل الصالح والتقوى والنفع العام للمجتمع البشرى ، فحطم بذلك أغلالا من الباطل غلت بها أيدى الإنسانية المظلومة عن التعاون الخيرى المؤسس على العدل والإنصاف فقد قسمت الأغراض الظالمة الناس قسمة ضيزى لا سند لها من عقل ولا فطرة ولا واقع ، وميزوا بعضها بالوهم والغشم وجعلوها أجناساً من حيوانات شتى وفرقوا بينها بفوارق الأنانية والأثرة والتعالى الكاذب وظلم الإنسان لأخيه الإنسان . خذ مثلا وثنية الهندوس التى قسمت الناس أقساماً أربعة أعلاها البراهمة وأدناها شودر ينفصل بعضها عن بعض فى كل شىء من مرافق الحياة فى الطعام والشراب والاختلاط والاتصال والزواج فليس لواحد منها

أن يتطلع إلى غير طبقته أو يرفع بصره عنها حتى لقد اعتقدت كل طبقة بنجاسة من دونها ، فالشودر مثلا عليه أن يخلى الطريق لمن فوقه كالبرهمى ولا يصح له بحال من الأحوال أن يمسه ولا أن يتعبد معه فى معبد . دعى الحكيم أجمل خان زعيم الهند السياسى ورأس أطبائها لمعاينة مرض أحد الرجوات الهندوس وعندما جس نبضه دعا الراجا بماء لغسل يده مما مست يد الحكيم أجمل خان ، فدعا أجمل خان خادمه ـ مقابل للعمل بمثله ـ فغسل يده وانصرف عن الراجا بازدراء حتى دهش الراجا وانبهر. هكذا يعامل الإنسان أخاه الإنسان كمعاملة متفيهق موسوس لكلب أو خنزير وقد سرى هذا العنت والظلم إلى وثنيات أخرى فترى مثل هذا أو شبيهاً به لدى جاهلية الفراعنة والأكاسرة والأباطرة حتى عرب الجاهلية الذين صهرتهم خشونة الصحراء وساوى بينهم شظف العيش لم يسلموا من هذه النعرة الجنسية والتفاخر بالأحساب والاعتزاز بشرف الأنساب حتى جاء الإسلام بهذا الانقلاب والإصلاح وبالثورة على هذا الظلم الصارخ فدك تلك الحواجز الوهمية وأبطل تلك الفروق الجاهلية فنادى فى صريح كتابه وعلى لسان رسوله أن الناس كلهم بنو آدم ، ففى القرآن مالا يعد كثرة من قوله تعالى (يابنى آدم) وقوله (يا أيها الناس) وهذه الآية فى صدر المقال تنادى بصريح العبارة إن الناس خلقوا من ذكر وأنثى فهم أشقاء الأبوة الآدمية والأمومة الحوائية ، وإنما جعلهم الله شعوباً وقبائل للتعارف بالانتساب لا للتفاخر بالأنساب ولا للتباهى

بالأحساب وختمها بالقول الفصل (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) . وجاء في السنة النبوية ما هو ضياء ونور وشرح لكتاب الله تعالى . فعن حذيفة بن اليمان قال من تراب رسول الله ﷺ «كلكم بنو آدم وآدم خلق من تراب لينهين قوم يفخرون بآبائهم أو ليكونن أهون على الله تعالى من الجعلان أو الجعل» ويقول العامة : الجعلان دوية خسيسة تندس في الأقذار وتتغذى بها . وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ خطبهم على راحلته فحمد الله تعالى وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال : «يا أيها الناس إن الله تعالى قد أذهب عنكم عبية الجاهلية ـ أي كبرها ـ وتعظمها بآبائها . فالناس رجلان : رجل بر تقي كريم على الله تعالى ، ورجل فاجر شقي على الله تعالى . إن الله عز وجل يقول : «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لتعارفوا : إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ» ثم قال ﷺ «أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم» . نقله الحافظ بن كثير عند تفسير هذه الآية من تفسير ابن أبي حاتم وعبيد بن حميد ، قال : وروى الإمام أحمد في مسنده بسنده إلى عقبة بن عامر قال : إن رسول الله ﷺ قال : «إن أنسابكم هذه ليست بسبة على أحد . كلكم بنو آدم طف الصاع لم يملؤه . . ليس لأحد على أحد فضل إلا بدين وتقوى وكفى بالرجل أن يكون بذياً بخيلا فاحشاً» ، قال ورواه ابن جرير ولفظه «الناس لآدم وحواء طف الصاع لم يملؤه» . إن الله لا يسألكم عن

أحسابكم ولا عن أنسابكم يوم القيامة «إن أكرمكم عند الله أتقاكم».
قال الجزرى فى النهاية قوله «كلكم بنو آدم طف الصاع ليس لأحد على أحد فضل إلا بالتقوى» أى قريب بعضكم من بعض.

كلكم فى الانتساب إلى أب واحد بمنزلة واحدة فى النقص والتقاصر عن غاية التمام شبههم فى نقصانهم بالمكيل الذى لم يبلغ أن يملأ المكيال ثم أعلمهم أن التفاضل ليس بالنسب ولكن بالتقوى. وروى الإمام أحمد عن درة بنت أبى لهب قالت: قام رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر فقال: يا رسول الله أى الناس خير؟ قال صلى الله عليه وسلم: «خير الناس أقرؤهم وأتقاهم لله عز وجل وآمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر وأوصلهم للرحم» وفى حديث حبيب ابن خراش القصيرى أن رسول الله ﷺ يقول: «المسلمون إخوة لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى» رواه الطبرانى. وفى حديث أبى هريرة عن مسلم قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم». وروى الإمام أحمد عن أبى ذر رضى الله عنه قال: إن النبى صلى الله عليه وسلم قال له: «أنظر فإنك لست بخير من أحمر ولا أسود إن تفضله بتقوى» ـ هذا ـ ولو لم تكن تلك الرذيلة إلا أنها من اختراع رأس كل شر، وينبوع كل ضلال أعنى ابليس لعنه الله إذ يقول: «أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين»، «أأسجد لمن خلقت طيناً» لكنى

بها رذيلة وحسبك بها مقتا وحقارة وعاراً . وقد جاءت سنة النبي ﷺ العملية تطبيقاً لهذا الإصلاح وتنظيما لهذا المبدأ وجرياً على هذا المنوال الحكيم فقداشمأزت عصبية قريش وعيبتها من التفاف الموالى من السابقين الأولين حول النبي ﷺ كبلال وخباب وصهيب فطلبوا منه أن يطردهم عنه ليجالسوه بنعرتهم الحسية وتعظمهم بالنسب والجاه والمال ، ومال النبي ﷺ إلى شيء من ذلك حرصاً على هدايتهم وطمعاً في جلبهم إلى الخير فنزل الله تعالى « ولا تطردون الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين ، وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين » .

وقوله : (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً . وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » . وقال للذى لم تظل الخضراء ولم تقل الغبراء أصدق لهجة منه أزهد الناس فى الدنيا وحطامها الفانى أبي ذر الغفارى عندما عير أحد الموالى بأمه فقال له يا ابن السوداء فقال النبي ﷺ فى غير محاباة ولا مداورة : « أعيرته بأمه ؟ إنك امرؤ فيك جاهلية » فقال أبو ذر : على كبر سنى يارسول الله !! فكان أبو ذر بعد ذلك يقسم قطعتى الحلة بينه وبين مولاه فيلبس شقها ويلبس مولاه شقها الآخر وهو الذى روى الحديث

« إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يطعم وليلبسه مما يلبس » . وزوج عبدالرحمن بن عوف الزهرى أحد سراة الصحابة أخته لبلال بن رباح الحبشى المولى رواه الدارقطنى وبنو زهرة هم بنو زهرة من عليا قريش وأصهار بنى هاشم وأخوال النبى ﷺ وزوج رسول الله ﷺ بنت عمته زينب بنت جحش الأسدية القرشية مولاه زيد بن حارثة الكلبى وزوج فاطمة بنت قيس بنت عم عبد الله بن أم كلثوم وهى قرشية وخطبها معاوية بن أبى سفيان فأشار عليها النبى ﷺ بمولاه وحبه أسامة بن زيد بن حارثة الكلبى فتزوجته واغتبطت به وقالت : جعل الله لى فى ابن زيد خيراً كثيراً . وزوّج النبى ﷺ بنتيه رقية وأم كلثوم الواحدة تلو الأخرى من عثمان بن عفان الأموى العبشمى ، وزوّج ابنته زينب من أبى العاص العبشمى ، وزوّج على بن أبى طالب بنته أم كلثوم الفاطمية الهاشمية من عمر بن الخطاب العدوى ، وقال النبى ﷺ لبنى بياضة من الأنصار وهم من خالص العرب : « أنكحوا أبا طيبة وهو مولى لهم حجام » . وزوّج أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبدشمس القرشى سالماً مولى امرأة من الأنصار زوجة بنت أخيه الوليد بن عتبة بن ربيعة وتبناه .

وروى الترمذى وحسنه عن أبى حاتم المزنى عن النبى ﷺ أنه قال: « إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فانكحوه إلا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير » . قالوا يارسول الله وإن كان فقيراً ؟ قال : « إذا

جاءكم من ترضون دينه وخلقه فانكحوه ثلاث مرات ، وقد رأينا ذلك الفساد الكبير وتلك الفتنة التى أشار إليها ﷺ فيمن انحرف عن هذه السنة القويمة ، وأحيا النعرة الجاهلية وأنبت جذور الشجرة التى اجتثها الإسلام فأعنس العواتق وعجز الفتيات اللاتى أعدتهم الفطرة أن يكن سيدات بيوت وأمهات رجال المستقبل وشقائق الرجال فأفسد تلك الفطرة القويمة واعوج الصراط السوى .

استقام المسلمون أولا على صراط الإسلام حقاً ظاهراً وباطناً فاستقام لهم عز الدنيا والآخرة وملكوا مقاليد العالم ولما غيروا وبدلوا غير الله عليهم وصرف نعمته عنهم مما نجنى ثماره المرة اليوم بل ما نحصد إلا بشوك وقتاد والدين هو الدين فى جوهره ولبه ومعناه ومبناه ولو عدنا إليه حقاً لعادت إلينا سيادة الناس وقيادة العالم وعز الدنيا وسعادة الآخرة ولقد قال الله تعالى، «وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى وَلَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ » .

وقال إمام دار الهجرة مالك بن أنس رحمه الله : لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها يعنى بالدين. ولنا رجاء نرجوه فى رحمة الله أن يستدير الزمان ويعود للمسلمين عزهم بالتمسك بدينهم . وما ذلك على الله بعزيز .

النهى عن الغلو فى الدين

خشى الله على المؤمن أن يغلو فى طلب الآخرة فيهلك دنياه وينسى نفسه منها ، فذكرنا بماقصه علينا أن الآخرة يمكن نيلها مع التمتع بنعم الله علينا إذ قال (وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد فى الأرض إن الله لا يحب المفسدين) . سورة القصص .

فترى أن الإسلام لم يبخس الحواس حقها . كما أنه هيأ الروح لبلوغ كمالها . فهو الذى جمع للإنسان أجزاء حقيقته واعتبره حيوانا ناطقاً لا جسمانياً صرفاً ولا ملكوتياً بحتا . جعله من أهل الدنيا كما هو من أهل الآخرة . واستبقاه من أهل هذا العالم الجسدانى كما دعاه إلى أن يطلب مقامه الروحانى أليس يكون بذلك وبما بينه فى قوله (هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً) قد أطلق القيد عن قواه . ليصل من رفه الحياة (مع القصد) إلى منتهاه ؟ والنفوس مطبوعة على التنافس ، قد غرز فيها حب التسابق فيما تعتقده خيراً أو تجده لذيذاً أو تظنه نافعاً .

وليس فى الغريزة الإنسانية أن يقف بها الطلب عند حد محدود أو ينتهى بها السعى إلى غاية لا مطلع للرغبة وراءها . بل خصها الله بالمكنة من الرقى فى أطوار الكمال من جميع وجوهه إلى ماشاء الله أن ترقى بدون حد معروف .

الدعوة إلى الدين

قام رسول الله ﷺ إذعاناً لأمر الله تعالى ودعا لعبادته جل شأنه أقواماً جفاة لادين لهم ، إلا أن يسجدوا للأصنام لا تنفع ولا تضر ، ولا حجة لهم إلا أنهم متبعون لما كان يعبد آباؤهم ، وليس عندهم من مكارم الأخلاق إلا ما كان مرتبطاً بالعزة والأنفة ، وهو الذى كثيراً ما كان سبباً فى الغارات والحروب وإهراق الدماء ، فجاءهم رسول الله ﷺ بما لا يعرفونه . فذوو العقول السليمة بادروا إلى التصديق وخلع الأوثان ، ومن أعمته الرياسة أدبر واستكبر كيلا تسلب منه عظمته .
وكان أول من سطع عليه نور الإسلام خديجة بنت خويلد زوجه ، وعلى بن أبي طالب ابن عمه ، وكان مقيما عنده يطعمه ويسقيه ويقوم بأمره ، لأن قريشاً كانوا قد أصابتهم مجاعة ، وكان أبو طالب مقلا كثير الأولاد ، فقال عليه السلام لعمه العباس بن عبد المطلب : إن أخاك أبا طالب كثير العيال والناس فيما ترى من الشدة فانطلق بنا إليه لنخفف من عياله ، تأخذ واحداً وأنا واحداً ، فانطلقا وعرضا عليه الأمر ، فأخذ العباس جعفر بن أبي طالب وأخذ عليه السلام علياً فكان فى كفالته كأحد أولاده إلى أن جاءت النبوة وقد ناهز الاحتلام ، فكان تابعاً للنبي فى كل أعماله ولم يتدنس بدنس الجاهلية من عبادة الأوثان واتباع

الهوى ، وأجاب أيضاً كثيرون منهم زيد بن حارثة بن شرحبيل الكلبي مولاه عليه السلام ، وأم أيمن حاضنته التى زوجها لمولاه زيد ، وأبوبكر الصديق رضى الله عنه ، وعبد الله بن مسعود ، وأبو ذر الغفارى وكان من أعراب البادية فصيحاً حلو الحديث ، وعثمان بن عفان ، وسعد ابن أبى وقاص وكثيرون غيره .

وهكذا دخل هؤلاء الأشراف فى دين الإسلام ولم يكن مع الرسول ﷺ سيف يضرب به أعناقهم حتى يطيعوه صاغرين . وليس ذلك إلا من هداية الله وسطوع أنوار الدين عليهم حتى أدركوا ما هم عليه من الضلالة وما عليه الرسول من الهدى .

مضت مدة لم يكن المسلمون يتمكنون فيها من إظهار دعوتهم حذراً من تعصب قريش ، فكان كل من أراد العبادة ذهب إلى شعاب مكة يصلى فيها مستخفياً . ولما دخل فى الدين مايربو على الثلاثين ، وكان من اللازم اجتماع الرسول بهم ليرشدهم ويعلمهم ، اختار لذلك دار الأرقم ابن أبى الأرقم — وكان قد أسلم مع من أسلموا — ومكث عليه السلام يدعو سراً حتى نزل عليه قوله تعالى : « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين » فبدل الدعوة سراً بالدعوة جهراً ، ممتثلا أمر ربه ، واثقاً بوعده ونصره ، فصعد على الصفا فجعل ينادى : يابنى فهر ! يابنى عدى! لبطون قريش ، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا لينظر الخبر ، فجاء أبو لهب بن عبد المطلب وقريشا فقال عليه السلام :

أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادى تريد أن تغير عليكم أ كنتم مصدقىّ ؟ قالوا نعم ما جربنا عليك كذبا . قال فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد فقال أبو لهب : تباً لك ألهذا جمعتنا ؟ ! فأنزل الله فى شأنه : « تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ، مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ، سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ ، وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ » . والقصد من حمل الحطب المشى بالنميمة لأنها كانت تقول على رسول الله ﷺ الأكاذيب فى نوادى النساء ، ثم نزل عليه فى سورة الشعراء : « وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ » ، وهم بنو هاشم وبنو المطلب وبنو نوفل وبنو عبد شمس أولاد عبد مناف « وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، فَإِنْ عَصَوْكَ » أى العشيرة والأقربون « فَقُلْ إِنِّى بَرِىءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ » فجمعهم عليه السلام وقال لهم : إن الرائد لا يكذب أهله ، والله لو كذبت الناس جميعاً ما كذبتكم ، ولو غررت الناس جميعاً ما غررتكم ، والله الذى لا إله إلا هو إنى لرسول الله إليكم خاصة وإلى الناس كافة ، والله لتموتن كما تنامون ولتبعثن كما تستيقظون ولتحاسبن بما تعملون ولتجزون بالإحسان إحسانا وبالسوء سوءاً . وإنها لجنة أبداً أو لنار أبداً ، فتكلم القوم كلاما ليناً غير عمه أبى لهب الذى كان خصما لدوداً فإنه قال : خذوا على يديه قبل أن تجتمع عليه العرب فإن سلمتوه إذن ذللتم ، وإن منعتموه قتلتم . فقال أبو طالب : والله لنمنعه ما بقينا ثم انصرف الجمع .

ولما جهر رسول الله ﷺ بالدعوة سخرت منه قريش واستهزأوا

به فى مجالسهم ، فكان إذا مرّ عليهم يقولون : هذا ابن أبي كبشة يكلم من السماء ! وهذا غلام عبد المطلب يكلم من السماء لا يزيدون على ذلك فلما عاب آلهتهم وسفه عقولهم وقال لهم : والله يا قوم لقد خالفتم دين أبيكم إبراهيم . ثارت فى رؤوسهم حمية الجاهلية غيرة على تلك الآلهة التى كان يعبدها آباؤهم فذهبوا إلى عمه أبي طالب سيد بنى هاشم الذى أخذ على نفسه حمايته من أيدى أعدائه ، فطلبوا منه أن يخلى بينهم وبينه أو يكفه عما يقول ، فردهم رداً جميلا فانصرفوا عنه ومضى رسول الله لما يريده ، لا يصده عن مراده شيء ، فتزايد الأمر وأضمرت قريش الحقد والعداوة لرسول الله ﷺ وحث بعضهم بعضا على ذلك ، ثم مشوا إلى أبي طالب مرة أخرى وقالوا له : إن لك سناً وشرفا ومنزلة منا وإنا قد طلبنا منك أن تنهى ابن أخيك فلم تنهه عنا ، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه عقولنا وعيب آلهتنا . فإنهم كانوا إذا احتجوا بالتقليد فى استمرارهم على عدم اتباع الحق ذمهم لعدم استعمال عقولهم فيما خلقت له قال تعالى فى سورة البقرة « وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آباءَنا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ » ، وقال فى سورة المائدة « وَإِذَا قِيلَ لَهُم تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آباءَنا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ

لَا يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ » . وأخيراً بعد يأسهم قالوا لأبى طالب : إما أن تكفه أو ننازله ، وإياك فى ذلك حتى يهلك أحد الفريقين ، ثم انصرفوا فعظم على أبى طالب فراق قومه ، ولم يطب نفساً بخذلان ابن أخيه ، فقال له : يا ابن أخى ، إن القوم جاءونى فقالوا لى كذا وكذا فأبق على نفسك ولا تحملنى من الأمر مالا أطيق ، فظن الرسول أن عمه خاذله فقال : والله يا عم لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر مافعلت حتى يظهره الله أو أهلك دونه . ثم بكى وولى ، فقال أبو طالب : أقبل يا ابن أخى ، فأقبل عليه فقال : اذهب فقل ما أحببت والله لا أسلمك .

حاجة الناس إلى الدين

كان الناس ولا يزالون أمة واحدة مشتبكين فى مصالحهم مترابطين فى حاجاتهم لا يستطيع الواحد منهم أن يعيش كما يعيش بعض الوحوش والحيوانات ، تجدهم بفطرتهم مدفوعين إلى البحث عن وسائل حياتهم وطرق معايشهم ، يدفعون عن أنفسهم مايعتقدون ضره ويجلبون لها مايرون نفعه وقد يخطئون فى تحديد النافع والضار ، فقد يكون الشيء نافعاً عند قوم ضاراً فى نظر الآخرين فإذا تركوا وشأنهم فلا بد وأن يختلفوا . كان الناس أمة واحدة فاختلفوا والخلاف شر كله على الإنسان وحاجز بينه وبين عمارة الأرض التى خلق لها ، ولا يمكن أن يرجع فى تحديد المصالح إلى قوانين من وضع البشر لأنها وليدة الجماعات والبيئات وهى قد تفسد إلى حد كبير ، فترى الحسن قبيحاً والقبيح حسناً ، وما عهدنا بوأد البنات مخافة العار وقتل الأولاد خشية الفقر ببعيد ولا يستطيع العقل البشرى أن يحدد للناس مصالحهم لأن للبيئة سلطاناً عليه فتؤثر فى أحكامه ، وهل يشك أحد فى أن الفوضى المروعة التى توجد فى نظم العالم الاجتماعية والمبادىء الهدامة الغاشمة التى لا تحترم عرضاً ولا تعرف نسباً وليدة عقول لم يسعد بها الإنسان ، بل أضاف بها شقاء إلى شقائه وكثيراً مايختلف العقلاء فيحسن قوم ماقبحه آخرون ،

إذاً ماهو القياس الذى تعرف به العقل المصيب والعقل المخطىء ؟ هو بلاشك (الدين) .

فكان من رحمة الله بالإنسان أن يكون التشريع الذى يرجع إليه فى تحديد علاقات البشر بعضهم ببعض من ناحية معصومة عن الخطا بعيدة عن الاضطراب وأن يكون من وحى السماء لامن وضع الأرض، من أجل ذلك بعث الله الرسل ليرسموا للناس طريقاً يعيشون على أساسه ويعرفونهم الفضائل ويدعونهم إليها ويبينون لهم الرذائل وينفرونهم منها ، يعلمونهم أن لهم رباً يرجى ثوابه ويخشى عقابه ، لم يخلق الناس عبثاً ولم يتركهم سدى « أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لاترجعون » يحلون لهم ماتطيب به نفوسهم وتتهذب به أخلاقهم وتصح به اجسامهم ويحرمون عليهم مايلوث فطرهم ويفسد عقولهم ويمرض أجسامهم . يأمرونهم بما تعرفه الطباع من الفضائل ويبتعدون بهم عما تنكره من الدنايا والإسفاف .

فالتدين حاجة من حاجات البشر بل ضرورة من ضروراتهم لايسعد لهم الحال إلا بإشراب نفوسهم حب الدين واطمئنان قلوبهم إليه واقتناعهم بأنه سعادة لهم فى دنياهم وذخر لهم فى آخرتهم ، ولو أنك وازنت بين رجل له دين وآخر لادين له لرأيت الفرق بين الرجلين عظيما : فالرجل الذى له دين يسعد بدينه ويسعد أمته ، والرجل الذى لادين له يشقى نفسه ويشقى أمته .

قد يظن بعض الناس أن ماتصنعه الحكومات من قوانين للعقوبات كفيلة بسعادة المجتمع مانعة له من الفساد ، وفاته أن الرجل الذى شب على الإجرام إنما يخشى القانون حيث تتوفر الدواعى على إدانته ، أما رجل الدين فإن دينه حائل بينه وبين الجريمة لإيمانه إن ربه مطلع عليه وإن لم يطلع عليه المخلوق فدينه حارس لايفارقه رقيب لايبتعد منه لأنه بين جنبيه ، قال الله تعالى « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا . خالدين فيها لايبغون عنها حولا » .

وهناك فرق كبير بين رجل له من نفسه حارس أمين لا يفتر عنه ولايغفل وبين رجل آخر يستطيع أن يتغفل حارسه ليصل إلى مايريد من شهوة ومايتوق إليه من فساد قال تعالى : « مايلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد » .



واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا

أمر الله عباده المؤمنين فى هذه الآية الكريمة بالاعتصام بحبله المتين وهو التمسك بكتابه العزيز ونهاهم عن التفرق فى الأعمال الشرعية الظاهرة والاعتقادات الصحيحة الباطنة تفرقاً لا تحمد له عاقبة ولا تكون له ثمرة صالحة.

وقد أرشدهم إلى ما يكفل لهم السعادة وينالون به أعلى مراتب العز والشرف والسيادة وهو إقامة الدين الذى شرعه لعباده وارتضاه على لسان رسوله وأمرهم بالاعتصام به والأخذ بما دل عليه من أمر ونهى وقبول ذلك بالرضى والتسليم . فبذلك يكونون معتصمين بحبل الله ، آخذين بأقوى الأسباب التى تقربهم إلى ربهم .

وقد شرع الله لعباده من فرائض الدين ما يكون سبباً للتعارف بينهم واجتماع الكلمة والاتفاق فى الأعمال والأقوال التى شرعها وأمر عباده بالتزامها ورضيها لهم كالصلوات الخمس والجمعة والعيدين وحج البيت

الذى أوجبه على كل مكلف مستطيع كما قال تعالى ﴿ ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين ﴾ قال بعض المفسرين : إن الله جعل ومن كفر موضع ومن لم يحج ففيه نهى شديد وزجر بليغ لمن ترك المسير إلى الحج بعد توفر أسبابه ، ولهذا رغب النبي عليه السلام فى الحج والمبادرة إليه بقوله : « بادروا بالحج والعمرة فإنهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفى الكير خبث الحديد والذهب والفضة » . فإذا كان الحج والعمرة ينفيان فقر من حج واعتمر ويذهبان بذنوبه فلا ينبغى للعبد أن يستكثر ما يبذله فيهما من النفقة ويستصعب مشاق السفر . وقال عليه السلام : « العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة » ، وقد بين عليه السلام بر الحج بقوله : « من حج ولم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه » ، فهذه الأخبار الصحيحة وما ورد فى معناها دالة على فضل حج بيت الله الحرام والصبر على ما ينال العبد فيه من المشاق وبذل النفقات الكثيرة طلباً لمرضاة الله واحتساباً للثواب . وكل ذلك من أجل إقامة الدين واجتماع كلمة أهل الإيمان بالله الواردين إلى بيته من مشارق الأرض ومغاربها . وفى ذلك عز لسلطانهم وعظمة لشأنهم فيخشاهم المعاند لهم والمخالف لدينهم الذى هو أقوى منهم عدة وأكثر عدداً ، وتكون كلمتهم فوق كل كلمة وشأنهم أعلى من كل شأن لأنهم نصروا الله وأعزوا دينه فنصرهم تحقيقاً لوعده الصادق بقوله ﴿ إن تنصروا الله ينصركم ﴾ لأن اجتماع القلوب

على طاعة الله يثمر العز الدائم والسعادة الأبدية، فلا بد من أن يكون الاجتماع مرضياً لله ورسوله، جارياً على الأصول الإسلامية والقواعد المعتبرة، لأن كل اتفاق يخالف شرع الله لا ينال به العز والفلاح لأنه منهى عنه وما نهى الشارع عنه لا خير فيه، وقد قضت سنة الله أن المسلمين لا يتم لهم أمر يريدونه ولا تستقيم لهم حال يقصدونها إلا بامتثال أوامر الله والعمل بشريعة نبيهم.

وهذا المعنى عام شامل للفرد والجماعة فمن استهان بشرع الله خذله الله أينما توجه وفى أى مكان وحد.

وإن للتأمل لعبرة فى ماضى الإسلام وما كان عليه المسلمون من العز وقهر الأعداء لما كانوا معتصمين بكتاب الله مجتمعين على طاعة الله يحذرون كل الحذر من تفريق الكلمة وشق العصا، وقد كان النبى عليه السلام يغضب عندما يسمع قولا يؤول إلى التفريق بين المؤمنين كما جاء فى الحديث: أن أنصارياً ومهاجرياً تشاجرا فقال الأنصارى يا للأنصار وقال المهاجرى يا للمهاجرين، فقال النبى أبدعوى الجاهلية وانا بين أظهركم. فهذا كان هدى النبى وهذه سيرته وحرصه على اتفاق أمته وجمع كلمتهم حتى قال: ألا أنبئكم بشراركم؟ قالوا بلى يارسول الله. قال: المشاءون بالنميمة، المفرقون بين الأحبة. وقال الله تعالى ﴿ لا خير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ﴾.

الدين جامع بين مصالح الدنيا والآخرة

(الصحة) الحياة فى الإسلام مقدمة على الدين . أوامر الحنيفية السمحة إن كانت تختطف العبد إلى ربه . وتملأ قلبه من رهبه ، وتفعم أمله من رغبه ، فهى مع ذلك لا تأخذه عن كسبه ، ولا تحرمه من التمتع به ، ولا توجب عليه تقشف الزهادة ، ولا تجشمه فى ترك اللذات ما فوق العادة .

صاحب هذا الدين ﷺ لم يقل « بع ما تملك واتبعنى » ولكن قال لمن استشاره فيما يتصدق به من ماله « التلث ، والتلث كثير ، إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس » .

(الرخص) فرض الصوم على المؤمنين لكن إذا خشى منه المرض أو زيادته أو زادت المشقة فيه جاز تركه ، بل قد يجب إذا غلب على الظن الضرر فيه .

الوضوء والغسل من شروط الصحة للصلاة إلا إذا خشى منه الضرر أو عرضت مشقة فى تحصيل الماء .

القيام مما لا تصح الصلاة إلا به إلا إذا أصابت المصلى مشقة فيه فيسقط ، ويصلى قاعداً .

السعى إلى الجمعة : واجب إلا إذا كان وحل غزير أو مطر كثير أو ما يوجب تعباً ومشقة فيسقط . وهكذا تجد القاعدة قد عمت « صحة

الأبدان ، مقدمة على صحة الأديان ، فنرى الدين قد راعى فى أحكامه سلامة البدن كما أوجب العناية بسلامة الروح .

(الزينة والطيبات) أباح الإسلام لأهله التجمل بأنواع الزينة والتوسع فى التمتع بالمشتهيات ، على شريطة القصد والاعتدال وحسن النية ، والوقوف عند الحدود الشرعية ، والمحافظة على صفات الرجولية. جاء فى الكتاب العزيز (يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين . قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟ قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ، كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون . قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله مالا تعلمون) .

(سورة الأعراف)

ثم عد الله النعيم والجمال والزينة من نعمه علينا التى يذكرنا بها فضله، وتهيج بها نفوسنا لذكره وشكره . كما قال (والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون . ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون . وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس . إن ربكم لرءوف رحيم . والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق مالا تعلمون) وقال : (وَهُوَ الَّذى سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِياً وَتَسْتَخْرِجُوا منهُ حلية تَلْبسُونَهَا وَتَرَى الفُلْكَ مَوَاخِرَ

فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) . سورة النحل .

الاقتصاد :

ووضع قانوناً للإنفاق وحفظ المال فى قوله (إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا . وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا) سورة الإسراء

* * *

فإذا جمع سائق الأنفس ومزجيها ومرشدها وهاديها ، بين شاحذين : شاحذ التمتع بمتاع الحياة الدنيا . وشاحذ الرغبة فى النعيم الدائم فى الآخرة. فقد جمع لها كل ما يسمو بها عن الرضا فى الدنيا بالدون وفى الآخرة بعذاب الهون ، فترى كل نفس تمضى مع استعدادها بشهامة فؤادها مضاء الزميع [1] ، لا تخشى العثرة بالوعيد ، ولا تقعد عن مطلبها قعدة الرعديد ، فتطلب منافعها من هذا الكون الذى وجدت فيه ووجد لها . فتسير فى مناكب الأرض ولا تكتفى عن الكل بالبعض . وتبحث فى تربتها ، ولا يقف بها ظاهرها عن باطنها ، ولا يحجبها ظهرها عن مد يدها إلى ما فى جوفها ، ولا تجد ما يصدها عن النظر فى الهواء ، والبحث فى الماء ، والاهتداء بنجوم السماء ، بعد معرفة مواقعها وحركاتها فى مداراتها ، واستقامتها وانحرافها ، وظهورها وخنوسها ، وبالجملة فكل

(١) هو الحازم القوى العزيمة ، يزمع على الأمر فيمضى فيه ولا ينثنى . والجيد الرأى : المقدام .

مستعد لوجه من وجوه النظر أو الولوج فى باب من أبواب العلم، ينطلق إلى حيث يبلغ به استعداده، إما للنجاة من ضرورة، وإما لاستتمام منفعة أو استكمال لذة، لا يجد من نواهى الدين مايصده عن مطلب، ولا ما يكف يده عن تناول رغبة، أين هذا من ذلك الذى لا يرى الخلاص إلا فى مجافاة هذا العالم ولذائذه، ويجد أن الغنى والثروة من الحجب التى لا تخرق، تحول بينه وبين ملكوت السموات؟

كيف يتسنى للمسلم أن يشكر الله حق شكره، إذا لم يضع العالم بأسره تحت نظر فكره، لينفذ من مظاهره إلى سره ويقف على قوانينه وشرائعه ويستخدم كل مايصلح لخدمته فى توفير منافعه؟ كيف يشكر الله إذا توانى فى ذلك وقد أرشده الله فى كتابه وبسنة نبيه إلى أن عالمه إنما خلق لأجله وقد وضعه الله تحت تصرف عقله، أنظر إلى لطف الإشارة فى الآية المتقدمة « قل من حرم زينة الله » الخ حيث قال: (كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) فأهل العلم هم الذين يعرفون مقدار نعم الله تعالى فيما يرفه به معيشتهم، ويجمل به هيئتهم، ويجلى به زينتهم.

المسلمون مسوقون بنابل من دينهم إلى طلب ما يكسبهم الرفعة والسؤدد والعزة والمجد، ولا يرضيهم من ذلك ما دون الغاية، ولا يتوفر شىء من وسائل ذلك إلا بالعلم، فهم محفوزون أشد الحفز إلى طلب العلم وتلمسه فى كل مكان، وتلقيه من أية شفة وأى لسان، فإذا لاقاهم العالم فى أى سبيل أو عثروا به فى أى جيل، أو ظهر لهم من

أي قبيل ، هشوا له وبشوا ونصبوا إليه وكشوا ، وشادوا به أواصرهم ، وعقدوا عليه خناصرهم ، ولا يالون ما تكون عقيدته ، إذا نفعتهم حكمته . الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها » ألم يأتهم عن ربهم : (يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولو الألباب) ألم يسمعوا فى وصفهم قوله : (الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه) .

ذلك شأن المسلم مع العلم إذا كان مسلماً حقاً ، وذلك ما تنجر إليه طبيعة دينه ، وحديث « أطلبوا العلم ولو بالصين » إن كان فى سند لفظه إلى النبي ﷺ مقال فسند معناه متواتر ، فإنه سند القرآن نفسه فإن الله يفضل العلم وأهل العلم بدون قيد ولا تخصيص . فالمسلم مطالب بطلب العلم ولو فى الصين ولم يكن فى الصين مسلم على عهد النبي ﷺ .

لا شيء ينقلب عند النفس الإنسانية لذة بنفسه ، وإن كان فى أول أمره مطلوباً لغيره ، مثل العلم ، تطلب العلم أولا لحاجتك إليه فى تقويم معيشة ، أو ترقية حال ، أو دفاع عن نفس وملة ، ثم لا تلبث إذا أوغلت فيه أن تجد اللذة فى العلم نفسه ، فتصير اللذة بتحصيله والوصول إلى دقائقه غاية تقصد بنفسها وتضمحل فيها كل غاية سواها ، وعلة ذلك ظاهرة ، فإن العلم مسرح نظر العقل ، والعقل قوة من أفضل القوى الإنسانية ، بل هى أفضلها على الحقيقة ، وقد وضع لها العليم الحكيم لذة ، كما منح لكل قوة سواها نعيما ولذة ، ولست فى حاجة إلى تعديد لذة

البصر أو السمع أو الشم أو الذوق أو اللمس ، فالحيوان يعرفها ، بله الإنسان ، وكلما عظم اختصاص القوة بالنوع وعظمت لذته باستعمالها فيما وجهت له ، فيمكنك أن تستنتج من ذلك أن لا شيء عند الإنسان ألذ من كشف المجهول ، وإحراز المعقول . وقد سمح الإسلام للمسلم أن يتمتع فى هذه الحياة الدنيا بما يلذ له مع القصد والاعتدال . أفلا يكون من لذائذه ومتممات نعيمه أن يسيح فى مملكة العلم ليمتع عقله ، كما يسيح فى بسيط الأرض ليكسب رزقه ويقيت أهله ؟ على أن العلم كان من ضروريات معيشة المسلم أو حاجياتها ، كما ذكرنا ، فإذا طفق يستنبط ماءه للضرورة ، ويستجلى سناءه للحاجة ، فلا يلبث أن يصير هو حاجة نفسه ، وشاغله عن حاجات حسه حتى يدخل معه فى رمسه ، كما وقع لكثير من المسلمين . قال إمام جليل من أئمتهم « طلبنا العلم لغير الله فأبى أن يكون إلا لله » .

جوهر الدين

قال الله تعالى «أَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِيناً».

سبحانك اللهم ما أعظم نعمتك على عبادك بهذا الدين الحنيف الذى كرمت به الإنسانية ورفعت قدرها وأعليت شأنها وجعلته لها ينبوع سعادة ومشرق خير ويمن ومطلع فلاح ورشاد.

ولقد أدرك السابقون الأولون من المسلمين عظيم نعمة الله تعالى عليهم أن هداهم للإسلام وشرح له صدورهم وأنار به بصائرهم وأبصارهم وجعلهم خير أمة أخرجت للناس وهيأهم لحمل رسالته والاضطلاع بأمانته فحملوها للأجيال وجاهدوا فى سبيلها أروع ما يكون الجهاد، وأوفاه وأكرمه ولولا جهادهم ذلك لما رأينا للإسلام حضارات تبهر العيون ومدنيات تخلب العقول ولا خلفاء عظماء يقولون فيسمع العالم كله ويسكتون فيتحدث التاريخ.

لو لم يسودوا بدين فيه منبهة للناس كانت لهم أخلاقهم دينا

هذا هو الإسلام! سماحة فى يسر، ورحمة فى هدى، وصدق فى القول، واستقامة فى العمل، وعزيمة فى العقيدة، وإخلاص ووفاء،

وحياة كريمة ترسل أشعتها على القلوب فتملأها نوراً وضياء وأولئك هم المسلمون الأولون — استقلال فى الفكر وسعة فى الحرية ، وجراءة جنان وقوة أبدان ، وشدة بأس وعزة نفس ، ورحمة وإيثار ونجدة وسخاء ، وإغاثة للملهوف وحماية للجار .

وهكذا فقد بلغوا أوج الكمال وبذوا سائر الأمم فى جلائل الأعمال.

ولقد سار المسلمون فى العصور الأولى تحت ظلال أعلام الإسلام الخفاقة وعلى ضوء مبادئه السامية فاتحين ظافرين مرفوعى الرأس موفورى الكرامة فانتشلوا الإنسانية من براثن الجور والاستعباد وشيدوا صروح العدالة وأقاموا قواعد الإسلام فسادوا العالم كله بدينهم وأخلاقهم واجتماع كلمتهم .

وفى الحق إن الإسلام كلمة خالدة تحمل معنى قدسياً سامياً يبعث فى نفس المسلم الشعور الحى ويوحى إليه العزة والكرامة ويوقظ فى نفسه الإحساس بأن المسلم الذى غذى بلبان الإسلام وخالطت قلبه بشاشة الإيمان وتركت بين جوانحه مبادىء القرآن لهو رجل خلق ليكون عزيزاً يحي إذا حيا عظيما ويموت إذا مات كريماً . أجل : هذا هو المسلم الذى يمثل الإسلام أصدق تمثيل وهو الذى يشق طريقه إلى المجد والخلود تظله راية الإسلام وتخفق فوق رأسه أعلام الهداية المحمدية .
وبعد : فإن الناظر فى شئون المسلمين اليوم الباحث فى سيرهم وأحوالهم ليأخذ منه العجب مأخذه إذا رأى بعينيه مسافة الخلف بين السلف

والخلف ومقدار تلك الهوة السحيقة التى تفصل بين المسلمين فى ماضيهم وحاضرهم ، وإذا كان لكل أثر مؤثر ولكل معلول علله وأسبابه التى تفضى إليه وأردنا أن نرجع أحوال المسلمين الحاضرة إلى عللها وأسبابها فإنا لا مندوحة لنا عن القول بأن جميع ما أصاب المسلمين اليوم من تأخر وانحطاط وتفرق فى الكلمة وتجاف عن المبادىء الإسلامية القويمة واختلاف المذاهب وتعدد النزعات والمشارب ، إنما مرجعه إلى سبب واحد هو جهل المسلمين بروح دينهم .

فالجهل أصل البلاء وأساس الداء ، فالقائد الذى يقود جيوش الإسلام إلى النصر المحقق والفوز الباهر ثم ينكص على عقبيه لأن العدو استطاع أن يغرر به ويخدعه بالمال تارة وبالنساء تارة لهو قائد أبعد مايكون عن الروح الإسلامية الصحيحة وأشدما يكون جهلا بها ، وأين مثل هذا القائد من ذلك الصحابى الجليل صاحب رسول الله وابن عمه سيدنا جعفر بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه الذى أخذ الراية بيمينه فقطعت يمينه فأخذها بشماله فقطعت شماله فاحتضنها بصدره وحنا عليها كما تحنو الأم على ولدها وما زال رافعاً لها حتى أسلم الروح راضياً مرضياً ولقى عند الله تعالى جزاءه الأوفى .

وهذا الذى قلناه فى القائد يقال مثله فى أولئك المتزعمين الذين يكونون حرباً على أمهم طمعاً أن ينالوا عند سادتهم من الأعداء حظوة ومقاماً ساميا وجاها مزيفا فهم حينما يتولون يعملون على محاربة أمتهم

ومهمة إخضاعها للغاصب وبذلك يكونون قد تجردوا من شخصياتهم الإسلامية وانقلبوا أعداء لله ورسوله والمسلمين والسر فى ذلك جهلهم بروح الدين ومجافاتهم له وبعدهم عنهم بعد المشرقين .

وأين هؤلاء الأوشاب الأذناب الذين مكنوا للمستعمرين وخدعوا أممهم وباعوا أوطانهم رخيصة طمعاً فى جاه زائف وأملا فى منصب كاذب يقلدون به الهر إذ يحكى انتفاخاً صولة الأسد .

من أولئك الرجال الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه فلم تلن قناتهم ولم تضعف إرادتهم . سبر الزمان غورهم فما عرف فيهم إلا أصالة الرأى ونبالة المقصد وعلو الهمة وصلابة الإرادة وقوة العزيمة وطهارة الذيل أولئك هم الغر الميامين من السابقين الأولين للإسلام الذين أجابوا دعوته ونصروه بأنفسهم وبذلوا فى سبيله دماءهم وأموالهم أولئك حزب الله وأولئك هم المفلحون .

أولئك الذين « ابتذلوا للموت نفوسهم فرفعوا فى الحياة رؤوسهم وركبوا من البحر والبر كل غارب . . أحيت أنوفهم حياة الضفر ، وأعزت نفوسهم الرمال العفر فكانت بلادهم عذارى تخلف ظن كل فاتح وعقائل لا ينتهى إليها الطيف فضلا عن الطائف .

جاءهم الإسلام بعزائم القرآن فعزما فيهم من خيم كريم وطبع سليم بصلابة الإيمان — فاندفعت سيولهم من منابعها وخرجت سنابلهم من قنابعها وملكوا ما بين الصين وبحر الظلمات فى أقل من مائة عام وأتوا

من الأعمال ما لو حدثوا أنفسهم به من قبل لقيل إنه من الأحلام » . .
ومن ثم فقد انتصر بهم الدين وعظم شأنه وسار فى الأقطار ذكره وعلت
كلمته ورفرفت على الأقطار رايته وضربت القبة الإسلامية رواقها شرقاً
وغرباً وأكمل الله للمسلمين دينهم وأتم عليهم نعمته وفتح لهم الفتح المبين
ونصرهم النصر العجيب . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل
العظيم . . .

والآن قد عرفت أيها الأخ المسلم الكريم السبب الذى رجع
بالمسلمين القهقرى ومكن للأعداء بينهم وجعلهم أذلاء فى ديارهم غرباء
فى أوطانهم على كثرة العدد — وهو جهلهم بدينهم جهلا تاماً .

وتقليدهم للأجانب تقليداً أعمى — فهم إذا حكموا يحكمون بغير
ماأنزل الله ، سلطت عليهم شهواتهم فاتبعوها صاغرين وساروا وراء ما تمليه
عليهم الأغراض والرغبات الجامحة فترددوا فى هوة سحيقة وأبدلهم الله
بعزهم ذلا وبقوتهم ضعفاً وباجتماعهم افتراقاً وطمع فيهم الضعيف .

وليس لنا معشر المسلمين من علاج ناجع ودواء عاجل إلا إذا
رجعنا إلى الله تعالى منيبين واستمسكنا بعروة الإسلام التى لاانفصام لها
وأحللنا حلاله وحرمنا حرامه وسرنا على هديه وحينئذ يبدل الله خوفنا
أمنا ويعيدنا سيرتنا الأولى « خير أمة أخرجت للناس » والله الموفق
والهادى إلى سواء السبيل وصلى الله على سيدنا محمد خاتم رسله وعلى آله
وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

« والله لقد رأيت كسرى فى ملكه وقيصر والنجاشى فى ملكهما فما رأيت ملكا مثل محمد فى أصحابه ، ولقد رأيت قوماً لا يسلمونه لشىء أبداً » .

وهكذا يسمو الإيمان حتى يرتفع عن رضاء الأهل وتهون التضحية بكل شىء فى سبيله .

وإن شئت أروع من ذلك وأروع فى باب البطولة الإيمانية فإليك ما ذكره الامام محمد بن إسحاق فى سيرته ذلك أنه لما حصل شقاق بين المهاجرين والأنصار فى غزوة بنى المصطلق وكاد الشيطان يظهر بقرنيه لولا أن تدارك الرسول الكريم الأمر بما عرف عنه من الحكمة والعقل وقال عبد الله بن أبى بن سلول رئيس المنافقين مقالته فى النبى والمؤمنين « لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل » ، ورغب بعض المؤمنين إلى النبى أن يقتلوه فأبى وقال لا يتحدث الناس عن محمد أنه يقتل أصحابه ، جاء الرجل الصادق الإيمان عبد الله بن عبد الله بن أبى . فقال يا رسول الله بلغنى أنك تريد قتل عبد الله بن أبى فيما بلغك فإن كنت فاعلا فمرنى فإنى أحمل إليك رأسه . فوالله لقد علمت الخزرج ما كان بها رجل أبر بوالده منى وأنى أخشى أن تأمر به غيرى فيقتله فلا تدعنى نفسى أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبى يمشى فى الناس فأقتل مؤمناً بكافر فأدخل النار فقال صاحب الخلق الكريم « بل ترفق به ونحسن صحبته ما بقى معنا » .

وهل كان عقبة بن نافع القائد العربى المظفر ، حينما وصل إلى بحر الظلمات — المحيط الأطلسى — وقال قولته المشهورة « والله لو أعلم أن

وراء هذا البحر أرضاً لخضته بفرسى جهاداً فى سبيل الله ، إلا مستجيباً لداعى الإيمان الذى تغلغل فى قلبه وتملك عليه مشاعره وبحسبنا هذه المثل العليا للدلالة على قوة الإيمان وآثاره فى الدعوة الاسلامية وانتشارها وبحسبك أيها القارىء المستزيد أن ترجع إلى كتب الحديث والسير والتاريخ لترى العجب العجاب من مظاهر هذا الإيمان .

وهكذا نجد الإيمان يسمو ثم يسمو . حتى يصل بصاحبه إلى درجة الملائكة الأطهار ، ويقوى ثم يقوى حتى تتضاءل أمامه شم الجبال وركوب الأخطار ، ويصفو ثم يصفو حتى يدرك الحقائق ناصعة وحكمة الله ماثلة فى كل شيء ، ويكمل إلى أن يصل إلى منطقة اليقين فيشع نوره على القلب والجوارح فلا يعتقد صاحبه إلا حقاً ولا يقول إلا حقاً ولا يعمل إلا حقا .

وبعد فإن هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أوله . تمسك بكتاب الله وسنة رسوله وفهمها فهماً صحيحاً والعمل به فى كل شئوننا والنظر إليها على أنها طب القلوب ، وثقاف العقول . ومناط السعادة فى الدنيا والآخرة ، وحينئذ سيكونان إيماناً كهذا الإيمان الأول وقلوباً كتلك القلوب المشرقة فينتشر الاسلام حيث يسطع نور الشمس .

والإسلام لم يقم على كثرة العدد وإنما قام على قلة تحمل إيماناً وقلوباً والمسلمون اليوم يربو عددهم على الاربعمائة مليون نسمة فهم لا يشكون قلة ، بيد أنهم فى حاجة إلى ضم الصفوف وجمع الكلمة والتكتل تجاه

المعتدى والغاصب والاستبسال فى الدفاع عن الحقوق والذود عن العرين والتضحية بالنفس والنفيس فى سبيل الأوطان .

والآن لاعذر لمعتذر بعد اليوم وقد سطع الحق وأسفر الصبح لذى عينين وكشر الأعداء عن أنياب الختل والغدر وتكشفت النفوس عن خبث الطباع وانتكاس البشرية وفساد الفطرة فنصروا الظلم وحاولوا أن يخمدوا جذوة الحق وهيهات هيهات مايظنون ، فالعربى والمسلم لايعرفان الذل والاستخذاء .

أيها المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها اجعلوا نصب أعينكم قول الله عز وجل : « إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ » ، وقوله تعالى : « وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ » .

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من نفّس عن مسلم كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن يسّر على معسر يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة ، ومن ستر مسلماً ستره الله فى الدنيا والآخرة ، والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه » أخرجه مسلم .

واجب المسلمين نحو الشحاذين

« خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها »

أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم وهو أمر عام لجميع رؤساء الأمم الإسلامية الذين يتولون أمر المسلمين أن يأخذوا من أموال الأغنياء مايردونه على فقراء الأمة الإسلامية حتى لايكون المال دولة بين الأغنياء من جهة وحتى يستطيع الفقير أن يقوم بواجبه نحو المجموع الإسلامى كعضو عامل فيه .

هذه الصدقة تطهر المسلمين جميعاً وتزكيهم فوق كونها مطهرة للمال ذاته ومنميته فهى تطهر الغنى بما تخلق فيه من شعور الطاعة والإخلاص فى الائتمار بأمر الله ، وتزكيه بما يشعر فى ذات نفسه حين إخراج الصدقة بأنه يعين على تقرير النظام واستقرار الأمان بين أفراد الأمة الإسلامية .

هذه الصدقة تطهر الفقير مما قد يجوس خلال نفسه من الوساوس نحو أغنياء الأمة وبخلائها ، وتشعره بإحسان هذه الطائفة إليه فيركن إليها ويزداد تودداً نحوها ، وتزكيه بما تشعره بمركزه فى الأمة فيسعى جاهداً أن يكون عضواً نافعاً فيها ويتجه إلى إحسان ماينبغى أن يطلب إليه من عمل .

هذه الصدقة تطهر المجموع الإسلامى بما تجعل فيه من روح التعاون والتآلف بين الغني والفقير ، وتزكيه بما تخلق فيه من الأمن والطمأنينة بين أفراد الأمة جميعاً ، ولما فى هذه الصدقة من منفعة عامة أخبر الله الثقلين أنه هو الذى يأخذ الصدقات واعتبرها قرضاً لهسوف يرده رداً حسناً ويكافىء عليها أحسن المكافأة (إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ) فأخبر أنه سيضاعف هذا القرض عند رده ويزيد على ذلك المغفرة وهى أفضل مايسعى إليه المرء فى هذه الحياة الفانية .

ولما كان النظام الإسلامى ينص على أن المسلم أخو المسلم لايظلمه ولايحقره ولايخذله ولايشتمه ، وأن المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً ، وأنه قد نص صراحة على أنه لايكمل إيمان المرء حتى يحب لأخيه مايحب لنفسه وأن المسلمين أكفاء بعضهم لبعض ويكفى قول الله سبحانه وتعالى « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ » فلهذا وجب أن يكون التضامن عاماً بين جميع أفراد الأمة الإسلامية لافرق بين غنيهم وفقيرهم وأن هذا التضامن يستلزم أن يقوم الغنى بواجبه وأن يقوم الفقير بواجبه كذلك .

أما أن يتمتع الغنى بماله وجاهه ويترك الفقير يتضور جوعاً ويقتل برداً وتفتك به جراثيم الأمراض فهذا أمر لايرضاه الله ولا رسوله ولا تعاليم الأمة الإسلامية .

إن الفقير إذا استجدى وألح فى الاستجداء معناه أن الغنى لم يقم

بواجبه وقصر فى حقه ، ومعناه أيضا أن التضامن مفقود بين أبناء الأمة الإسلامية . ومعناه أيضاً أن هذا الفقير صورة صحيحة لهذا الغنى وكل ما بينهما من فرق . إن الفقير فى صورته المؤلمة القذرة صورة واضحة ظاهرة وأن الغنى يمثل هذه الصورة وإنها وإن كانت لاتظهر للناظرين .

والغنى الذى يرضى لأخيه هذه المهانة والمذلة والفقير الذى يرضى لنفسه بهذا التبذل هما أخوان فى هذه الضعة والمسكنة وإن اختلفت مظاهرهما . فكل منهما ترك أمر الله وراء ظهره ، وكل منهما قصر فى واجبه . وكل منهما شاء لنفسه أن تبتر من جسم الأمة الإسلامية الصحيحة .

كما أن القائمين بشئون المسلمين يدخلون فى هذا التقصير أيضاً .

فالأفراد لايمكن أن ينظم بعضهم بعضاً وحقوق المجتمع لاتنفذ إلا بواسطة أولى الأمر . فإذا قصر الغنى فى واجبه أو ظهر الفقير بغير مايليق فمعناه أن رقابة الأمر غير كافية فى تنفيذ أوامر الله ورسوله . نقول ذلك ونعتقد تماماً أن نفساً مؤمنة تؤمن بالله واليوم الآخر وتخشى الله وتطيع رسوله سوف تؤمن على ما أقول وتسعى لتبديل هذه الفوضى الضاربة أطنابها بين المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها . نقول الفوضى الضاربة أطنابها بين أفراد الأمة الإسلامية فى جميع أنحاء المعمورة لما نراه ورأيناه فى البلاد الإسلامية ومن الأسف فى البلاد الإسلامية فقط .

ماهؤلاء الشحاذون المتسكعون فى الطرقات ؟

وما هذه الأسمال البالية التى يلبسونها ؟ وما هذه الأوساخ التى

تكونت طبقات بعضها فوق بعض على وجوههم وأيديهم وأرجلهم ؟ وماهذا التلهف وهذه الحسرة وهذا الأنين المتواصل ؟

أكل هذه المظاهر حق لارياء فيه ولا كذب ؟أهؤلاء مسلمون أمروا بالوضوء والنظافة والصلاة ؟ أهؤلاء أصحاب الحق لدى الأغنياء ؟

أهؤلاء الأغنياء الذين يرون هذه المناظر وعندهم القناطير المقنطرة من الذهب والفضة يؤمنون بالله واليوم الآخر ويؤمنون بحق الفقير فى أموالهم ؟

قال تعالى « ولا تحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم سيطوقون مابخلوا به يوم القيامة » لذلك قاتل أبو بكر الصديق أهل الردة حين شحوا بأداء الزكاة فقال : « والله لو منعونى عقالا كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لجاهدتهم عليه » فقاتلهم وأمر بقتالهم وقال : « والله لأقتلن من فرّق بين الصلاة والزكاة » .

عن عمرو بن شعيب أنه قال : أن امرأة أتت النبي ﷺ ومعها ابنة لها وفى يد ابنتها مسكتان (المسكة الأسورة والخلاخيل) من ذهب فقال لها : أتعطين زكاة هذا ؟ قالت : لا .. قال : أيسرك أن يسورك الله بهما يوم القيامة سوارين من نار ؟ فألقتهما (خلعتهما) » . رواه الثلاثة وإسناده قوى وصححه الحاكم من حديث عائشة .

الإسلام دين القوة

الإسلام دين القوة ، وهل فى ذلك شك ؟

شارعه هو الجبَّار ذو القوة المتين ؛ ومبلغه هو محمد الصبار ذو العزيمة الأمين ؛ وكتابه هو القرآن الذى تحدى كل إنسان وأعجز ، ولسانه هو العربى الذى أخرس كل لسان وأبان ، وقواده الخالديون هم الذين أخضعوا بسيوفهم رقاب كسرى وقيصر ، وخلفاؤه العمريون ، هم الذين رفعوا عروشهم على نواصى الشرق والغرب . فمن لم يكن قوى البأس ، قوى النفس ، قوى الإرادة ، قوى العدة ، كان مسلماً من غير إسلام ، وعربياً من غير عروبة .

الإسلام قوة فى الرأس ، وقوة فى اللسان ، وقوة فى اليد ، وقوة فى الروح .

هو قوة فى الرأس لأنه يفرض على العقل توحيد الله بالحجة ، وتصحيح الشرع بالدليل ، وتوسيع النص بالرأى ، وتعميق الإيمان بالتفكر .

وهو قوة فى اللسان لأن البلاغة هى معجزته وأداته . والبلاغة قوة فى الفكرة ، وقوة فى العاطفة ، وقوة فى العبارة .

وهو قوة فى اليد لأن موحيه — وهو الحكيم الخبير — قد علم أن

العقل بسلطانه ، واللسان ببيانه لايغنيان عن الحق شيئاً إذا ما أظلم الحس وتحكمت النفس . وعميت البصيرة ، فجعل من قوة العضل ذائداً عن كلمته ، وداعياً إلى حقه ، ومنفذاً لحكمه ، ومؤيداً لشرعه .. كتب على المسلمين القتال فى سبيل دينهم ودينه وفرض عليهم إعداد القوة والخيل إرهاباً لعدوهم وعدوه ؛ وأمرهم أن يقابلوا اعتداء المعتدين بمثله . ولكن القوة التى يأمر بها الإسلام هى قوة الحكمة والرحمة والعدل ، لا قوة السفه والجور . فهى قوة مزدوجة ، أو قوة فيها قوتان : قوة تهاجم البغى والعدوان فى الناس ، وقوة تدافع الأثرة والطغيان فى النفس .

والإسلام بعد ذلك قوة فى الروح لأنه يمحض جوهرها بالصيام والقيام والاعتكاف والارتياض والتأمل .

وأنت إذا عرضت على الفكر السليم الحكيم مرامى العقيدة الإسلامية وجدتها كلها تتجه إلى القوة ، أو إلى ماتحصل به القوة . فالصلاة نظافة جسدية بالوضوء ، وطهارة روحية بالذكر ، ورياضة بدنية بالحركة ، والزكاة تقوية للضعيف بالتصدق ، وتنمية للمال بالتطهير ، وتمكين للمجتمع بالتعاون . والحج قوة اجتماعية بالتعارف والتآلف وقوة سياسية بالتشاور والتحالف ، وقوة اقتصادية بالبياعات والتسوق وإن أشد ماتجتمع به القوة وتنسق عليه الحال هو الوحدة والجماعة . وهما لباب الدعوة الإسلامية . فالوحدة هى الأساس الذى حمل والجماعة

هى الصرح الذى قام . كانت الوحدة هى الأساس لأنها توحيد لله بعد إشراك ، وتوحيد للعرب بعد شتات ، وتوحيد للرأى بعد تفرق وتوحيد للغة بعد تبلبل ، وتوحيد للقبلة بعد تدابر . وكانت الجماعة هى الصرح لأنها جُمعة القلوب التى ألف بينها الله ، وجُملة الشعوب التى رفع شأنها محمد ﷺ . ثم قامت سياسة الإسلام على استدامة القوة بالمحافظة على الوحدة والحرص على الجماعة ، فالفرد الذى يكفر بوحدة العقيدة والأمة يقتل ، والطائفة التى تبغى على جماعة المسلمين تقاتل . والصلاة إنما يعظم أمرها ويضاعف أجرها إذا أديت فى جماعة ، وهذه الجماعة تتكرر خمس مرات كل يوم ، ثم تكبر فى صلاة الجمعة كل أسبوع ، ثم تعظم فى صلاة العيدين كل عام ، ثم تضخم فى أداء الحج مرة — على الأقل — وكل عمر .

على ذلك كان إسلام محمد وأبى بكر وعمر ، وعلى ذلك كانت عروبة خالد وسعد وعمرو . كان العرب والمسلمون حينئذ يحملون المصحف للحق والسيف للباطل . وكان خلفاؤهم يجمعون بين إمامة الصلاة وقيادة المعركة حتى بلغوا من القوة أن فعل كتاب الرشيد (إلى نيقفور امبراطور الروم) ما يفعل الجيش ، وبلغوا من المروءة أن سير المعتصم جيشاً لإنقاذ امرأة (إشارة إلى فتح المعتصم لعمورية) ، فلما شتت الوحدة ، وتفرقت الجماعة ، وصارت سيوف المسلمين خشباً يحملها خطباؤهم على المنابر ، ومصاحفهم تمائم يعلقها مرضاهم على الصدور ، أصبحت دولهم تبعا لكل غالب ، وتراثهم نهباً لكل غاصب ، وبلغوا من التخاذل

والفشل أن الأندلسيين يجليهم النصارى عن أقطارهم بالأمس فلم يجدوا الرشيد ، وأن الفلسطينيين يشردهم اليهود عن ديارهم اليوم فلا يجدون المعتصم !

إن مسلمى هذا الزمن الأخير صاروا من جهلهم بالدين وعجزهم فى الدنيا على أخلاق العبيد ، يطأطأ أشرافهم فلا يندى لهم جبين ، وتنقص أطرافهم فلا يحمى لهم أنف ، وتنزل بهم الشدة فيتخاذلون تخاذل القطيع عاث فيه الذئب ، ويغير عليهم العدو فيتواكلون تواكل الأخوة دب فيهم الحسد ، وتجمعهم الخطوب فيفرقهم الطمع والهوى ، ويلجأون إلى جماعة الدول المتحدة فيخذلهم العدو والصديق ! كأن الإسلام الذى كان عامل قوة وائتلاف ، قد انقلب اليوم علة ضعف واختلاف ! . وكأن الذين كنا نقول لهم بلسان الجهاد : أَسْلِمُوا تَسْلَمُوا ، يقولون لنا بلسان الاضطهاد : تَنَصَّروا تُنْصَرُوا ، ولكن الاسلام دين الله لا يغيره الزمن ولا تجافيه الطبيعة ، ولا يعاديه العلم ، ولا تنسخه المذاهب . وإنما المسلمون اليوم هم أعقاب أمم وعكارة أجناس وبقايا نظم ورواسب حضارات وربائب جهالات وطرائد ذل . ففسدت مبادىء الاسلام فى نفوسهم المشوبة كما يفسد الشراب الخالص فى الإناء القذر .

الدين النصيحة

عن تميم الدارى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « الدين النصيحة — ثلاثا — قلنا : لمن هى يا رسول الله ؟ قال : لله ، ولكتابه ولرسوله ، ولأئمة المسلمين وعامتهم » . أخرجه مسلم

بايع الرسول صلى الله عليه وسلم أصحابه على السمع والطاعة والنصح لكل مسلم .. إن الناس قد أكثروا من استعمال ألفاظ اللعن والسباب والقذف وانتهاك الأعراض حتى تفاقم الأمر ، فتجرأ الصغار على استعمال ذلك من غير رادع ينصحهم ولا معلم يحذرهم ، وقد قال الله عز وجل : « يا أَيُّها الذينَ آمنوا لا يسخر قَوْمٌ من قوم ٍعَسى أن يكونوا خَيْراً منهم ولا نساءٌ من نساءٍ عَسَى أن يكُنَّ خَيْراً منهن ولا تلمزوا أَنْفُسَكُمْ ولا تَنابزوا بالألقاب بِئْسَ الاسم الفسوق بَعْدَ الإيمان ومن لم يَتُبْ فأولئكَ هُمُ الظَّالمون » . فالله تبارك وتعالى ينهى عباده عن السخرية لأنها سبب البغضاء ووسيلة الفتن والبلاء ، فيها يقع التشاحن بين القلوب وينفر القريب من قريبه والأخ من أخيه . فلا تسخر أيها المسلم بأخيك وربما كان عند الله أعظم منك مقاماً وأشد قرباً ، فإن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أجسامكم ولكن ينظر إلى قلوبكم . فليست الكرامة عند

الله بالمال ولا بالجمال ولا بالحسب والنسب ولكنها بالتقوى قال الله تعالى «إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ»، وقد أخفى الله تعالى رضاه فى طاعته كما أخفى غضبه فى معصيته . فرب عمل يسير من الطاعة تنال به عند الله مقاماً كبيراً ، ورب معصية لا يؤبه لها يستحق صاحبها وزراً كبيراً .
وإن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يلقى لها بالا يضحك بها الناس ، يهوى بها فى النار سبعين خريفاً ، فهل أحد أقبح وأشنع ممن ينطلق لسانه فى ميدان السباب انطلاق السهم ثم لا يقف عند حد فى سبابه بل كل ماخطر بباله وأمكن أن ينطق به . واجه به أخاه بلا خوف ولا استحياء من الله ولا من الناس؟ فيجرح عاطفته ويدنس عرضه ويجرده من كل شرف ، فيسب أمه وأباه ، ويلعن آباءه وأجداده وصحبته والساعة التى رآه فيها ، وربما تطاول به الغضب فيقذفه بالفحشاء لا يحذر اليوم الآخر ولا يخاف الخلق ولا يهاب الحق . إن هذا الأمر تشمئز منه قلوب المتقين ، وتقشعر من جده جلود المؤمنين ، فإن مايظهر على الألسنة أثر لما فى القلوب .
فإذا كان مافى القلوب إيماناً وخلقا صالحاً كانت آثاره صالحة وإلا كانت سيئة ، فالجوهرى الذى تحيط به اللآلىء النفيسة متى أغضبته وآلمته لا يجد حوله إلا تلك الجواهر والدرر يوجهها إليك وجوهرة واحدة منها تغنيك طول الأبد فتضطر أن تحول إساءتك إليه إحسانا حتى كأنك له ولى حميم ، أما الآخر الخبيث فهو محاط بالطوب والحجارة والفضلات كلما لاطفته وصانعته لا يجد شيئا يكافئك به إلا ماحوله من الحجارة

المؤذية . . هذا مثل للطيب والخبيث من الناس ، فالطيب لايحسن النطق إلا بحسن الكلام وجميله وإن كان فى منتهى الغضب ، والخبيث لايعرف إلا خبيث القول وإن كان فى أصفى أوقاته ، كل على حسب استعداده ، وكل إناء بالذى فيه ينضح . إن ديننا الإسلامى وأهله لا يعرفان إلا خير الكلام ولا يليق بهما إلا ذلك ، ومن كان على غير هذا من فحش التعبير وسوء المنطق فليتأكد أن ذلك ليس من أخلاق المؤمنين ، فليعالج نفسه ليكون على الأقل مؤمناً - أجل - إن المؤمن لايكون سباباً ولا فاحشا ولا لعاناً ولا بذيئا ولا طعانا . . إن الفحش والتفحش ليسا من الإسلام فى شيء ، وكيف يلعن المؤمن أخاه ويطرده من رحمة مولاه ؟ فمن يرحمه إذن سواه ؟ ألا فليعلم اللاعن أنه مصب اللعنة فإن اللعنة تصعد إلى السماء فتغلق دونها أبواب السماء ثم تهبط إلى الأرض فتأخذ يمينا وشمالا فإن لم تجد مساغا رجعت إلى الذى لعن إن كان لذلك أهلا وإلا رجعت لقائلها . فهؤلاء اللعانون إنما يلعنون أنفسهم والجاهل عدو نفسه ، لعنت امرأة أنصارية ناقة لها ضجرت منها فى بعض أسفاره صلى الله عليه وسلم فسمع ذلك عليه الصلاة والسلام فقال خذوا ما على الناقة ودعوها فإنه لاتصحبنا ناقة ملعونة . قال عمران فكأنى أنظرها وهى تمشى فى الناس ماتعرض لها أحد ، هذه عبرة لمن له أدنى عقل ، وزجر بالغ . وإذا كان هذا فى لعن حيوان أعجم غير مكلف فكيف تكون الشدة فى لعن الإنسان المكلف ؟ ولذا شبه الرسول صلى الله عليه وسلم لعن المؤمن

بقتله تحذيراً وتخويفاً قال صلى الله عليه وسلم : « لايسب أحدكم أبويه » قيل : وكيف يسب الرجل أبويه يارسول الله ؟ قال : « يسب أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه فيسب أمه » .

قال الشاعر :

أحب مكارم الأخلاق جهدى ... وأكره أن أعيب وأن أعابا
وأصفح عن سباب الناس حلما ... وشر الناس من يهوى السبابا
ومن هاب الرجال تهيبوه ... ومن حقر الرجال فلن يهابا

فالواجب علينا أيها المسلمون أن نعمل على نصيحة الأولاد والعوام . وتنبيهم عن السفاهة واللعن والسباب ، وفقنا الله لما يحب ويرضاه .

الدين والأخلاق

الدين والأخلاق كلمتان حبيبتان إلى القلوب أثيرتان لدى النفوس ، بهما تتم بهجة الحياة ونضرتها وتكمل سعادة الإنسان وسيادته ونعيمه .

ولو أذن الله للدين والأخلاق أن يرتفعا من أفئدة الناس وقلوبهم لرأيت الحياة جحيما لايطاق وبلاء لايحتمل وعلقماً يتجرعه الناس ولايسيغونه ، ولرأيت الناس وحوشاً ضارية وذئاباً عارية لايرحم قوى ضعيفاً ولا يعطف حميم على حميم ، ولايتواصون بخير ، ولايأمرون بمعروف ولاينهون عن منكر .

أجل ولرأيت مجتمعاً فاسداً يسوده النفاق والرياء والكذب والفجور وإذ ذاك تعم البلية وتعظم الرزية ويجل الخطب ويفدح المصاب.

ولا أريد أن أذهب بعيداً فى إقامة الحجج وضرب الأمثال على صحة ماأذهب إليه . . فهذا مجتمعنا الحاضر تلمح فى أفقه انحرافاً عن جادة الدين وصراطه المستقيم وتنكباً عن محجة الخلق القويم فكانت النتيجة مايشعر به كل واحد منا ويكاد يلمسه من سيطرة الشهوات على النفوس وانقياد الناس للغرائز البهيمية وانسياقهم فى تيار جارف من الأباحية .

ولولا بقية من خير باقية فى نفوس الناس وصبابة من دين فى بعض

الأفئدة الرحيمة لهلك الناس وذهبوا كل مذهب فى الضلال .

وإذا كان للدين والأخلاق هذه المنزلة الرفيعة والمكانة العاليـة فلامناص لنا من كلمة موجزة عنهما لعل فيها ماينير البصائر ويفتح الأبصار فيحرص الناس على الاستمساك بعروتهما ويعضون عليهما بالنواجذ ويعرفون لها فضلهما العظيم ويقدرونهما حق قدرهما والله وحده المستعان إنه نعم المولى ونعم النصير .

أما الدين فهو ماشرعه الله تعالى على لسان نبيه وخاتم رسله من أحكام عادلة تـكفل للناس أمنهم وهناءتهم وتحفظ لهم حياتهم صافية نقية من الشوائب مبرأة من كل مايكدر صفوها ويذهب ببهائها، فالدين علاج ناجع لكل داء وترياق شاف لكل مايعرض للناس من علل وأسقام .
ولقد بعث الله تعالى رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم إلى الناس كافة يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويخرجهم من الظلمـات إلى النور ويبين لهم أن دين الإسلام هو دين الفطرة والعقل والعلم والحكمة والحرية والاستقلال قال الله تعالى (فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرت الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولـكن أكثر الناس لايعلمون » .فالإسـلام هو الدين الذى ارتضاه الله تعالى لعباده واصطفاه للناس جميعاً وهو دين وسط جامع بين مصالح الدنيا والآخرة وهو يسر كله لاحرج فيه ولاعسر ولا إرهاق ولا إعنات قال الله تعالى « لاَيُكَلِّفُ الله نَفْساً إلاَّ وُسْعَهَا »

وقال عظمت قدرته وجلت حكمته : «يُريدُ الله بِكُمُ اليُسْرَ ولا يُريدُ بِكُمُ العُسْرَ».

وهو دين سيادة وهداية وسياسة ، وغايته إصلاح البشر فى جميع شئونهم الدينية والاجتماعية ، ومن تتبع الأحكام الشرعية فى الكتاب والسنة علم أنها كلها دائرة على قاعدة مراعاة الفضائل من الحق والعدل والصدق والأمانة والوفاء بالعهود والعقود والرحمة والمحبة والمواساة والبر والإحسان واجتناب الرذائل من الظلم والغدر ونقض العهود والكذب والخيانة والقسوة والفسق والخداع وأكل أموال الناس بالباطل كالربا والرشوة والحث . ومن هنا كانت الأخلاق فى الدين من الأهمية بمكان .

قال الله تعالى مثنياً على نبيه الكريم «وإنّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظيم» .

وأخرج الترمذى عن أبى الدّرداء رضى الله تعالى عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «ما من شيء أثقل فى ميزان العبد المؤمن يوم القيامة من حسن الخلق» .

وعن النواس بن سمعان رضى الله تعالى عنه قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن البر والإثم فقال : «البر ماحاك فى صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس» ، وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أكثر مايدخل الناس الجنة قال : «تقوى الله وحسن الخلق» .

وروى الترمذى عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً وخياركم لنسائهم » .

وروى الطبرانى عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما « لا إيمان لمن لا أمانة له ولا صلاة لمن لا طهور له » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » متفق عليه من حديث أم موسى .

وبعد فالآيات الكريمة والأحاديث النبوية فى مكارم الأخلاق كثيرة وفى هذا القدر كفاية لمن ألقى السمع وهو شهيد .

ويا سعادة المسلم الذى يجعل كتاب الله تعالى إمامه وهاديه ومرشده فما أمره امتثل أمره وما نهاه عن شىء انتهى عنه والله سبحانه وتعالى عالم بالسر والعلانية لا تخفى عليه خافية ، والعاقل الذى لا يفقده ربه حيث أمره ولا يجده حيث نهاه .

ذلك هو المسلم الكامل الذى ترجح حسناته وتثقل موازينه ويكون مع الذين أنعم الله عليهم ، « إنَّ المُتَّقين فى جَنَّات وَنَهْرٍ فى مَقْعد صدْق عند مليك مقتدر » هدانا الله سواء السبيل .

الدين ما يصلح الإنسان
من نظام عام

لا ريب فى أن الله تبارك وتعالى خلق الإنسان ، غنياً عن طاعته فلا تنفعه ولا تضره معصيته ، وهو خلق المرء لحكمة بينها ووضع له من النظام ما يصلح شئونه كلها وقد كفل الدين لمن اتبعه أن لا يضل ولا يشقى فلا يضل فى شأن من الشؤون ولا تنقلب عليه حياته فيعيش عيشاً نكرا وإنما يعيش عيش السعداء الأعزاء على أنفسهم ولا مجتمعهم بل وعلى الدنيا كلها . قال الله جل شأنه « وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْماً وَلَا هَضْماً » ، وقال أيضاً جل شأنه « مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً » ، وقال أيضاً « فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى » .

من أجل هذا كان لزاماً أن نبين شيئاً مما يتعلق بما رسمه الدين من نظام كفل به سعادة البشر ووطد الصلة بين الحاكم والمحكوم والراعى ورعيته بما يضمن التعاون ويكفل استقامة الأمور . فروى البخارى عن رسول الله ﷺ أنه قال : « اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشى كأن رأسه ذبية » فتصور أيها المسلم هذا القول الرائع الذى

يعقد الأواصر ويقوى الروابط ويكلف الرعية بالطاعة الكاملة للراعى ولوكان عبداً حبشياً وهذا النظام لايمكن أن يوجد فى غير الإسلام . وانظر إلى الحديث الآخر الذى رواه البخارى ومسلم . وفيه يجعل الرسول طاعة الأمير الحالم من طاعة الله ورسوله ، إذ يقول النبي ﷺ : « من أطاعنى فقد أطاع الله ، ومن عصانى فقد عصى الله ، ومن يطع الأمير فقد أطاعنى ، ومن يعصى الأمير فقد عصانى » . وهل تجد أبلغ من فضل طاعة الحاكم من أن الله يدفع عنه فيهين من أهانه . روى الترمذى أن النبي ﷺ قال : « من أهان السلطان أهانه الله » .

ثم هو يحدد مسؤولية الحاكم المتبع ويبين ما عليه من عمل نحو رعيته فيقول النبي ﷺ « كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته . الإمام راع ومسؤول عن رعيته » رواه البخارى ومسلم .

وجعل الشورى أساس العلاقة بين الحاكم والمحكوم فقال جل شأنه « فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين » .

وربط المؤمنين بعضهم ببعض برباط وثيق متين ، فروى البخارى ومسلم أن رسول الله ﷺ قال : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » .

وربط بين الجار والجار وبين الأقارب والأباعد فقال جل شأنه : « واعْبُدُوا اللهَ وَلاَ تُشْرِكوا بهِ شَيْئاً وبالوَالدينِ إحْسَاناً وبِذِى القُرْبَى واليَتَامَى والمَسَاكين والجَارِ ذى القُرْبَى والجَار الجُنُبِ والصَّاحبُ بالجَنب وابْن السَّبيلِ وَمَا مَلَكتْ أيمانُكُمْ »، وروى البخارى ومسلم أن النبي ﷺ قال : « ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه »، وأمر بإصلاح ذات البين . فقال جل شأنه : « فاتَّقُوا اللهَ وأَصْلحُوا ذَاتِ بَيْنكُمْ وَأَطيعُوا اللهَ ورَسُولَهُ إنْ كُنْتمْ مؤْمنينَ » .

ونهى عن التعدى وإراقة الدماء وبين أن حرمة النفس الواحدة إنما هى حرمة الإنسانية جميعاً . قال الله جل شأنه : « مِن أَجْلِ ذلكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِى إسْرَائيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغيْرِ نَفْسِ أو فَسَادٍ فى الأَرْضِ فكأنَّما قَتَلَ النَّاسَ جميعاً وَمَنْ أحْيَاها فكأنما أحْيَا النَّاسَ جميعاً » .

وأوجب العدل حتى مع الأعداء وأمر بالتعاون على الخير ونهى عن التعاون على الشر فقال : « ولا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أنْ صَدُّوكُمْ عَنِ المَسْجدِ الحَرَامِ أنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى البِرِّ والتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الإثْمِ وَالعُدْوَانِ »

وذهب الدين فى التسامح والتسامى فبين إلى أكثر من ذلك أن العدل

مع عدو الإنسان أقرب إلى التقوى . كما قال الله تعالى « ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا أعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله » .

وحدد العلاقة بين المؤمنين ومن يخالفهم فى الدين وبين أنها علاقة العدل والبر الإحسان ، ما لم يكن هذا المخالف للدين محارباً لنا أو معيناً علينا من يحاربنا . كما قال الله تعالى : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم . إن الله يحب المقسطين » .

وجعل للمؤمنين أن يأكلوا من طعام أهل الكتاب وأن يطعم المؤمن أهل الكتاب من طعامه كما جعل للمؤمن أن يتزوج منهم كما قال الحق جل وعلا : « اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذى أخدان ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو فى الآخرة من الخاسرين » .

وجعل إيذاء الذمى المعاهد إيذاءاً لله ورسوله . وقد قال صلى الله عليه وسلم : من أدى ذمياً فقد أذانى ، ومن أذانى فقد أذى الله . . وقال : لهم مالنا وعليهم ما علينا هذا ماداموا يحافظون على ما بيننا وبينهم من عهد وذمة ، ولم ينقضوا الميثاق ولم يطعنوا فى ديننا فإن خالفوا ذلك لم يكونوا أصحاب عهد وإنما يكونوا محاربين لا ذمة لهم كما قال الله تعالى

« وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا فى دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا إيمان لهم لعلهم ينتهون ».

ومن أهم ما يرمى إليه الإسلام من أهداف طيبة أن يطمئن كل مخلوق فى ظل هذا الدين الذى أنزل رحمة فيطمئن الضعيف أمام القوى ويطمئن الحيوان أمام جبروت الإنسان بل ويسعد ويحيا به فى عيش هنىء . ولقد قال أبو بكر رضى الله عنه من خطبة له جامعة بين فيها مقاصد الحكم الصالح قال : « ألا وإن الضعيف عندى قوى حتى آخذ له بحقه ، والقوى عندى ضعيف حتى آخذ منه الحق» ولعل هذا يكون أبلغ تفسير لقول النبي ﷺ « أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً » : قيل يا رسول الله هذا المظلوم ننصره فكيف ننصر الظالم ؟ . قال صلى الله عليه وسلم : « تمنعه عن ظلمه » . بهذا كان الأمر للحق وحده لا للقوة والمال والسلطان والجاه العريض ، وعلى هذا عاش الناس سعداء آمنين مطمئنين .

وانظر إلى هذا الدين وهو يطمئن الحيوان ويؤمنه ويبينه خطر تعذيبه وجزاء إكرامه والإحسان إليه قال صلى الله عليه وسلم : « دخلت امرأة النار فى هرة حبستها فلا هى أطعمتها ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض» (وخشاش الأرض هى تلك الحشرات الصغيرة التى تلتقطها الهرة وأمثالها).

عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خصلتان لا يجتمعان فى مؤمن : البخل ، وسوء الخلق » أخرجه الترمذى .

الشريعة الإسلامية السمحاء

يسير الإنسان فى كافة أدوار تكامله الخَلْقى والخُلُقى قدماً فى سلم النشوء والارتقاء نحو الكمال المنشود سير كل موجود وماتتطلبه قابليته من غاية كمالية أعده لها فاطر السموات والأرض فى هذه المنظومة الكونية — ولقد تعاقبت على الإنسان الحقب ينشد من خلال تلك الأدوار الجماعة ، فطفق يدأب وراء تحقيق هذا الاحتياج الطبيعى حتى بلغه ، وجاءت الرسل وجاء معها وحى السماء يهدى الإنسان بنور الله إلى دين الله ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ويعلمهم ما لم يكونوا يعلمون ، وانبلجت الشرائع السماوية شواقة براقة وقد تضافرت تعاليمها واتحدت أهدافها فى الدعوة الخالصة إلى توحيد الله وإخلاص العبودية له دون غيره وفى نشر نور العلم والمعرفة ، فنهل الناس من ذلك السلسيل النمير وهموا بتصفية الروح وتهذيب النفس من الناحية المعنوية وتنظيم الشئون الحياتية ضمن نطاق الأسس الاجتماعية من الناحية المادية.

ولئن أطبق أنبياء الله فى رسالتهم على توحيد الألوهية كما يليق بعظمة الله وجلاله فإن ما أمروا بنشره وتطبيقه من تعاليمه إنما كان خاصاً بزمان دون زمان وبأحكام دون أحكام جرياً على ما يقتضيه ناموس التطور الاجتماعى كل وزمنه وقابلية أهله ، حتى إذا استدار الفلك نحو الكمال

كهيئته ، وبلغ مزاج البشرية العقلى قابلية اعتناق دين الفطرة شاءت قدرته سبحانه أن يجمع للإنسان بين السعادتين اللتين تتطلبها الغاية الإنسانية فى مستوى كمالها الخلق وبعث فيها مصطفاها ونور هداها بدين الحق ليظهره على الدين كله (وكفى بالله شهيداً محمد رسول الله) أرسله الله بشيراً ونذيراً فكانت رسالته رحمة للعالمين وخاتمة لكل نبوة ورسالة ختمت معها الشرائع السماوية بشريعة حنفية سمحاء ، رسمت للناس جمعاء محجة بيضاء ليلها كنهارها ، حد ملتقاها ومشرق ضياءها ومستفاض هديها .

(لا إله إلا الله) كلمة سلب وإيجاب ما أبلغها وما أوجزها . سلبت حق التأله من كل حادث معلول ادعى الغيرية أو اتصف بها أو ألصقت به غياً ، وأوجبته لواحد أزلى قديم مطلق ، تجرد من كل علة وتفرد إسماً وصفة من كل كثرة وقلة ، فنفت ماسوى الله ممن يدعى التنادد والتشارك أو يقول أنه إله من دونه وأثبتت تحقيق الألوهية بوجه جلى لإله واحد « ليس كمثله شىء وهو السميع البصير » ، إنها لآية فى الإيجاز والإعجاز ، جذلة موجزة فى لفظها سهلة ممتعة فى معناها ، وضحة فى حكمها ، بعيدة المرمى فى كنهها ، حصينة المعقل والركن المشيد ، فالعلم بمعناها والعمل بمقتضاها هو التوحيد الكامل والمعرفة الحقة بأحدية الله فى ألوهيته وبوحدانيته فى ربوبيته وبوحدته فى أسمائه وصفاته ، هى الإيمان الكامل الذى نعرف معه بأفعاله فنوحده بأفعالنا فإذا نحن مستقيمون على دين علم وعمل واجتماع وأخلاق دين جامع بين صحيح العقيدة وصدق القول

وإخلاص العمل الموصل إلى تنوير البصيرة ، وتحرير الضمير ، وتنزيه الوجدان وبين تقديس الواجب ومعرفة حقوق الرب من حقوق المربوب اللذين بنيت على أساسهما التكاليف : تكاليف العبادات ، وما من ركن من أركانها فى إجماله التعبدى وتفصيله إلا وحكمه وأسراره جلية ناصعة فى كل حركة منه وسكنة ، فتكاليف المعاملات وما من أصل من أصولها الفقهى وفروعه إلاوله حكمه الإيجابى المشروع ضميناً لحرية الفرد وعرضه ومافى عداد حياته حقوق المجموع بأوسع وأحكم ما تتطلبه الحاجة البشرية والغاية الاجتماعية من انتظام سير العالم وتشييد دعائم السلم وتوطيد كيان العدل والأرض فى سائر أرجائه وربوعه .

لقد ميز الله الشريعة الإسلامية على ما سواها من الشرائع السماوية والقوانين الوضعية أن جعل منها إلى جانب نسخها ما قبلها من أديان وتعاليم استبدلها بما هو سهل الفهم ، يسير النطق ، سمح الأخذ به والتعود عليه من معقول أو منقول ، وإلى جانب سيرها فى مقاومة العادات على أحدث النظريات العلمية والقواعد العملية حملها البشر على اتباع الأوامر واجتناب النواهى بصورة تألفها النفس ولا يمجها الطبع السليم وبالاضافة إلى ما ذكر فإن مبدئى الترغيب والترهيب اللذين بنيت عليهما التكاليف جاءا كفيلين لأن يتدرج معهما المرء إلى مقام الاحسان الذى يعرف فيه الانسان نفسه فيعبد ربه على بصيرة كأنه يراه فيعد منه ذلك نفساً مطمئنة وازعها فطرى وزاجرها منها ، فيها وجدانى يسير ، ومبدأ انتشار الفضيله

ومكافحة الرذيلة إلى مكان بعيد . ومن مميزات الشريعة السمحاء أن جاءت بأسس علمية عولجت معها معضلات فقهية ظل التشريع الوضعى يعانى صعوبة فى تذليلها ردحاً من الزمن منها ماهو مختص بالفقه المدنى ، ومنها ما هو مختص بالفقه الجنائى ، ومنها ما هو فى صلب أصول المرافعات المدنية والمحاكمات التضائية ، فجاءت بإعجاز ليس بعده إعجاز . وأصبح الفقه الاسلامى قاموساً فقهياً عاماً صالحاً لأن تستمدمنه الشرائع الوضعية أصولها واستكمال كل مايطرأ على فروعها من نقص جرياً على مقتضيات ظروفها وإيجابات محيطها وبيئتها .

إن للشريعة السمحاء اتجاهاً علمياً ممتازاً فى إحكام أواصر الزوجية ، إحكام صلة النفس بالجسم كما يتجلى ذلك عيانية فى قوله تعالى « جعل لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة » وأن لها فى تكوين الأسرة العائلية أساليب عملية تنشأ عن تمكين صلاتها ببعضها بيئة صالحة تنشىء من الأمم أمة وسطاً حرة أحسن وصفها عز من قائل « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً » . أمة تتحلى بأسمى المبادىء الاجتماعية والأخلاقية التى يتحقق معها قوله تعالى « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر » .

الإسلام دين الحرية

كان الناس قبل أن يبعث الله محمداً صلوات الله وسلامه عليه فوضى لاضابط لهم ، يتحكم قويهم فى ضعيفهم ، ويتجبر غنيهم على فقيرهم ، يسوم بعضهم بعضاً الخسف ، ويذيقه أنواع المهانة والذل ؛ يتخذ ذوالسيطرة منهم من لاحيلة له عبداً ذليلا ، وتابعاً حقيراً ، يجرده من كل حق له فى الحياة ، حتى الطعام والشراب ووسائل المتاع الحلال . لايأخذ منها إلا النزر اليسير؛ وكان اختلاف الطبقات ، وتباين البيئات ، له أثره فى حياة الشعوب والأفراد ؛ فالشريف المنسب ، غير المغمور الخالى من النسب ، والحسيب ذوالأسرة والجاه ، شأنه غير شأن من لم يمنحه الله هذه الميزات فى الحياة .

وظل هذا المبدأ ديدن الناس ، والمسيطر عليهم فى معاشهم . حتى أرسل الله تعالى جل شأنه محمداً صلى الله عليه وسلم ، بدين قوامه حرية الفرد ، وحرية الجماعة ، وسداه ولحمته حق كل فرد فى حياة حرة كريمة يؤدى ماعليه من واجب فى بناء مجتمع إنسانى رفيع ، ويأخذ مايستحقه على أداء هذا الواجب الرفيع .

وكان طبيعياً أن يلقى هذا الدين فى مستهل حياته حرباً وعناداً . وصلفاً وتكبراً ، من أولئكم الذين تعودوا حياة العظمة والجاه . وألفوا أن يكونوا سادة مطاعين . وغيرهم من السوقة لهم من الخدم

والتابعين ، ولذلك لم يكن عجباً أن يبدأ الإسلام أول مابدأ بأتباع من الضعفاء ، وأنصار من المضطهدين الأذلاء ، لأنه دين الحرية الذى يدعو الناس إلى أن يكونوا جميعا سواء ، ليس لكبير على صغير فضل إلا بالعمل الصالح ، والجهد النافع الذى يقدمه للمجموع ، غير حاسب حساب شخصه ، ولامقدر منفعته الشخصية من وراء عمله ، وليس لذى نسب عريق من ميزة على وضيع الأصل ؛ بل ربما كان ذلك الوضيع المغمور صاحب كرامة عند الله بما يحمل بين جنبيه من نفس كبيرة ، وحب للخير ورغبة صادقة فى نفع المجتمع والنهوض به ، والسعى الحثيث ليحيا الناس حياة الكرامة والاستقامة والعزة والمهابة .

إن فى الإسلام لفضائل جمّة ، بل إن فيه خيرى الدنيا والآخرة : فيه العدالة والإخاء ، وفيه الكرامة والمساواة ، وفيه الصدق والعفة ، والترفع عن كل مايشين أو يسىء إلى الفرد أو المجموع ؛ وفيه الشجاعة التى لاتعرف التهور ، والحرية التى لاتعرف الفوضى ، والعمل الذى لايعرف ضجه ولاسمعة ولارياء ، ولو لم يكن فيه إلا أنه حرر الفرد من العبودية ، وحرر الأمم من الذل ، ودعا إلى الحق وإلى طريق مستقيم ، لكفاه ذلك خلوداً ، وكفى أن يدخل الناس فيه أفواجاً ، فما بالنا وهو مجموع الفضائل ، وعنوان الحياة الطاهرة النقية ، ودين العقل والتبصر ، والتفكر فى خلق السموات والأرض وما فيهما من عجائب وغرائب تحير الافهام والالباب !

وليت المسلمين الذين تمتلىء بهم الديار فى مشارق الأرض ومغاربها يدركون ما فى الإسلام من فضائل ، ومايدعو إليه من تعاليم ! إنهم إن أدركوا هذه التعاليم كلها أو بعضها ، وعملوا بها ، ودعوا إليها ، فى هذا العصر المملوء بالماديات التى طغت على المعنويات . . إنهم إن غضبوا لكرامتهم وحريتهم ، وأدركوا أن دينهم دين الحرية ، دين الإخاء والمساواة ، دين ينعم فى ظله وتحت راية تعاليمه الناس أجمعون ، ويشعرهم بقوة الشخصية ، ويمحو من بينهم فوارق الطبقات ، لو أدركوا هذا لكان شأنهم غير ما نراه الآن ، وغير ما نشهده فى ديارهم من تفرق وشتات . . .

اللهم ألهمنا نصرة دينك لتنصرنا ، والعمل بشريعة نبيك ورسولك لتنقذنا ، ومكن لنا ليصح فينا قولك الكريم « ولينصُرنَّ اللهُ من ينصُره إنَّ الله لقويٌّ عَزيز . الَّذينَ إنْ مكنَّاهُمْ فى الأرْض أقاموا الصَّلاة وآتَوُا الزَّكاة ، وَأمروا بالمَعْروفِ ونَهَوْا عَن المُنكر . ولِله عاقبةُ الأُمور » .

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا اشتد الحر فأبردوا بالصلاة ، فإن شدة الحر من فيح جهنم » . متفق عليه .

السعادة في نظر الدين

جاء فى كثير من الكتب بيان معنى هذه الكلمة التى يتمنى كل واحد إدراكها ويرغب فى تحصيلها كل إنسان ، وأشار كل بما أدى إليه اجتهاده وظن أنه فيما صنع أصاب طريق الحق ودل على ما يوصل إلى نيل السعادة التى هى الغاية المطلوبة ، ومن هؤلاء العلامة ابن القيم فقد فصل القول فى ذلك وبسط الكلام فى كتابه « مفتاح دار السعادة » وكذلك فى رسالته « التبوكية » ، وذكر فى هذه الرسالة أن أسباب السعادة ثلاثة : الشكر والصبر والاستغفار ، فجعل هذه الأمور الثلاثة أسبابا لسعادة الإنسان وفوزه بالنعيم المقيم .

وإذا ماتدبر العاقل هذه الأسباب وجدها تجمع للعبد خيرى الدنيا والآخرة .

وبيان ذلك أن الإنسان إذا أنعم عليه ربه بنعمة من النعم الدينية أو الدنيوية فإنه يجب عليه شكر المنعم فيعتقد بقلبه أنها من عند الله ويقر بلسانه على مقتضى اعتقاده ويعمل بجوارحه من الطاعات ماأوجبه الله على كل مسلم من العبادات . ولا ينبغى للعبد الاقتصار على أداء مافرضه الله عليه بل يزيد من نوافل الطاعات التى هى من جنس الواجبات فإن النوافل تكمل ماأوجب الله عليه من الفرائض التى ربما حصل فى بعضها

نقص وتفريط ، فإذا فعل ذلك فقد أدى شكر نعمة الله عليه واستحق من الله المزيد . وكما أنه يجب عليه فعل الطاعات شكراً لما أنعم الله به عليه من نعمة الإسلام وأقدره على فعل الطاعات بصحة عقله وسلامة بدنه . فكذلك يجب عليه حفظ جوارحه من المخالفات لأمر الله فيحفظ يده من تناول الحرام ، ورجله من المشى إلى مواضع الإثم والعصيان ، وعينيه من النظر إلى ما حرم الله عليه ، ويصون لسانه عما يغضب الله ، وكذلك يحفظ قلبه من الإصرار على الاعتقادات الفاسدة والشبهات المضلة ومن الكبر واحتقار الناس والحسد الذى يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب ، وكذلك من أتاه الله مالا ، وجب عليه شكر ربه بأداء حقوق المال التى أوجبها الله عليه كالزكاة وسائر النفقات التى هى واجبة شرعاً على الإنسان ، فإنه بفعل ذلك يكون قد أدى شكر نعمة المال فاستحق من الله الجزاء والثواب والإحسان بخلاف من رزقه الله مالا ولم يعمل به صالحاً ويسلك به مسالك الخير ويبذله فى طرق البر والمعروف التى أمر الله بها بل جعل ماله وسيلة لنيل شهواته المحرمة وأسرف يبذله فى طاعة الشيطان ، فهذا المغرور جحد نعمة ربه عليه وصار ماله زيادة فى عذابه وسبباً لمقته وحرمانه من خير الدنيا والآخرة حيث استعان بنعمة الله المالية والبدنية على معاصى الله ، فهذا شقى محروم بعيد من السعادة التى يظن الجاهل المغرور أنه أدركها ونالها .

وأما السبب الثانى للسعادة فهو الصبر عند نزول البلاء ، وذلك

أن الإنسان معرض فى دنياه لآفاتها ومصائبها ، فيناله منها مالايحبه ولايألفه ولايرضاه من الأسقام وفقد الأحبة ونقص الأموال وغير ذلك مما يبتلى الله به عموم عباده من مصائب الدهر التى لامنجاة منها ولامفر عنها وربما صارت ناشئة عن محبة الله لعبده فتكون سببا لسعادة العبد ورضى ربه عنه إذا لزم عند نزولها حدود الشرع ولم يتجاوزها إلى مانهى الله عنه ، وإلى ذلك يرشد قوله عليه السلام : « إن الله إذا أحب قوما ابتلاهم فمن رضى فله الرضى ومن سخط فعليه السخط » . ولهذا كان الأنبياء عليهم السلام أشد الناس بلاء فى هذه الدنيا . قال بعض الصحابة : كأنى أنظر إلى رسول الله يحكى نبياً من الأنبياء ضربه قومه فأدموه ، وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول : « اللهم اغفر لقومى فإنهم لايعلمون » .

فإذا كان الأنبياء وهم صفوة الخلق وأحب العباد إلى الله تنالهم مصائب الدنيا فيصبرون رضاً بقضاء الله وطلباً للثواب فحقيق لكل عبد الاقتداء بهم والسير على منهاجهم حتى تحصل له السعادة ويفوز برضى الله عنه سبحانه وتعالى ، فإن هذه المصائب التى يجب الصبر عند نزولها إنما تقع بقضاء الله وقدره وقد ثبت فى أصول الدين أن الإيمان بالقدر السابق أصل من أصول الإيمان يكفر جاحده . فلهذا يجب على العبد الرضى بتقدير الله وما أجراه عليه من المصائب فى دنياه فيرضى بالقضاء ويصبر على المقضى به من مرض وموت قريب ونقص من الأموال ،

ويرضى بما قسم الله له من رزق قليلاً كان أو كثيراً ، لأن قسمة أرزاق العباد سبقت فى الأزل ، فلا اعتراض على القاسم ، بل ربما صار ضيق العيش سبباً لصلاح دين العبد ، كما فى الحديث القدسى : «إن من عبادى من لايصلح إيمانه إلا الفقر ولو بسطت عليه لأفسده ذلك» ، والصبر المحمود هو الصبر الجميل فيحبس لسانه وجوارحه عن كل ماحرم الله من الجزع الشديد المنافى لشرع الله ودينه ويحفظ لسانه عن الشكوى لغير الله فإن شكواه إلى العباد لاتفيد ولاتجدى شيئاً كما قيل :

لاتظهرن لعاذل أو عاذر حاليك فى السراء والضراء
فلرحمة المتوجعين مرارة فى القلب مثل شماتة الأعداء

وأما السبب الثالث لسعادة العبد وفوزه برضى ربه ومغفرته فهو الاستغفار الذى هو دواء الذنوب كما جاء فى الحديث : «إن لكل داء دواء وإن دواء الذنوب الاستغفار» ، ولما كان العبد مأموراً بالتقوى وهى العمل بطاعة الله وترك معصيته ، ولكن العبد ربما وقع منه مايخل بتقواه — أرشده النبى صلى الله عليه وسلم إلى مايزيل هذا من الطاعات ويرده إلى تقواه ، لأن حسنة الاستغفار تمحو سيئة الذنوب كما قال عليه الصلاة السلام «واتبع السيئة الحسنة تمحها» . فمن حفظ هذه الأسباب الثلاثة التى أشرنا إلى تفصيلها إشارة موجزة حاز السعادة فى الدنيا والآخرة لأنه أتى بأعظم مايقرب إلى الله من العمل بطاعته وترك معصيته .

وأما مايظنه الجاهل المغتر بشبابه وماله وجاهه وغير ذلك من

أعراض الدنيا الزائلة أنه سعيد بذلك فيسترسل يبذل ماله فى الحرام ويفنى شبابه باتباع طرق الآثام فهذا ظن سيء ووهم باطل ، ناشيء عن غرور الشيطان وتسويله وتزيين طرق الشر حتى صارت عاقبة أمره إلى الذل والخذلان والهوان لأنه أطاع شيطانه وعصى ربه ، فهذا هو المخذول وسيسأل يوم القيامة عن جميع هذه الأعراض الدنيوية كما قال عليه السلام « لا تزول قدماً ابن آدم حتى يسأل عن خمس : شبابه فيما أبلاه ، وعمره فيما أفناه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه ، وماذا عمل بما علم » .

عن أبي هريرة رضى الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدى الله عنه ، ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه الله تعالى » رواه البخارى .

إيثار الدين على الدنيا

يقول الله تبارك وتعالى وهو أصدق القائلين « لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها رضى الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون) .

إن المؤمن الحقيق هو من جعل تقوى الله والتزام طاعته قبلته فى هذه الحياة ، لا يصرفه عن استقبالها صارف ، ولا يشغله عن التوجه إليها شاغل . والمؤمن الحقيق من اتصلت نفسه بالله ، والتزم فى جميع أحواله مخافته ورضاه ، فلم تكن فى قلبه هيبة لسواه ، ولا تغلب هوى نفسه على مرضاة مولاه ، والمؤمن الحقيق من كان صادق العزيمة ، يبحث فى كل أمر على قدر ما يتهيأ له من طرق البحث فى خدمة الدين ، مستعيناً بسواه من إخوانه المؤمنين الصادقين ، فإذا اتضح له السبيل عزم ، ومتى عزم لا يثنيه شىء عما هو عليه ، حتى إذا اعترضته الجبال تريد صده ، حاول أن يفتح له منها طريقاً ، أو كالذى يبتغى إلى السماء سلماً .

حارب الصحابة آباءهم وأبناءهم وإخوانهم وعشيرتهم فى سبيل دينهم

وعقيدتهم : قتل أبو عبيدة بن الجراح أباه عامراً بيده لما سمع منه فى رسول الله ﷺ مايكره ، ونهاه فلم ينته . وصك أبو بكر أباه صكة سقط بسببها على الأرض لأنه سب النبي ﷺ ولما كلمه رسول الله فى ذلك قال : لو كان السيف قريباً منى لقتلته . ولما كانت وقعة بدر الكبرى أمر رسول الله ﷺ حمزة بن عبد المطلب ، وعلى بن أبى طالب ، وعبيدة بن الحارث ، أن يخرجوا لمبارزة إخوانهم من القرشيين ، فأقبل حمزة إلى عتبة فقتله ، وأقبل على إلى شيبة فقتله . واختلف بين عبيدة والوليد ضربتان فأثخن كل منهما صاحبه ثم مال حمزة وعلى إلى الوليد فأجهزا عليه واحتملا عبيدة إلى رسول الله ﷺ .

هذا ما كان عليه خلق المؤمنين السالفين ، من إيثار الدين على الأولياء والأقربين . وهذا ما مكن لدينهم أن يظهر نوره بين العالمين ، ويدخل فى سلطانه من الناس مئات الملايين ، وهذا ما جعل خلفاء الإسلام وملوكهم وأمراءهم يلتزمون إلى أقصى حد طاعة الله ، ويعلنون أنهم يتولون أمور المسلمين لينفذوا حدود الدين ، فإذا قصروا فليس لهم على الناس سلطان ، بل تركوا الأمر لمن هو أقدر منهم على طاعة الرحمن وإقامة شعائر القرآن ، هذا سيدنا أبو بكر خليفة رسول الله ﷺ يقول ، فى أول خطاب له بعد أن بويع بالخلافة : أيها الناس : إنى قد وليت عليكم ولست بخيركم فإن أحسنت فأعينونى . وإن صدفت فقومونى ، أطيعونى ما أطعت الله ورسوله ، فإذا عصيت فلا طاعة لى عليكم .

فهو بهذا يخبرهم أنه خليفة لينفذ الشريعة ، فإذا عدل عنها ، أو تكاسل فى خدمتها فلا طاعة له عليهم . وهذا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، يدعو المسلمين إلى مراقبة الله فى السر والعلن ، وعدم الخوف من ملك ولا سلطان ، إذا حادا عن جادة الحق ومنهج الإيمان ، فيقول: (من رأى منكم فى اعوجاجا فليقومه) ، ويجيبه أعرابى من آخر المسجد : والله يا عمر لو وجدنا فيك اعوجاجاً لقومناه بسيوفنا . فهل تظنون أن عمر أخذته عزة الحكم أو بهرته قوة السلطان ، فغضب من ذلك الأعرابى الذى لم يرض فى تقويم اعوجاج عمر إلا السيف ؟

لا لا . فعمر كان على شريعة من الحق ومحبة الدين وواجب المسلمين ، لهذا حمد الله وشكره حيث جعل فى أمة محمد ﷺ من يقوم اعوجاج عمر بسيفه .

وهكذا أجاب سلف المؤمنين داعى الله ، فآواهم الله وأيدهم بنصره ، وأنقذهم من همزات الشيطان ومقارفة الإثم والطغيان ، وألف بين قلوبهم فأصبحوا بنعمته إخوانا ، وعاشوا برحمته أنصاراً وأعوانا . لا يهمهم ملك فى دولته وسلطانه ، إذا لم يراع حق الله فى سره وإعلانه . ولا غنى فى غناه وثروته إذا لم يؤد حق الله فى وطنه وأمته . ولا متكبر يكاد يخرق الأرض بأقدامه ، ويبلغ الجبال طولا بقامته وهيلمانه . إذا لم يكن لأولياء الله موالياً ، ولأعدائه معادياً . وكانوا فى سبيل الإيمان والعقيدة وإرضاء الضمير ، لا يطمعون فى ثواب عاجل ، ولا يغترون بعرض

زائل . هذا سعيد بن المسيب من كبار التابعين ، رفض أن يزوج ابنته للوليد بن عبد الملك بن مروان وهو ولى عهد المسلمين وقال : إن الدنيا لا تزن عند الله جناح بعوضة . وما عبد الملك إلا باطل ، يريد أن يخطبنى لبيعته ، بتزويج ابنتى لولى عهده ، فكيف أرضيه وأغضب رب العالمين ؟

وكانوا فى سبيل الحق والدفاع عنه والرضا به والرجوع إليه يؤثرون محبة الله ورضاه على كل من سواه ، خاصم رجل الخليفة المهدى فى حق له أمام القضاء فقال الخليفة للقاضى : أحكم بيننا . فحكم القاضى للرجل ضد الخليفة ، ففرح المهدى أن جعل الله فى قضاته من ينصر المظلوم مهما كان ضعيفاً على الظالم مهما كان قوياً . والتاريخ ملآن بآثار هذه الشجاعة والعدالة والرجوع إلى الحق من عظماء الإسلام وأبنائه الأعلام . كان منهم الكريم تفيض نعمة الله عليه ، فيفيضها على من حواليه ، وتنبسط يد الخير لإسعافه ، فيسعف بها من يعيشون فى أكنافه . وكان منهم الحامى لدينه الذائد عن حياضه ، لا ينام ويترك المنكر فى دينه ظاهراً ، ولا يقر له عيش مادام كتاب الله معطلا ، وكان منهم من لا يبالى فى سبيل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أن يلازمه الشقاء ، أو تسفك منه الدماء ما دام قد آثر محبة الله ورضاه على متاع هذه الحياة .

هذا دستور القرآن يقرع الآذان ويوقظ بحكمه الغالية القلوب ، ويشفى بآياته الكريمة الصدور ، ويقوى بوعده ووعيده العزائم ،

ويبين أن النجاح والنفاذ فى هذه الحياة لا يكونان إلا بالعزم والثبات والصبر والإخلاص التام ، والاتكال على الله الواحد العلام ، وأن يرى المسلم أن السعادة كل السعادة فيما كان هداية لنفسه أو هداية بها ، ولو لاقى كل صنوف الإيذاء والألم ، (وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ، ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون) .

إن الدنيا دار لعب ولهو ، وأن الدين الحق ليس فى تلك القشور التى يتظاهر بها المسلمون من صلاة لاتنهاهم عن الفحشاء والمنكر ، وصوم لا يوقظهم إلى حق الله الأكبر ، وحج لايتخذونه إلا رياضة خلوية أو نزهة بحرية أو لقباً يتحلون به بين الناس ، وإنما الدين الحق هو الذى تخالط بشاشته القلوب ، ويلجأ فيه المؤمن إلى علام الغيوب ، الدين الحق ، ألا نطيق رؤية المنكر بين أظهرنا دون أن نغيره ، وأن نغار على نفله وفرضه غيرة الحر الكريم على شرفه وعرضه ، وأن نحرص على تعاليمه حرص البخيل على دراهمه ، وأن نؤثر محبة الله ورضاه على جميع مباهج هذه الحياة ، وأن نحب فى الله ونبغض فى الله . ونعادى فى الله ونصادق فى الله ، بهذا لا بغيره نستكمل أسباب الإيمان ، ونهزم حزب الشيطان ، ونستحق الحمد والثناء على طول الزمان .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تزال لا إله إلا الله تنفع من قالها ، وتدفع عنهم العذاب والنقمة ما لم يستخفوا بحقها ، قالوا : يا رسول الله ، وما الاستخفاف بحقها ؟ قال : يظهر العمل بمعاصي الله تعالى فلا ينكر ولا يغير » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « ما أقر قوم المنكر بين أظهرهم إلا عمهم الله بعذاب محتضر » .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أصبح يقول : « اللهم بك أصبحنا وبك أمسينا وبك نحيا وبك نموت وإليك النشور » ، وإذا أمسى قال مثل ذلك ، إلا أنه قال : « وإليك المصير » أخرجه الأربعة .

تعريف الدين

عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : اللهم أصلح لى دينى الذى هو عصمة أمرى ، وأصلح لى دنياى التى فيها معاشى ، وأصلح لى آخرتى التى إليها معادى ، واجعل الحياة زيادة لى فى كل خير ، واجعل الموت راحة لى من كل شر » .

أخرجه مسلم

الدين فى حقيقته ليس إلا إكمالا لمشاعر الإنسان وتصحيحاً لمواهبه فهو عقل يحسن التفكير ، وعين تحسن النظر ، وأذن تسمع السمع ، ويد تحسن العمل . . والمؤمن على هذا إنسان ناضج الفهم والتأمل فى الحكم على الأمور ، إنسان جيد الانتاج والآثار والتصرفات . . . فإذا اضطربت هذه المعانى فى نفسه اضطرب معها مصدر الإيمان فى قلبه ولبه وتقلصت معها حقيقة إنسانيته . ولا تزال طوائف من الناس تفقد إيمانها وإنسانيتها معاً حتى تدمغ بوصف القرآن لها :

« إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الصُّمُّ البُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ » .

والمرء يستحيل دابة يوم يموت فيه عقله المفكر وترتكز فيه مشاعره

اليقظة فيصبح غير مسئول عن سمعه و بصره وفؤاده لأنه ليس له من ذلك إلا ما للحيوان السائم، حواس مسخرة فى أغراض الحياة الدنيا فقط . وأمثال هؤلاء هم مع الأسف العميق قوام الجماهير الغفيرة التى أعماها الجهل وأوهاها المرض وأهانها الفقر، قوام الكتل الضخمة من البشر الذين يزخر بهم الشرق ولا يتقدم بهم إلى الأمام خطوة بل يتأخر بهم خطوات، أوهم التراب تبرد فيه حرارة الإسلام وتتبدد قواه كدين موجه فعال .

وهذا الهوان المادى والأدبى لا ينبغى حسبانه ديناً أو طلا لدين فهو عار ولدته بيئات آثمة لا تتصل بالدين إلا ادعاء، ولا يتصل بها الدين إلا مشوهاً مظلوماً مفترى عليه .

ولكى نطمئن إلى وجود ديانة صحيحة وأتباع محترمين يجب أن نسارع إلى محو كل أثارة للفقر والجهل والمرض وأن نختلق جيلا جديداً يصلح بفطرته لأداء الرسالات الكبرى وحمل أعبائها ، فإنه من الجلى أنه حيث يوجد الهوان المادى والأدبى لا يرجى خير ولا يؤمن شر . فالانسان المغلق الخامل المحطم لا ينتفع بالدين ولا ينتفع به الدين . . ما الذى يفيده الإسلام من رجل طمست حياته وشاهت ملكاته وعاش على ظهر الأرض حفنة من ترابها أو قطعة من صخورها ؟ إن الإسلام

لا يستفيد شيئاً من هذا الشخص . بل إنه يضار به ويهون فيه ، والإناء الملوث يزرى بأطهر السوائل ويبخس قيمتها . كذلك الشعوب العاجزة الكسول تحط من مكانة الأديان التى تعتنقها وتهبط بمستوى العقائد التى تنتمى إليها . ! !

وكما أن الدين لا ينتفع بتابعه الهين ، فإن التابع الهين لا يحسن الانتفاع مما سيق إليه من مواريث نفيسة ولا مما أحيط به من مبادىء غالية ، كالجاهل الذى يلقى نفسه فى مكتبة حافلة ، أو المعمود الذى يواجه مائدة مفعمة ، بل إن الأتباع الحمق كثيراً ما يفرضون سفههم على أسمى الحقائق فبدلا من أن يرتفعوا معها إلى القمة يهبطون بها إلى السفوح ! !

ومن ثم يجب أن نقرر هذه الحقيقة فى علاجنا لمشاكلنا المعقدة :

إن شعوب الشرق الإسلامى تحتاج قبل أن تفهم الإسلام وقبل أن ينتظر منها إعزاز الاسلام ، إلى جهود جبارة لرفع مستواها المادى والأدبى أى إلى تصحيح إنسانيتها أولا حتى إذا كونا الانسان الذى يعقل ما يخاطب به ويعرف واجبه نحوه قلنا له : أنصر ربك ونفسك إذا شئت الحياة الكريمة فى يومك وغدك . أما جهود المصلحين قبل اتخاذ هذه الخطوة فهى أمواج من الماء تتدفق على صحراء من الرمال . . هيهات أن يكون لها ثمر ! ! .

الدين سبيل السعادة

البؤس والألم هما ألد أعداء السعادة فى العالم . والعطف والمحبة هما الحقل الذى تنمو فى تربته . ولتعبيد طريق السعادة لا بد من القضاء على الأولين وتنمية الآخرين .

وأول شرط يجب على المرء مراعاته لكى يضمن السعادة هو أن ينزل الستار على الماضى ولا يفكر فيما مر به من أفراح أو أتراح . فذكريات الأفراح تنشىء فى نفسه الأسف على ما فات . وذكريات الأتراح تفتح فى قلبه جروحاً قد لا تقبل الاندمال . أضف إلى ذلك أن الإصرار ذكرى الماضيات قد ينشىء فى النفس أفكاراً سوداء . والخطر كل الخطر أن يظل المرء يفكر فى كل مصيبة نزلت به وخسارة نكب بها وإهانة وجهت إليه ، وكلمة أفلتت منه . والمثل الانجليزى يقول : لا تبك على اللبن المسكوب على الأرض . أى لا تحزنك المصيبة إذا لم يكن فى وسعك تلافيها .

فالنسيان إذن هو البلسم الذى يشفى جراحات القلوب . ولكى تستطيع أن تنسى الماضى يجب أن تلهو بعمل يشغلك فى كل دقيقة من دقائق حياتك . والمثل يقول إن البطالة رأس مال الشيطان .

ولضمان السعادة شرط آخر وهو أن لا تدع الوهم يصور لك العالم على الدوام صورة قاتمة ، وأن لا تدع سبيلا للأفكار والخيالات المزعجة

لكى تستولى عليك . إنك تكون إذ ذاك كمن ينظر إلى العالم من خلال نظارات سوداء ، يرى كل شىء حالكا ولا يرى من خلال الظلمات شعاعاً من الأمل . ومن كان يظن أن الحياة كلها ظلمات لا موضع فيها للسعادة ، لم يستطع أن يحظى بالسعادة دقيقة واحدة . فخير ما يفعله المرء هو أن يهز كتفيه للنوائب ولا يكترث لها .

وكثيراً ما يكون التفكير فى المستقبل داعية للشقاء . ومن الناس من يفكر فى المستقبل لا ليبحث عما يخفيه له فى حياته من أسباب السعادة ، بل ليسبر غور ما يضمره له من الشقاء وأمثال هؤلاء ليس غريباً ألا تلوح لهم بارقة أمل بسعادة أو هناء .

وشرط أخير للسعادة : وهو أن تختار لنفسك بيئة تستطيع أن تضم فيها جهودك إلى جهود غيرك لتجىء مثمرة نافعة ويسود بينك وبين الآخرين كل وفاق ووئام .

أدب المرأة في الإسلام

إن حب الدين والتمسك بأساليبه وآدابه القويمة ، ودعائمه الجليلة السامية وفضائله الممدوحة وسجاياه الشريفة ومزاياه العديدة ، مما يذكرنا بقوله تعالى : « ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيراً . ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفاً واتخذ الله إبراهيم خليلا »

فيا أيتها المسلمات أوصيكن بتقوى الله العظيم . وأقول لكن : إن أردتن علامات الحسن والكمال ، فانبذن عادة التبرج نبذاً . واقتدين بأمهاتكن الصالحات وتمسكن بالعادات الحسنة وبالدين الحنيف واتركن هذا التبرج المرذول الذى يحط من قدر صاحبته . لماذا تسير الفتاة فى طريقها وهى لابسة ملابس زاهية الألوان تستميل الأنظار صابغة وجهها بالألوان الزائفة ؟ تظن أن هذه الألوان تشابه الطبيعة ولكن هناك فرق شاسع بينهما كقول الشاعر :

يصنع الصانعون ورداً ولكن

وردة الروض لا تضارع شكلا

صبغـة الله صبغـــة تبهر النفس

تعـــالى الإله عـــزّ وجـــلا

بل زينة الوجه أن يرى كما خلقه الله ، قال تعـالى : « ولقـد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم » ، فيجب على الفتاة أن لا تتيه كبراً فى مشيتها وتمايل عجباً بنفسها ، وتسعى إلى أن تظهر ماخفى منها ، بل يجب أن تعمل بقوله تعالى : « ولا تبرّجن تبرج الجاهلية الأولى » .

لمـاذا تتهيأ الفتاة بما استطاعت من زينة وجمال لتمشى فى الطرقات ، معجبة بنفسها ، مختالة بمشيتها كأنها عروس تزف لزوجها ؟

إن الفتاة المسلمة حقاً التى تعد عاقلة شريفة ، هى التى تتخذ الحشمة والوقار شعارها ، وتتمسك بآداب الدين القويم حتى تكون ذات نفس طاهرة ملؤها اليقين بالله وحليتها الأخلاق الكريمة . فالدين أصل كل فضيلة وأساس كل خير وفلاح . ولقد صدق من قال :

إنمـــا الأمم الأخـــلاق ما بقيت

فإن همو ذهبت أخلاقهـم ذهبـــوا

أى أن عماد الأمة وهناءتها وسعادتها متوقف على أخلاق الأمهات الصالحات . والفتيات الشريفات ، والسيدات الطاهرات . إن الفتاة المسلمة التى لم يتم بعد نمو عقلها قد تقلد من تراهن من الغربيات اللاتى

طغين على البلاد كالسيل الجارف بأشكال متنوعة وأزياء مختلفة ، فإياكن أن تغركن هذه بزخرفها الكاذب ، وشكلها المصنوع ، وجمالها المزيف ، ورونقها الخادع . فحرام عليكن ، حرام أن تظهرن من زينتكن إلا ما ظهر منها عند الحاجة ولمن يحل له ذلك منكن قال تعالى « وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو إخوانهن أو بنى إخوانهن أو بنى أخواتهن » . وهذا شأن الأمهات العاقلات المتعلمات العلم الصحيح ، لأن العلم سلاح ذو حدين : حد فاسد وحد مفيد ، فمن منكن تعلمت العلم النافع عليها أن تحيط بناتها بسياج من العلم الصحيح ، والدين الحنيف القويم ، والتربية العاليـة حتى تنظرن إلى الغربيات الخارجات عن الآداب بعين المقت والازدراء لا بعين الرضا والقبول . . هذا ويجب عليـكن أيتها المسلمات أن تأخذن على عاتقكن محاربة تلك البـدع المذمومة ، وبخاصة التبرج الممقوت ، والخروج عن حد اللياقة والكمال ، وذلك بأن تـكن قدوة صالحة طيبة لغيركن فى هذا الشأن ، وأن تـكثرن من النصح والإرشاد كلما سنحت الفرصة واقتضى الحال . وبهذا تحافظن على تقاليدكن الإسلامية وتتمسكن بآداب دينكن المرضية .

الدين يسر

ويل لمن يسيء استعمال هذه الكلمة الشريفة التي قالها النبي ﷺ لظروف خاصة ، وحددها الشرع الشريف بحدود ، وقيدها بقيود . وويل لمن أراد أن ينتهك حرمة الشرع أو يتجاوز حدوده فإذا مرت بخاطره هذه الكلمة بغاية السرعة تغافل عن هذه الحدود وتلك الشروط فى الحق أن الدين يسر !

ولكن هل معنى ذلك أن الإنسان إذا تألم من الجوع فى رمضان مثلا تخيل أن به أمراض الدنيا وتوهم أنه مشرف على الهلاك إن لم يسرع بالإفطار فيفطر ملبياً نداء الشيطان لأن الدين يسر ؟

وهل من يسر الدين أن يبيح لنفسه شرب الخمر إذا زعم أن فيها شفاءه إن كان مريضاً ؟ ! وهل من يسر الدين أن يتوضأ سريعاً فيترك نصف أعضاءه من غير إسباغ معتمداً على أن « الدين يسر » . الحق أننا أيها المسلمون نحفظ من الأحاديث ظاهرها ، ولا نعرف مرماها ولا نتبين معناها ومغزاها ، ونلتمس من الأحاديث مايساعدنا ظاهره على الكسل ويوافقنا على التوانى ، لأن عبادتنا آلية خالية من الروح ومن الرغبة الحقة . والآن من مِنَ الذين يحفظون هذه الكلمة الشريفة ويستعملونها

كثيراً فى غير موضعها فإذا كلف المرء نفسه مؤونة البحث عن أصلها ، وعن السبب الذى قيلت من أجله ، لايجد ، لأنه لو فعل لخرج بأن هذه الكلمة الشريفة قيلت لرجل كان يواصل ليله بنهاره فى العبادة حتى أدمت العبادة قدميه . نعم قيلت لرجل أنهك قواه وأتعب جسمه طالباً لرضاء الله ، ورضاء الله ليس بالهين ، واستمر ذلك فى تعذيبه لجسمه إرضاءاً لروحه حتى علم النبي ﷺ بأمره فقال صلوات الله وسلامه عليه « الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه » لكى يخفف ذلك الرجل من ضغطه على جسمه ، أما عابد اليوم فهو كسول متوان راغب عن العبادة مقصر فيها فيأخذ الحديث الذى قيل للمجتهد ليستعين به على تفريطه وإهماله .

فما أكبر الفارق بين الرجلين ، وما أشد حاجة المسلمين إلى مراجعة أعمال السلف الصالح لكى ننسج على منوالهم ونسير على منهاجهم . متى نعبد الله نصف ماعبده ذلك الرجل الذى قال فيه النبي ﷺ هذا القول .

إذا فعلنا ذلك حق فينا قول الله تعالى : « كنتم خير أمة أخرجت للناس » .

الدين والصحة

للدين علاقة وطيدة وصلة ظاهرة بالصحة فى الإسلام . ولقد جمع القرآن الكريم من الحكم والآيات البينات مايدهش اللب ويحير العقل ، فبينما يتحدث إليك عن عجائب السموات ويلفت نظرك إلى ما أبدعه الله من المخلوقات فإذا به يستدرجك للبحث فى مسائل طبية ويتغلغل بك فى العلوم الصحية ، فبينما نرى أن المتقدمين كانوا يمرون على كثير مما جاء فى هذا الكتاب المبين من الكرام ، إذ بنا نرى اليوم أن الطب الحديث يكشف الستار عن هذه المكنونات ويرفع النقاب عن هذه المعجزات التى هى اليوم أسس قام عليها علم الصحة فى الطب الحديث .

وليس فى تحريم القرآن الخمر وتحريم الميتة والدم ولحم الخنزير إلا آيات كبرى لقوم يتفكرون ، فقد كشف العلماء حديثاً ما تؤثره الخمر فى الجسم حيث يتسبب عنها أمراض عديدة .

وهل قامت الطهارة وفرضت الصلاة وتقرر الصيام إلا على أسس صحية وفوائد طبية ، وفضلا عن أنها عبادات ففيها تغذية للأبدان بما تكسبه للجسم من نشاط .

ولو علمنا أن فضل الطب الحديث قائم اليوم على المحافظة على الصحة العامة ودرء الأمراض عن الجماعات ، ومنع انتشار الأوبئة بين الناس

كافة بتأمين المرضى شر الإصابة بالنزلات لأدركنا الحكمة فى تشدد الشرع الحنيف فى تطبيق قوانين الطهارة بفرض الاغتسال والوضوء لصحة العبادات ، فضلا عما يعود ذلك على الجسم من فوائد صحية .

وفى الصوم معقل للتقشف وحصن منيع للوقاية من كثير من الأمراض ، بل يكاد يكون العلاج الوحيد لبعض الأمراض المزمنة ، فكثيراً ما يصاب بعض الناس بحالات عصبية شديدة تجابه كل محاولة علاجية وتجعل العلة مستعصية على نطس الأطباء .

فالصيام أقوى مطهر للجسم من أدرانه وفضلاته ، فضلا عن أنه يقوى الإرادة ويزيد فى النشاط وفى الصبر على تحمل المشاق ، والطب الحديث يؤيد ما جاء فى الحديث الشريف « المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء » بل ينطبق انطباقاً كلياً على القواعد الحديثة فى العلاج ، فالحمية هى دعامة إنجاح العلاج ، يطابق ذلك أحدث الأبحاث الطبية .

ولا ندلل فى القول على تلك الحكمة البالغة التى جرت على لسان النبى الأمى منذ مئات السنين وما ينطوى فى هذا من القول الفصل ، بل الذى يعد بحق من أهم القواعد التى بنى عليها الطب الحديث فى التدبير الغذائى ما قررته الشريعة الإسلامية من فرض الصوم بدليل قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون) ويستنتج من هذا أن النبى الكريم ما جاء بهذا الدين القويم إلا لإسعاد الناس وهناءتهم فى الدنيا والآخرة .

الدين والعلم

ادبنى ربى فأحسن تأديبى

حديث شريف

خلق الله الإنسان وجعله فى بدء نشأته لا يعبأ بأمور الحياة الدنيا ولا يعانى شيئاً فى طلبها . فهو فى مهده حول قلوب آبائه فإذا ما فارقته الطفولة وميطت التمائم خرج من مدرسته البيتية إلى دور التعليم والتثقيف فتنمو قوته العقلية شيئاً فشيئاً وهى مطية تقدمه ومطمح آماله . وكلما أخذ قسطاً من التعليم والتثقيف طمحت نفسه إلى التزود وجمع قوته إلى بلوغ أسمى المطالب فيلتقط كل شاردة وواردة ، وشد عزيمته للعمل واستعد لمكافحة الحياة معتمداً على ماحصله من تربيته الصحيحة ومعلوماته الصالحة فتقوى فى نفسيته وسائل اقتحام العمل ومناضلات الحياة وتقلباتها .

فالحياة فى النشأة الأولى متعلقة بالوالدين فهما يربيان ولدهما ويعلمانه ويحملانه على مصالحه وتدبيره فى الوقت الذى كان عاجزاً عن تدبير نفسه ثم رزقه المدبر الحكيم القدرة والتمييز والعقل والهداية تدريجياً حتى بلغ وتكامل فصار مراهقاً ثم شاباً ثم كهلا ثم شيخاً هرماً (هل أتى على

الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً ، إِنَّا خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً)

« قُتِلَ الإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ » قال الحق : « قوا أنفسكم وأهليكم ناراً » أى علموهم وأدبوهم . علموهم أداء الواجبات وتجافى المنهيات وأوضحوا لهم سبل الاستقامة وجنبوهم طريق الجهالة والضلالة .

أدبوهم فإن من قعد به حسبه نهض به أدبه . أدبوهم فإن الأدب من الآباء والصلاح من الله فالأدب عون على المروءة وزيادة فى العقل وصاحب فى الغربة وصلة فى المجلس :

إذا نكبات الدهر لم تعظ الفتى عن الجهل يوماً لم تعظه أنامله
ومن لم يؤدبه أبوه وأمه تؤدبه روعاته وزلازله

قال عبد الملك بن مروان لبنيه : عليكم بطلب الأدب فإن كنتم ملوكا سدتم ، وإن كنتم وسطاً رأستم . وإن أعوزتكم المعيشة عشتم :

لا تسه عن أدب الصغير وإن بكى ألم التعب
ودع الكبير لشأنه كبر الكبير عن الأدب

رأى حكيم غلاماً يعلم شيخاً فقال له : ماذا تصنع يا غلام ؟
قال له : يا مولاى أغسل حبشياً لعله يبيض !

إن الغصون إذا قومتها اعتدلت ... ولا يلين إذا قومته الخشب
قد ينفع الأدب الأحداث فى مهل ... وليس ينفع فى ذى الشيبة الأدب

وأن الله سبحانه وتعالى يرزق الصبي ذهناً قوياً من صغره وقلباً واعياً فى مهده واستعداداً عظيما من أول نشأته . قال تعالى : « ولقد آتَيْنا إبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ » وأن أول نعمة لفهم الصبي فى الغالب تكون بعد الخامسة من سنيه .

جاز سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه على صبيان يلعبون فتفرقوا من هيبته ولم يبرح ابن الزبير مكانه فقال سيدنا عمر : مالك لم تبرح ؟ فقال ابن الزبير : ما الطريق ضيقة فأوسعها لك ولا لى ذنب فأخافه ! .

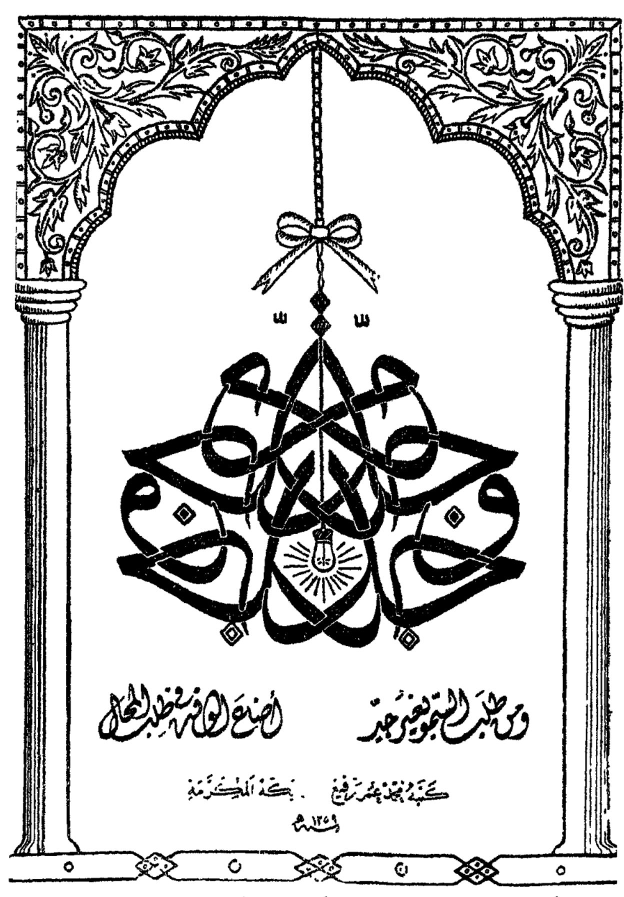
فضل التمسك بالدين

إن سعادتنا فى أن نكون بهذا الدين عاملين وشقاوتنا فى أن نكون عن طريقه منحرفين ، عزنا أن يكون الله معنا ، ذلنا أن يكون الله علينا « إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ » فهل نحن متقون محسنون حتى يكون الله معنا ؟ هل نحن مؤمنون حقاً حتى نكون من جند الله الذين قال فيهم إنهم لهم المنصورون ؟ هل نحن غير محبين لأعداء الله حتى نكون ممن قال الله فيهم « أولئِكَ حِزْبُ اللهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الغَالِبُونَ » ؟ يا قوم لا تغشوا أنفسكم ولا تكابروا فى المحسوسات ، ديننا ليس بدين أقوال ولكنه دين أعمال ، ديننا ليس بدين نفاق ولكنه دين محبة وائتلاف .

وقد تهاوننا بأمور ديننا حتى عادله وصف الغربة ، لقد صار المعروف منكراً والمنكر معروفاً وصارت السنة بدعة والبدعة سنة ، فأصبح الرأى خطلا والوسط مختلا والبلد محتلا والعدو لنا مذلا والحق بيننا هزيلا مضمحلا . كيف نتقدم وقد أصبح كل منا يعمل لحظ نفسه وزيادة مرتبه ويسعى وراء مصلحته وارتفاع درجته ولو كان فى ذلك مضرة لأخيه ومضيعة لبلاده حتى وقع الكل فى قبضة الذل والهوان والشقاء وعم الجميع طوفان المحن والبلاء . فإنا لله وإنا إليه راجعون . أيها

المسلمون : كان لدولة الإسلام العز الذى لا يدانى والسلطان الذى لا يضاهى فقهروا الجبابرة ودوخوا الأكاسرة وانتصروا فى كل الوقائع ولم تنكس لهم راية ولم ينهزم لهم جيش ، ذلك النصر وهذا الفتح المبين بأنهم كانوا يعملون بإخلاص لإعلاء الدين ذلك بأنهم كانوا لحظ أنفسهم ناسين ، ذلك بأنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وكانوا إلى الله راغبين . فيا عباد الله اتقوا الله وخافوا عواقب ما أنتم عليه من التهاون بأمور الدين ، فإنه لا شفاء إلا بالدين ولا دواء إلا بالدين ولا عز إلا بالدين ولا قوة إلا بالدين ولا حياة إلا بالدين ولا سعادة فى الدنيا والآخرة إلا بالدين ، فراقبوا الله وارجعوا إلى دينكم وأحيوا سنة نبيكم تفلحوا وتنصروا .

روى الترمذى بإسناد صحيح عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : كنت خلف النبى ﷺ يوماً فقال ياغلام إنى أعلمك كلمات : « احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذاسألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك وإن اجتمعوا على أن يضروك بشىء لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف » .



قال عالم ما استحق أن يولد من عاش لنفسه فقط

الإسلام دين العمل

إن العمل الصالح من مقاصد الإسلام ، ومن أظهر أغراضه ؛ فليس للإيمان بالله واليوم الآخر من فائدة إذا لم يكن لهما أثر فى إصلاح الأعمال ، وتوجيه الإنسان إلى الطريق المستقيم .

ومما ينبغى أن يعلم أن العمل الصالح من مظاهر الإيمان بالله ، وبالحساب والجزاء فى الآخرة ، وهو لازم له ، وثمرة من ثمراته . وهو يمد ويستمد منه ؛ فكل من الإيمان والعمل يغذى الآخر ويقويه ، ويتوقف كمال كل منهما على الآخر . فمن فسد إيمانه فسد عمله وكان رياء ونفاقاً ، أو تقليداً فى الصورة فقط ، يتبع فيه العامل ما رآه من آبائه وأسلافه ، لا يثمر تهذيباً للنفس ، ولا إصلاحاً لأمور الاجتماع .

والمرء إذا كان بهذه المثابة لا يمكن أن يستقر على حال ؛ فتراه اليوم يعمل عمل المحسنين ؛ وإذا غلبته الأهواء تحول إلى عمل الأشرار ، أو كما وصفه العليم الحكيم « يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ ، فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ ، خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ؛ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ » .

وفى هذا الباب يقول حجة الإسلام الغزالى « كل علم يراد ليكون باعثاً على عمل ، لا يقع التخلص من عهدته مالم يصر باعثاً على ذلك

العمل » ، ويقول الفلاسفة الأقدمون من اليونان « الفضيلة العلم » . . وذلك أن الإنسان إذا تمكنت منه المعرفة ، وعلم أن عملا من الأعمال شر ، وأن آخر خير . ولابسته هذه الفكرة ، فإنها لاتلبث ان تكون عقيدة تظهر عنها آثارها ، وتبدو فى جميع جوارحه ، ولاتفارقه فى خلواته وجلواته ؛ أما العلم المزعزع الذى لايستقر ولا يثبت بل يعتريه التغير والفتور والتردد ، فليس بعلم ولايسمى فضيلة . والنبى ﷺ يقول « لايزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولايشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن » ، وذلك أن الإيمان الكامل لايصدر عنه إلا مايقتضيه . فمن آمن بأن هذا العمل حسن لايمكن أن يتركه ، ومن آمن بأنه سيء لايمكن أن يأتيه ، ويضرب لذلك ابن سينا مثلا فى كتابه الاشارات فيقول : إن من نهاه الطبيب عن تناول طعام بعينه وآمن بصحة قول الطبيب ، لايمكن أن يتناوله ؛ فإذا خالف الطبيب إلى غير مايأمر به فهو إما مكذب للطبيب أو مخاطر لا يحرص على حياته . وذلك هو المثل الذى ينطبق على أوامر الإسلام ونواهيه ؛ فمن رسخ إيمانه بها كان عمله موافقاً لها ، ومن هبط إيمانه عن هذه المنزلة انحرف عنها ، وتارة يخلط عملا صالحاً وآخر سيئاً ، ولكن الصنف الأول هم المؤمنون حقاً ، لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم .

ولما كان أكثر الناس لايعلمون تكرر ذكر العمل الصالح فى القرآن الكريم والسنة المطهرة ، ولولا الحاجة إلى هذا التكرار

فى التذكير والتأثير ، لكانت سورة العصر وحدها كافية على قصرها فى دفع الناس إلى العمل الصالح ، والإعراض عن الفواحش كبائرها وصغائرها «وَالْعَصْرِ إنَّ الإنسانَ لَفِي خُسْرٍ . إلا الَّذِينَ آمنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ وتَواصَوْا بالحَقِّ وَتواصَوْا بالصَّبْر» .

ونروى لك هنا ما ورد فى السنة مما يدل على الارتباط الوثيق بين الإيمان والعمل الصالح ، فقد روى الإمام أحمد والطبرانى فى الكبير أن صعصعة بن معاوية أتى النبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فقرأ عليه «فَمَنْ يعمَلْ مِثقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يرَهْ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مثقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يرَهْ» فقال : حسبي ، لا أبالى أن لا أسمع غيرها ! وروى أن بعض الأعراب سمع النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم يقرؤها فقال يارسول الله : أمثقال ذرة ؟ قال : نعم . فقال الأعرابى : واسوأتاه ! ثم قام وهو يقولها . فقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم «لقد دخل قلب الأعرابى الايمان» . . .

وروى عن زيد بن أسلم رضى الله عنه أن النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم دفع رجلا إلى رجل يعلمه ، فعلمه حتى بلغ هذه الآية ، فقال : حسبي ! فذكر الرجل المعلم ذلك للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم فقال له : «دعه فقد فقه» .

وفى الدر المنثور للسيوطى كثير من أمثال هذه الروايات لانريد

التطويل بإيرادها ، غير أنه مما يجب أن ننبه المسلم إليه أن النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول فى الأثر الأول : « لقد دخل قلب الأعرابي الإيمان » . والكلام فى معرض العمل تنبيهاً إلى مابين الإيمان والعمل من الأواصر . ومايربط الفقه والإحسان من الوشائج ، ومما يروعك فى هذا أن تنظر إلى هذه الآيات وتلك الآثار فتعرف كيف كان أولئك الناس الذين يتلقونها مستعدين لهداية القرآن ، فصلحت به أنفسهم وصاروا أئمة الناس فى الإصلاح ؛ فقد آمنوا بأنهم يرون فى الآخرة جزاء أعمالهم خيرها وشرها وإن قل وكان كالذرة ، فوطنوا أنفسهم على عمل كل مااستطاعوا من الخير ، وترك كل عمل من الشر ؛ وهذا فقه الدين كله . كما شهد له مبلغ الدين صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكما انطبعت نصائحه فى نفوس الذين سمعوه ؛ حتى يروى أن بعض كبار الصحابة كان فى بعض الأحيان يعطى المسكين حبة عنب ويقول : إن فيها ذرات كثيرة اهتداء بالآية الكريمة التى قدمناها . ويقول صلى الله تعالى عليه وسلم فى حديث مسلم « لاتحقرن من المعروف شيئاً » .

وإنما كان العمل الصالح من لوازم الإيمان بالله ، لأن من عرف الله تعالى عرف استحقاقه للحمد والشكر ، والعبادة والحب والتعظيم ؛ ومن مقتضيات ذلك أن يعمل ما أمر به ، وأن يجتنب مانهى عنه . فمن حدثته نفسه أنه مؤمن وهو يعمل عمل الجاحدين . أو ادعى أنه مسلم وهو مندفع إلى الشر اندفاع من لم يدخل الإسلام قلبه ، فقد خدعته نفسه ،

وزينت له حب الشهوات ، وأردته فى الزلل بعيداً عن الإيمان . . .

يا ناظراً يرنو بعينى راقد
ومشاهداً للأمر غير مشاهد
تصل الذنوب إلى الذنوب وترتجى
دَرْكَ الجنان بها وفوز العابد
ونسيت أن الله أخرج آدما
منها إلى الدنيا بذنب واحد

ولايمكن أن يتصور منصف أن القرآن وهو دستور الإسلام ، يحث على التوحيد وتزكية النفس وتطهير العقيدة ، ثم يترك العمل الصالح من غير أن يحفز الناس إليه حفزاً ، أو يغفر مايتهافت عليه الناس من الشرور دون أن يصدهم عنها صداً ؛ وذلك لأن المقصود من القرآن أن يحدث ثورة عنيفة على المفاسد وحرباً عواناً على الموبقات ، لينعم الناس بعالم فاضل صالح ، وإذا هو أرخى الزمام لأولئك الأناس يتمتعون كما يتمتع البهَم فى المرعى الخصيب فكيف يصل إلى غرضه ، أو يبلغ الأمرمنتهاه ؟ كلا ! ليس المقصود كلمة تقال باللسان لايطابقها الجنان ، ولا لفظاً يسمعه الناس ليس مقترناً بعمل ، وإنما المقصود فوق ذلك وأعمق منه ؛ فذلك كتاب الله لم يترك عملا من أعمال البر إلا حث عليه ، ولا شراً إلاتوعد من تورط فيه . ويدخل فى أعمال البر العبادات المفروضة التى يتقرب بها إلى الله تعالى . وسائر الأعمال التى ترضيه بمالها

من تأثير فى إصلاح البشر : كبر الوالدين ، وصلة الرحم ، وإكرام اليتامى والمساكين .

ومن أصول ذلك الآيات الجامعة فى سورة الإسراء « وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إلاَّ إيَّاهُ وبالوالدينِ إحْساناً ، إمَّا يبلغَنَّ عندكَ الكِبَر أحدُهما أوْ كلاهُما فلاَ تَقُلْ لَهَا أفٍّ ولاَ تَنْهرهُما ، وقُلْ لهما قَوْلاً كَرِيماً » إلى آخر الآيات . فإذا قرأ المسلم هذه الأصول لايسعه إلا أن يذعن لأن المقصود من الإيمان هو العمل الصالح ، وأنه لافائدة منه إلا إذا كان كالشجرة الطيبة التى تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها .

ثم إذا قرأ قوله تعالى : قُلْ تَعَالَوْا أتلُ ماحَرَّمَ ربُّكُمْ عَلَيْكُمْ : أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً ، وَبِالوالدينِ إحْساناً . وَلاتَقْتُلوا أوْلادكُمْ خشية إمْلاَقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وإيَّاهُم ، ولاتَقْربوا الفَواحِشَ مَاظَهَرَ مِنْهاَ وَمَابَطَنَ وَلاَ تَقْتُلوا النَّفْسَ التى حَرَّمَ الله إلاَّ بِالحَقِّ ؛ ذلِكُمْ وَصَّاكُمْ بهِ لَعلَّكُمْ تَعْقلون » إذا قرأ ذلك كله وفهمه حق فهمه ، واستظهر كل ماجاء فى القرآن من آيات الحث عن الفضائل والزجر عن الرذائل ، لايمكنه إلا أن يرجع إلى نفسه ويردعها عن إثمها ، وينهاها عن رجسها ، ويعلمها أن كل ذلك ضار بالأبدان والأموال والأعراض والعقول ، ومثارها الأكبر اتباع الهوى وطاعة الشيطان ؛ وأن من الخير للإنسان أن يغرس

فى نفسه ملكة التقوى التى تحفظه من كل مايدنسها ، وتسوء به عاقبته فى الدنيا والآخرة ، وهذا صراط الله الذى أمرنا بالسير على نهجه لكيلا نضل ولا نغوى . «وأنَّ هَذَا صراطى مُسْتَقِيماً فاتَّبِعوهُ ولاتَتَّبِعوا السُّبُلَ فتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبيلِهِ ، ذلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُون» .

تعالى الله ما شاء وزاد الله إيمانى

وكيف يتأتى مايهرف به بعض الناس الذين يزعمون أن الإنسان لايضره مع الإيمان تقصير ، ولاتغلق دونه أبواب الجنة وقد أجرى على لسانه كلمة التوحيد ، والله تعالى يقول : «ونَضَعُ الموازينَ القِسْطَ ليوم القيامةِ فَلاَ تُظْلَمُ نفسٌ شَيْئاً ، وإنْ كانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أتينا بِهَا ، وكَفَى بنَا حاسبين» . وقد ورد فى صحيح مسلم عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «إن الله تجاوز لأمتى ماحدثت به أنفسها مالم يتكلموا أو يعملوا به» فإذا صح مايزعم هؤلاء الضعفاء المغرورون ، فأين هذه الموازين التى توضع يوم القيامة ؟ وأين حساب الناس بالعدل والقسطاس ؟ وكيف يخبر الصادق الأمين أن الله يأخذ من يتكلم من أمته بكلام أهل السوء فضلا عن أن يعمل عمل أهل السوء؟ ولعلهم لايدركون أن هذا إبطال للتكاليف ، وتقويض لدين الله ، وإتيان على الإيمان من أساسه ؛ أو لعلهم استندوا إلى بعض آثار وردت

فى السنة كحديث أبى ذر المعروف « من قال لا إله إلا الله دخل الجنة » وهو استناد لا ينطوى على علم ولا يكشف عن معرفة ، وإنما هو استدلال من لا تجاوز كلمات الدين حناجرهم ، فلم يذوقوا حلاوة الإيمان ولا بشاشة اليقين ؛ فقد كان ذلك فى صدر الإسلام والعقائد ملوثة بالشرك .. لم يتغلغل الإيمان فى القلوب ، ولم تألف النفوس التوحيد ، فأراد رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ، إذا صح الحديث ، أن يصادر عقائدهم ويزكى قلوبهم ، ووسيلة ذلك الترغيب فى التوحيد ، والحث على الإخلاص لله وترك الأوثان ، وخلع ما يقدس الناس من أصنام ، وذلك هو فقه المسألة ؛ فلم تصل إليه عقول أضلها الله على علم ، ونفوس أشربت حب المنكرات ، فترامت على الآثام تقترفها ، وتهافتت على السيئات تجترحها ، ولم يقنعهم أن يعصوا الإله حتى يأتوا بدليل على العصيان ويقيموا الحجة على ما يعملون ، فأخذوا يروون هذا الحديث فى أندية الفسوق ، ويحسِّنون لأنفسهم أن يتعدوا حدود الله « ومَنْ يتَعدَّ حُدُودَ اللهِ فأولئكَ هُمُ الظّالمون » .

وجاء فى قول بعض المفسرين فى قوله تعالى « إنَّ الذينَ قالوا ربّنا الله ثُمَّ اسْتَقاموا تَتَنَزَّلُ عَلَيهم الملائكة » : إن من قال ربى الله تعالى فقد اعترف أنه عز وجل مالكه ومدبر أمره ومربيه ، وأنه عبد مربوب بين يدى مولاه ، فالثبات على مقتضاه أن لا تزل قدمه عن طريق العبودية

قلباً وقالباً ولا يتخطاه .. » وثم « على هذا للتراخي الرتبي ؛ فإن الاستقامة عليه أعظم وأصعب من الإقرار ؛ ولذلك فهي أعلى منزلة وأكثر فائدة وإن حديثاً واحداً يروى رواية الآحاد لايمكن أن ينهض أمام هذه الأدلة الكثيرة ، والآيات البينة .

يجب على المسلم الذي لايريد أن يتلاعب بإسلامه فينطق بلسانه ثم يروغ عن الأعمال الصالحة روغان الثعلب ، إلا أن يتخلص من نزعات الأغراض وسلطان النزوات ، ثم يتلو قول الله « وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إلى الله وَعَمِلَ صالحاً وقال إنَّني مِنَ المُسْلمين » ثم لايترك العنان لنفسه تلعب بإيمانه لعب الرياح بالأغصان ، وتلوى بعقيدته كما تلوى الصبا والدبور بما جف من الأوراق ؛ فالإسلام عقيدة وعمل ؛ فالعقيدة وحدها ليست بإسلام ، والعمل الخالى من العقيدة هباء منثوراً ، ومن حاد عن الطريق السوى فقد غفل عن إصلاح الإسلام ونكص على أعقابه يعمل عمل الجاهلية ، وفى التنزيل الكريم « ثُمَّ جَعَلناكَ عَلَى شَرِيعةٍ مِنَ الأمرِ فاتَّبعها ، وَلَا تَتَّبع أهْواء الذينَ لايَعلَمُونْ » .

جوهـرة

روى عن عبد الله بن مسعود رضى الله تعـالى عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ « : يأتى على الناس زمان لا يسلم لذى دين دينه إلا من فرّ بدينـه من قرية إلى قرية ، ومن شاهق إلى شاهق ، ومن جحر إلى جحر ، كالثعلب الذى يروغ . قالوا : ومتى ذاك يا رسول الله ؟ قال إذا لم تُنَلِ المعيشة إلا بمعاصى الله عز وجل ، فإذا كان ذلك الزمان حلت العزُوبة . قالوا : وكيف ذاك يا رسول الله وقد أمرتنا بالتزويج ؟ قال : إنه إذا كان ذلك الزمان كان هلاك الرجل على يدى أبويه ، فإن لم يكن له أبوان فعلى يدى زوجته وولده ، فإن لم يكن له زوجة ولا ولد فعلى يدى قرابتـه ، قالوا : كيف ذلك يا رسول الله ؟ قال ﷺ : يعيرون بضيق المعيشة ، فيتكلف ما لا يطيق حتى تورده الهلكة » .

قوله « يأتى على الناس زمان لا يسلم لذى دين دينه إلا من فر بدينه الخ » : وهو الزمان الذى فى قول معاذ النسفى رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « سيأتى على الناس زمان يخالفون فيـــه سنتى ويجددون البدعة ، فمن اتبع سنتى يومئذ صار غريباً ويبقى وحيداً ، ومن

اتبع بدعة الناس وجد خمسين صاحباً أو أكثر ، قالت أصحاب الرسول :
هل بعدنا أحد يكون أفضل منا ؟ قال نعم ، قالوا : فهل يرونك ؟ قال
النبي ﷺ : لا . قالوا : فهل ينزل عليهم الوحي ؟ قال : لا . قالوا : كيف
يكونون فيه ؟ قال : كالملح فى الماء تذوب قلوبهم كما يذوب الملح فى الماء .
قالوا : كيف يعيشون فى ذلك الزمان ؟ قال : كالدود فى الخل . قالوا :
يا رسول الله كيف يحفظون دينهم ؟ قال كالجمر فى اليدين إن وضعته
طفىء وإن أخذته باليد أحرق » .

وعن أبى موسى رضى الله تعالى عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ
« إن بين أيديكم فتناً كقطع الليل المظلم ، يصبح الرجل فيها مؤمناً ويمسى
كافراً ، ويمسى مؤمناً ويصبح كافراً ، القاعد فيها خير من القائم ، والقائم
خير من الماشى ، والماشى خير من الساعى . قالوا : فما تأمرنا ؟ قال :
كونوا أحلاس بيوتكم » .

صدق رسول الله ﷺ . ونسأل الله السلامة من الفتن ما ظهر منها
وما بطن .

دين يلائم كل شعب فى الورى

بمحمـــد صلوا عليه وسلموا قد أشرق الكون البهيم المظلم
ليل عليه الشرك مد رواقه فهوت به شهب ؛ وخرت أنجم

* * *

بعث النبي محمـــد فى فترة قد ساد فيها كاهن ومنجم
لم يبق فوق الأرض إلا مشرك أو ملحد فى تيهـــه يترجم
وتنوسى الدين الحنيف ؛ وحرف الـــكتب العتيقة ؛ راهب ومترجم
فأبيحت الحرمات والأرواح والأعراض ، بل لم يبق ثم محرم
« كسرى » يعم على المشارق ظلمه و « هرقل » منه فى المغارب أظلم
والناس بين القيصرين كأنهم غنم ؛ على تلك الذئاب تقسم!

* * *

وبجاءة أصغى « حراء » لرنة « جبريل » فى أرجائه يتكلم
فى جوفه اضطجع الأمين مفكراً أحقـــائق أم يراه توهم ؟
فأتى « خديجة » دثرونى ؛ زملوا من خوفه وهو الشجاع المعلم
وتضاحك القوم الطغاة لقوله إنى رسول الله جئت إليكم !

أن لا إله سواه وهو بعرشه — الأول ، المتأخـــر ، المتقدم
ومحمـــد هو عبده ورسوله — قد جاءه منه الكتاب المحكم
يا قوم لا تدعوا إلهاً غيره — هل تعبدون حجارة لا تفهم ؟!
هذا « كتاب الله » فى إعجازه — لن يأتينّ بمثـــله متـــكلم
حارت عقولهم فقـالوا إنه — شعر بسحر الأولين مطلسم !

* * *

لا فرق بين أعارب وأعاجم — من يتق مولاه فهو الأكرم
والنفس فيما قد جنته رهينة — يوم القيامة إذ يجازى المجرم
دين يلائم كل شعب فى الورى — وبكل قطر شاســـع يتأقلم
يدعو إلى أسمى الكمال وأعـــدل التشريع لا ظلم ولا متظلم
قد جاء يأمر بالعبادة والتقى — من غير رهبنة تميت وتعدم
للطيبات محلل يدعو إلى الـــقصد الوسيط وللخبيث محرم
تتضاءل الأديان حول سموه — وبه يسود ولا يساد المسلم
لكننا خلف خلفنا بعدهم — ضاع التراث ووارثوه نوم
المسلمون حيـــاتهم فى دينهم — ما أمسكوه وويلهم إن أحجموا !

الرياضة في نظر الدين

لم تكن عناية الشرائع السماوية بما يحفظ على الإنسان قوة جسمه بأقل من عنايتها بما يحفظ عليه قوة روحه ، فقد أمرت بنظافة الجسم ، واعتدال المأكل والمشرب ، وطيب المسكن ، والهواء ، وأمرت بالعلاج عند المرض وبالوقاية دفعاً للمرض ، ثم لم تخل الإرشادات الواردة فى أقوال الرسول ﷺ عن لفت الأنظار إلى جملة من أنواع الرياضة البدنية ، وقد صح أن النبي ﷺ باشر بعض تلك الأنواع بنفسه .

ومن ذلك الرياضة بالرمى ، حتى قال « حق الولد على الوالد أن يعلمه الكتابة والسباحة والرمى » فذكر نوعين آخرين مع الرمى : الكتابة والسباحة ، والكتابة فيها ترويض أصابع اليد وتمرينها على الحركة وأن ذلك مما يجعلها ذات قوة وتحمل ، والسباحة فيها ترويض لأعضاء الجسم كله فى الماء والتجديف وسائر ماعرف من أنواعها فى هذه الأيام .

وكما ورد الحث على الرمى والسباحة هكذا ورد أن النبي ﷺ كان يرى أصحابه يتسابقون على الأقدام « الجرى » ويقرهم عليه وقد صح عن عائشة رضى الله تعالى عنها أنها قالت : سابقنى رسول الله ﷺ فسبقته ، ثم سابقنى فسبقنى فقال « هذه بتلك » .

وروى أن النبي ﷺ صارع رجلا معروفاً بالشدة فى الجاهلية ،

فصرعه فقال عاودنى فى أخرى ، فصرعه النبى صلى الله عليه وسلم فى الثانية فقال عاودنى فى أخرى فصرعه النبي صلى الله عليه وسلم فى الثالثة .

وقال العلماء دلت الأحاديث على مشروعية المسابقة على الأرجل بين النساء والرجال المحارم . كما دلت على أن المسابقة لاتنافى الوقار والشرف والعلم والفضل وعلو السن .

وكما ورد من أنواع الرياضة الرمى والمسابقة والمصارعة وردت أيضاً المبارزة ، اللعب بالحراب (الشيش) .

وقد نوّه القرآن بالخيل وقد صح أن النبى صلى الله عليه وسلم سبق بين الخيل وأعطى السابق كما كان يسابق على ناقته العضباء وكانت لاتسبق ، ومما يذكر أنها سبقت مرة فاشتد ذلك على المسلمين وقالوا سبقت العضباء فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أن حقاً على الله ألا يرفع شيئاً من الدنيا إلا وضعه » .

وإذا كانت هذه هى الآثار النبوية والتعاليم الإسلامية فيما يختص بالرياضة البدنية على سبيل الاستغلال والقصد فهناك ناحية أخرى يقصد من تشريعها التعبد وقيام العبودية بحق الربوبية فى الطاعة والخضوع والخشوع ، ومع ذلك كان فيها من صور الرياضة البدنية ما هو جدير بأن يوجه الناس نحو الرياضة البدنية ويلفت أنظارهم إليها ، تلك الناحية هى الصلاة .

هذه هيئات الصلاة المعروفة لدينا جميعاً من قيام وركوع وسجود

وجلوس كلها فيما يرى الرياضيون من أوضاع الرياضة العنيفة التى لها أثرها فى تقويم العضلات ومران المفاصل وقوتها ، وفى وضع الصلاة على هذه الهيئات إيحاء قوى بما فى الرياضة البدنية من فوائد تعود على الانسان فى جسمه وروحه خيرها .

وإذا كانت الرياضة البدنية فى نظر الاسلام بهذه المكانة قد نظمت فى عهدنا الحاضر هذا التنظيم الذى نشاهده وسهل على الانسان أن ينتفع بها وهو فى بيته بواسطة الاذاعة صباح كل يوم ، فجدير بالانسان أن يحرص عليها لنفسه ولأبنائه وأن يقوموا بها فى وقتها فينعمون بقوة الجسم وقوة الروح ، وبذلك يأخذون إلى السعادة طريقاً ، وإلى الخير سبيلا .

وإذا كان الإسلام يطلب من أهله أن يكونوا أهل حرب وجهاد ، وأصحاب قوة ومنعة وأن يكونوا دائماً على أهبة الاستعداد لدفع العدو المهاجم أو إخراج المستعمر الغاصب . فجدير بالمسلمين أن يكونوا على اتصال تام بالتدريب والرياضة البدنية ، حتى تعظم فيهم قوة المكافحة والمجاهدة . . فهيا إلى الرياضة ، وهيا إلى التدريب .

الدين وحكمة التشريع

قبل أن نفصل بعض حكم التشريعات الإسلامية نذكر كلمة عامة عنها:

قال العز بن عبد السلام : إن التكاليف كلها راجعة إلى مصالح العباد فى دنياهم وأخراهم ، والله غنى عن عباده لا تنفعه طاعة الطائعين ولا تضره معصية العاصين وأن مصالح الآخرة لاتتم إلا بمعظم مصالح الدنيا . ويقول الإمام الماوردى : وكان من رأفة الله بعباده أن أقدرهم على ما يكلفهم به ورفع الحرج عنهم فيما تعبدهم به . قال تعالى : « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » وقال : « وما جعل عليكم فى الدين من حرج » .

ما كلف الله به عباده : بالتأمل فى التكاليف يرى أنها ثلاثة أقسام : قسم أمرهم الله باعتقاده ، وقسم أمرهم بعمله ، وقسم أمرهم بالكف عنه . وجعل ما أمرهم باعتقاده قسمين قسما إثباتاً من ذلك إثبات توحيده وصفاته وإثبات بعثه رسله . وقسما نفياً من ذلك نفى الشريك والصاحب والولد والحاجة إلى سواه . وهذان القسمان أول ما كلف به العقلاء .

وجعل ما أمرهم بفعله ثلاثة أقسام قسما على أبدانهم كالصلاة والصيام وقسما فى أموالهم كالزكاة والكفارة وقسما على الأموال والأبدان كالحج والجهاد . وما أمرهم بالكف عنه ثلاثة أقسام أيضا : قسما لإصلاح بيوتهم وصلاح أبدانهم كنهيه عن القتل وأكل الخبائث وشرب الخمور .

وقسما لائتلافهم وإصلاح ذات بينهم كنهيه عن الغضب والغل والظلم والحسد . وقسما لحفظ أنسابهم وتعظيم محارمهم كنهيه عن الزنا ونكاح ذوات المحارم .

هذه جملة التكاليف التي كلف الله به عباده .

الإيمان : أول ما فرض الله على عباده الإيمان به وبملائكته ورسله وكتبه وباليوم الآخر والقدر خيره وشره إلى غير ذلك ، كما ورد فى الحديث الصحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : الإيمان بضع وستون أو بضع وسبعون شعبة : أعلاها أو أرفعها أو أفضلها على اختلاف الروايات قول لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان .

وقد جمع شعب الإيمان المحدث الكبير البيهقى فى كتاب خاص . والايمان بالله هو دين الأنبياء كما جاء فى الصحيحين أن رسول الله قال إنا معاشر الأنبياء ، ديننا واحد . وقال الله تعالى : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » . قال الراغب الأصفهانى : الإيمان دواء معيد للحياة الأبدية والسلامة الدائمة كما قال تعالى « أو من كان ميتاً فأحييناه » . وقال تعالى : « وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم » ، ومن وجه هو ماء

مطهر مزيل للأنجاس والأرجاس النفسية ، وهو نور وسراج مزيل للظلمة والحيرة والجهالة ، وهو وسيلة إلى الله عز وجل ، وهو الطريق المستقيم كما قال تعالى : « وأن هذا طريق مستقيما » . ثم نعود إلى شرح بعض شعب الإيمان .

الصلاة : اشتملت فريضة الصلاة على خضوع ورهبة وابتهال وتضمنت تلاوة بعض آى الكتاب الكريم ، فيتدبر المصلى ما فيها من أوامر الله ونواهيه ، ثم كانت فى أوقات متفرقة لاستدامة الخضوع والابتهال إليه سبحانه حتى لاتنقطع الرهبة ولا الرغبة فيه ولذلك يقول الله تعالى : « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » لما فيها من الخضوع والابتهال والرهبة والرغبة .

الزكاة : هى شعبة كذلك من شعب الإيمان ، ويقول الله فى حكمتها : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم والله سميع عليم » الآية ١٠٣ من سورة التوبة .

قال الإمام ابن تيمية فى الزكاة : الإحسان إلى الخلق بمال وإغاثة الملهوف وقضاء حاجة المحتاج فيها تطهير للأنفس والأموال ومواساة للفقراء وذوى الحاجات تكفهم عن البغضاء وتمنعهم من التقاطع والحسد.

الصيام : فرض الله الصيام لما فيه من فوائد ترجع إلى الصائم نفسه وإلى إخوانه من بنى جنسه ، يصح به الجسم ، وتقوى به الروح ، يعلم

الإنسان الصبر وحب الخير فيعطف على الفقراء ويطعمهم ويسد جوعتهم وفيه من قهر النفس وإذلالها وكثر شهوتها ما هى فى حاجة إليه .

الحج : هو من شعب الإيمان أيضاً والداعمة الخامسة من الاسلام المبينة فى الحديث الصحيح : جمع بين نوعين عملا على بدن وحقاً فى المال فكان فى فرضه تذكيراً بيوم المحشر لمفارقة المال والأهل وخضوع العزيز والذليل فى الوقوف بين يدى الله تعالى واجتماع المطيع والعاصى فى الرهبة منه والرغبة إليه وفيه يتعارف المسلمون . وفى سورة الحج بيان كثير من فوائده .

الجهاد : شعبة من شعب الإيمان شرع لرد العدوان وحماية الدين وإزالة العقبات من طريق الدعوة حتى تأخذ طريقها المشروع لأنها دعوة حق وإنصاف بعد أن وثب أهل الشرك على المسلمين فأخرجوهم من ديارهم وأموالهم وهكذا كان أعداء الرسل فى كل زمان .

السلم : هو الرابطة بين الناس بعضهم مع بعض ليعيشوا مجتمعين مطمئنين والانسان مدنى بطبعه محتاج إلى أخيه .

الأمان أو العهد : أمر الله بالوفاء به فى غير آية من كتابه لما فيه من الصالح العام للإنسانية فتعيش الأفراد والجماعات فى ظله ما داموا قائمين على الوفاء به

طاعة أولى الأمر : أمر حث الله عليه وعدّ من شعب الإيمان . يقول الله تعالى : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم »

إنما الطاعة لا تكون إلا فى معروف إذ صح عنه عليه السلام أنه قال : لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق . وورد فى الحديث أنه صلى الله عليه وسلم قال : « من أطاعنى فقد أطاع الله ومن عصانى فقد عصى الله ومن يطع الأمير فقد أطاعنى ومن يعصى الأمير فقد عصانى » .

الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر : هما من وظيفة الرسل عليهم السلام لأن كل رسول كان يدعو قومه إلى ماينفعهم وينهاهم عمايضرهم ويقوم بهذا الأمر بعد الرسل العلماء الذين هم ورثة الأنبياء فيبينون للناس ما يفيدهم فى دنياهم وأخراهم . وهما من شعب الإيمان .

يقول الله تعالى : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » إلى غير ذلك من الآيات .

صلة الرحم : قال النووى : حقيقة الصلة العطف والرحمة وهى واجبة بالجملة وقطيعتها معصية كبيرة وقد ورد ذلك فى القرآن والسنة قال أنس بن مالك : قال رسول الله : من أحب أن يبسط له فى رزقه وأن ينسأ له فى أثره ـ أجله ـ فليصل رحمه » إلى غير ذلك من الأحاديث وهى شعبة من شعب الإيمان .

إقامة الحدود : العقوبات التى جاءت بها الشريعة لمن عصى الله ورسوله نوعان : عقوبة مقدرة فليس للحاكم أن يغيرها ويزيد عليها وعقوبة غير مقدرة ويترك شأنها للحاكم يفعل فيها ما يرى فيه المصلحة .

القصاص : شرع حقناً للدماء وتسكيناً للنفوس الثائرة . يقول الله تعالى : « ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون » . قال ابن تيمية : إن أولياء المقتول تغلى قلوبهم بالغيظ حتى يؤثروا أن يقتلوا القاتل وأولياءه بل ربما لم يرضوا بقتل القاتل إذا كان المقتول سيد القبيلة مثلا . فكتب الله علينا القصاص فى القتلى وهو المساواة والمعادلة فى القتلى وأخبر أن فيه حياة فإنه يحقن دم غير القاتل فالمؤمنون تتكافأ دماؤهم .

شرب الخمر : ومن الحدود حد شارب الخمر . يقول ابن تيمية : وأما حد الشرب فإنه ثابت بسنة رسول الله وإجماع المسلمين فقد روى أهل السنن عن رسول الله أنه قال : من شرب الخمر فاجلدوه ، وثبت عنه أنه جلد الشارب غير مرة هو وخلفاؤه والمسلمون بعده . وحد شارب الخمر من العقوبات التى شرعت لحفظ العقول والأجسام وقد ألحق بشرب الخمر الحشيش فإن بعض العلماء أفتى بجلد متعاطيه إذ هى أخبث من الخمر تفسد العقل والمزاج وكلاهما يصد عن ذكر الله وعن الصلاة .

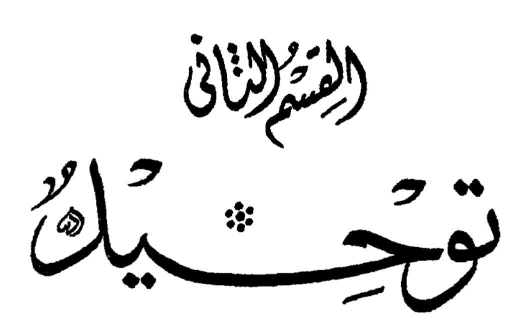
حد السارق : شرع لحفظ الأموال وعدم تعرض المفسدين لها فيجب قطع يد السارق اليمنى بالكتاب والسنة والإجماع ولا يجوز بعد ثبوت الحد بالبينة أو بالإقرار تأخيره لا بحبس ولا مال . فإن إقامة الحد من العبادات كالجهاد فى سبيل الله . فإن قطعت يمينه أصبحت غير صالحة كالعضو المتآكل يجب قطعه .

حد الزانى : قال ابن تيمية فى السياسة الشرعية : وأما الزانى فإن

كان محصناً فإنه يرجم وإن كان غير محصن فإنه يجلد حسبما جاء فى النصوص الشرعية حفظاً للأنساب من الضياع وأماناً للناس فى غيبتهم عن أزواجهم وذويهم ، وأما اللواط فمن العلماء من يقول حده كحد الزنا وقد قيل دون ذلك لما فيه من المفاسد الضارة بالمجتمع .

الشهادة : شرعت لاستخلاص الحقوق من جاحديها ، قال الله تعالى « ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه » وقال تعالى : « ولا يأبى الشهداء إذا ما دعـــوا » . وورد فى الحديث الصحيح الأمر بإكرام الشهود .

الكذب : يقول الله تعالى « إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله » والكذب جماع كل شر وأصل كل ذم لسوء عواقبه لأنه ينتج النميمة وهى تنتج البغضاء التى تؤول إلى العداوة وليس مع العداوة أمن ولا راحة ، وقيل فى منثور الحكم ، الكذاب: لص لأن اللص يسرق مالك والكذاب يسرق عقلك . وقيل الخرس خير من الكذب فالكذب خصلة مذمومة من العقل والشرع .


القسم الثانی
توحید

لا إله إلا الله

التوحيد : علم يبحث فيه عن وجود الله وما يجب أن يثبت له من صفات وما يجوز أن يوصف به ، وما يجب أن ينفى عنه ، وعن الرسل لإثبات رسالتهم ، وما يجب أن يكونوا عليه وما يجوز أن ينسب إليهم ، وما يمتنع أن يلحق بهم .

أصل معنى التوحيد : اعتقاد أن الله واحد لاشريك له ، وسمى هذا العلم به تسمية له بأهم أجزائه . وهو إثبات الوحدة لله فى الذات والفعل فى خلق الأكوان ، وأنه وحده مرجع كل كون ومنتهى كل قصد ، وهذا المطلب كان الغاية العظمى من بعثة النبى صلى الله عليه وسلم كما تشهد به آيات الكتاب العزيز .

وقد يسمى علم الكلام إما لأن أشهر مسألة وقع فيها الخلاف بين علماء القرون هى أن كلام الله المتلو حادث أو قديم ، وإما لأن مبناه الدليل العقلى وأثره يظهر من كل متكلم فى كلامه ، وقلما يرجع فيه إلى النقل ، اللهم إلا بعد تقرير الأصول الأولى ثم الانتقال منها إلى ما هو أشبه بالفرع عنها ، وإن كان أصلا لما يأتى بعدها وإما لأنه فى بيانه طرق الاستدلال على أصول الدين أشبه بالمنطق فى تبيينه مسالك الحجة فى علوم أهل النظر وأبدل المنطق بالكلام للتفرقة بينهما .

اللَّهُ ﷻ

إن من يتصدى لدراسة تفسير القرآن الكريم ، وينصب نفسه خادماً لكتاب الله الحكيم ، يعرض له كثير من البحوث المختلفة ، وتتفتح أمامه نواح عدة من الموضوعات المتشعبة ، وتتوارد عليه الفكرة تلو الفكرة ، ويبدو له الرأى إثر الرأى ، وكلها جدير بالبحث والدرس ، خليق بأن ينفرد بالتأليف والتصنيف .

ولقد عرض لنا فيما عرض ، موضوع الأعلام الموجودة فى القرآن الكريم ، وما يتطلبه التعريف من جهد ومشقة ، فقد يصادف القارىء « علم » من هذه الأعلام فيرغب فى أن يعرف عنه فكرة صحيحة ، وأن يلم بموضوعه إلماماً وافياً ، ثم يلتمس ذلك فى كتاب واحد ، أو موضع واحد ، فلا يجد ما يحقق رغبته ، ويقضى طلبته ، بل يجد الكلام عنه مفرقاً هنا وهناك ، ومبعثراً فى أشتات الكتب ، وموزعا فى مختلف المقامات ، فما يفتأ يقرأ ويراجع ، ويفتش وينقب ، وينتقل من سفر إلى سفر ، ويستوعب كل حرف وكل كلمة وسطر ، حتى يستطيع بعد الجهد الجهيد ، أن يخرج بأثارة من علم عن هذا « العلم » الذى صادفه أثناء قراءته .

عرض لنا هذا الموضوع ، ولم نجد — على ما نعلم — من اختصه بالكتابة ، أو أفرده بالتأليف ، كبحث خاص من مباحث القرآن الكريم مستقل بنفسه ، قائم بذاته ، فحفزنا ذلك إلى خوض غمار هذا الموضوع — على ترامى أطرافه ، وتزاحم الشواغل ، وقلة الاستعداد — وتحرك فى نفوسنا الميل إلى الكتابة فيه على أسلوب ، يهم المسلم ويشبع رغبته العلمية ، ويوفر الوقت على الباحث ، ويغنيه عن طول المراجعة ويكفيه مؤونة الحيرة والتردد بين أكداس الكتب ، ويعطيه الفكرة سهلة وافية يسيرة .

ولا ندعى أننا سنأتى فى هذا الباب بما لم يسبقنا إليه الأوائل ، أو أننا سنسجل فيه من الأقوال مالم يهتد إليه قائل ، وإنما سنعتمد فيما نكتب على كتب التاريخ والسير والأنساب والتراجم والتفسير واللغة والتصريف ودوائر المعارف والمعاجم وغيرها ، فنقرؤها ونستوفيها ونستوعبها ونستقصيها ، ثم نبدى الرأى متخيراً ، ونسوق القصة صحيحة ، ونسرد الرواية معقولة . ونذكر الواقعة مقبولة ، وندلى بالفكرة محررة سليمة .

هذا وإنا نعتبر أن من أكبر أمارات التوفيق والقبول أن يكون أول « علم » نتوج به هذا الموضوع ، ونحلى به هامته ، هو الإسم العظيم الأعظم : « الله » .

فالمأثور فى معنى هذا الإسم الكريم ، أنه إسم للموجود الحق . الجامع لصفات الإلهية ، المنعوت بنعوت الربوبية ، المنفرد بالوجود

الحقيق ؛ وقيل : معناه الذى يستحق أن يعبد . واختلاف التعبير عن هذا المعنى ، وتنوع صيغه ، لا يخرج عن أن المؤدى بها واحد ، كما قاله القرطبي فى تفسيره .

ونسب بعض المفسرين إلى البلخى أنه رغم أن هذا اللفظ ليس بعربي بل هو عبرانى أو سريانى معرب « لاها » ، ومعناها ذو القدرة ، وقال بعضهم إنهم يقولون : « إلها رحيانا ومرحيانا » فلما عرب جعل « الله الرحمن الرحيم » ؛ ثم ذكروا أن ذلك الزعم باطل ، لأنه لا يلزم من المشابهة الحاصلة بين اللغتين الطعن فى كون هذا اللفظ عربياً أصلياً ، واستعمال اليهود والنصارى لا ينهض دليلا ، لأن احتمال توافق اللغات لايزال قائماً ، ومتى كان هذا الزعم لادليل عليه ، فلايصح أن يصار إليه .

والذى عليه الإطباق من العلماء كالشافعى والأشعرى والخطابى ، وإمام الحرمين ، والغزالى والرازى ، وأكثر الأصوليين والفقهاء ، وما عليه اختيار الخليل وسيبويه ، والمازنى وابن كيسان أن هذا اللفظ عربي وقد جعل بعضهم ذلك فى رتبة الذى لا يحتاج إلى برهان ، واستدل له بعضهم بأدلة لا تسلم من المناقشة .

وذهب كثير من العلماء ، منهم الشافعى ، وأبو المعالى ، والخطابى ، والغزالى ، والمفضل ، والخليل ، إلى أن هذا اللفظ علم مرتجل موضوع لذاته تعالى ، وأنه لا أصل له ولا اشتقاق ، حتى لقد قال الغزالى : إن كل ما ذكر فى اشتقاقه وتصريفه تعسف وتكلف .

وهذا الرأى هو اختيار الجمهرة من قدماء المحققين ، وقد أوردوا له عدة وجوه تؤيد صحته وتثبت أرجحيته .

وذهب جماعة من العلماء إلى أنه علم منقول من أصل ، ومتصرف فيه نوع تصرف ، ولكنهم اختلفوا فى ذلك الأصل المأخوذ منه هذا العلم على أقوال كثيرة منها :

(أولا) أنه مأخوذ من « أله » كعبد و« إلاهة » كعبادة و« ألوهة » كعبودة ، و « ألوهية » كعبودية ، ومنه قرأ ابن عباس «ويذرك وإلاهتك» بكسر الهمزة أى عبادتك .

فلفظ « الله » على هذا أصله « إلاه » على فعال ، بمعنى مفعول ، لأنه مألوه ، أى معبود ، ككتاب بمعنى مكتوب ، وإمام بمعنى مؤتم به ، فلما أدخلت عليه «أل» حذفت الهمزة تخفيفاً ، أو لأنها عوض عنها ، أو أن ذلك لمعنى اختصت به أل . ليس فى غيرها كما قيل بكل ، وروى المنذرى عن أبى الهيثم أنه سأله عن اشتقاق اسم الله تعالى فى اللغة ، فقال : كان حقه « إلاه » أدخلت الألف واللام تعريفا ، فقيل : «الإلاه» ثم حذفت العرب الهمزة استثقالا لها ، فلما تركوا الهمزة حولوا كسرتها فى اللام التى هى لام التعريف وذهبت الهمزة أصلا فقالوا : « أللاه » فحركوا لام التعريف التى لا تكون إلا ساكنة ، ثم التقى لامان متحركتان فأدغموا الأولى فى الثانية ، فقالوا : « الله » .

(ثانيا) أنه مأخوذ من « أله » كفرح ، يأله ، إذا تحير ، وذلك أن

العبد إذا تفكر فى صفات الله تعالى ، تحير فيها ، فإلاه على هذا بمعنى مألوه فيه .

(ثالثا) أنه مأخوذ من « أله » بالمكان ، كفرح ، إذا أقام به ، قال الشاعر :

ألهنا بدار ما تبين رسومها كان بقاياها وشوم على ليد

فإلاه بمعنى آله ، أى دائم وباق .

(رابعا) أنه مأخوذ من « أله » إلى كذا ، يأله إليه ، إذافزع ، ولاذ أى لجأ إليه ، لأنه سبحانه المفزع والملاذ الذى يلجأ إليه فى كل أمر .

قال الشاعر : ألهت إلينا والحوادث جمة .

وقال آخر : ألهت إليها والركائب وقف .

فإلاه على هذا بمعنى مألوه إليه .

(خامسا) أنه مأخوذ من « أله » الفصيل ، إذا ولع بأمه ، وذلك أن الخلق مولعون بالتضرع إليه فيما ينوبهم ، فيكون إلاه على هذا بمعنى مألوه له .

وأصل لفظ « الله » على هذه الأقوال الخمسة إلاه ، كفعال ، تصرف فيه على نحو ما ذكرنا أولا .

(سادسا) أنه مأخوذ « من لاه يلوه لوها » ، جاء فى اللسان « وحكى عن بعضهم : لاه الله الخلق يلوهم ، خلقهم ، وذلك غير معروف » .

(سابعا) أنه مأخوذ من « لاه يليه ليها » ، إذا استتر واحتجب ،

أو إذا علا وارتفع ، وهو — تعالى — الذى لا تدركه الأبصار ، والمرتفع عن إدراك العقول . وأصله على هذين القولين — السادس والسابع — « لوه » أو « ليه » على وزن فعل ، بفتح الفاء وسكون العين فقلبت الواو أو الياء تخفيفا ، فصار « لاه » فأدخلت أل . وأدغمت اللام فى اللام ، فصار « الله » .

(ثامنا) أنه مأخوذ من « وله » كورث ووجل ووعد ، إذا فرح أو إذا طرب ، أو إذا تحير . وأصله على هذا « ولاه » كفعال ، فقلبت الواو همزة ، كما قالوا للوشاح إشاح ، وللوجاح — وهو الستر — إجاح فصار « إلاه » وأدخلت أل ، ثم جرى عليه من التصريف ما ذكرنا .

هذه خلاصة محررة لمجموع الأقوال التى قيلت فى أصل هذا اللفظ الكريم واشتقاقه ، وقد ذكر صاحب القاموس أنهم اختلفوا فيه على عشرين قولا ، وذكر صاحب تاج العروس أنهم اختلفوا فيه على أكثر من ثلاثين قولا .

وقد رجح بعضهم من هذه الأقوال الثمانية القول الأول ، وهو أنه من « إلاه » كفعال وبنى هذا الترجيح على كثرة دورانه فى الكلام ، واستعماله فى المعبود بحق ، وإطلاقه على الله تعالى .

واختلفوا فى الفرق بين لفظى الإله والله ، فقال السيد هما علم لذاته إلا أنه قبل الحذف قد يطلق على غيره تعالى ، وبعده لا يطلق على غيره سبحانه أصلا .

وقال السعد : إن الإله إسم لمفهوم كلى ، هو المعبود بحق ، والله علم لذاته تعالى .

وقال الرضى : هما قبل الإدغام وبعده مختصان بذاته تعالى لا يطلقان على غيره أصلا ، إلا أنه قبل الإدغام من الأعلام الغالبة وبعده من الأعلام الخاصة .

وجاء فى اللسان فى الكلام على مادة إله « فإذا قيل الإله ، انطلق على الله سبحانه ، وعلى مايعبد من الأصنام ، وإذا قلت الله ، لم ينطلق إلا عليه سبحانه وتعالى » .

وقال الخليل : « أطبق جميع الخلق على أن قولنا الله مخصوص بالله سبحانه وتعالى ، وكذلك قولنا الإله مخصوص به سبحانه وتعالى ، وأما الذين كانوا يطلقون اسم الإله على غير الله ، فإنما كانوا يذكرونه بالإضافة كما يقال : إله كذا ، أو ينكرونه ، فيقولون : إله ، كما قال تعالى خبراً عن قوم موسى : « اجعل لنا إلهاً ، كما لهم آلهة » .

وأطال الصوفية وغيرهم فى ذكر خواص هذا الإسم الكريم ، وخواص حروفه الشريفة ، وأكثروا من ذلك إكثاراً عظيماً وأتوا فيه بما نستطيع أن نفهمه ، وبما لانستطيع أن نفهمه .

ولما كان موضوع بحثنا يقتضينا أن نذكر طرفاً من ذلك ، آثرنا أن نورد شيئاً من هذا تمشياً مع ضرورة وفاء البحث حقه .

فمما قالوا فى خواص الاسم الكريم ، أنك إذا دعوت الله بالرحمن

فقد وصفته بالرحمة دون القهر ، وإذا دعوته بالعليم ، فقد وصفته بالعلم دون القدرة ، وأما إذا قلت يا ألله ، فقد وصفته بجميع الصفات .

ومنها أنك إذا قلت فى كلمة الشهادة : أشهد أن لا إله إلاالرحمن ، أو إلا الرحيم ، أو إلا الملك ، أو إلا القدوس ، لم يكف ذلك فى دخول الإسلام ، أما إذا قلت : أشهد أن لاإله إلا الله ، فإنه يكفى لاختصاص هذا الإسم بهذه الخاصية الشريفة . ومما قالوه فى خواص حروفه : أن الألف مشتق من الألفة والتأليف ألف الله به جميع خلقه على توحيده ومعرفته بأنه إلههم وموجدهم ، وخالقهم ورازقهم ، قال تعالى « لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ، ولـكن الله ألف بينهم » .

واللام الأولى إشارة إلى الملك ، قال تعالى : « لله ما فى السموات وما فى الأرض » ، وقال : « لله الأمر من قبل ومن بعد » ، وقال « قل لمن ما فى السموات والأرض ؟ قل : لله » . واللام الثانية إشارة إلى لام الملك ؛ قال تعالى : « له الملك لاإله إلاهو » وقال « له ملك السموات والأرض وما بينهما » ، وقال « قوله الحق ، وله الملك » .

والهاء هى هاء الاشارة إلى مطلق وجود الحق ، وإثبات وحدانيته وإحاطته بجميع الأشياء كلها علماً وإرادة وقدرة وملكا ، وذلك بعد حذف الألف واللامين ، قال تعالى : « هو ربى لا إله إلا هو » وقال : « إنما هو إله واحد » وقال « هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم » ، وكثير غيرها من الآيات .



الحمد لله ، قد جعل لنا برهاناً فى أنفسنا نقيمه على صحة وجود الله وإن كنا لا نتصور ذاته . هذا البرهان هى الروح الذى بها نتكلم ونتعقل ونميز ، وهى المخاطبة وهى المكلفة ، ولولاها لكان الإنسان بمنزلة الحيوان بل أضل ، لا ندركها ولا نتصورها ، ولا ندرى أين محلها ولا أين مكانها وهل هى بالقلب أو بالدماغ ، لذلك اختلف العلماء والفلاسفة فلم يخرجوا بشىء واضطربوا كثير الاضطراب والاختلاف ، لا ينشأ كل منهما إلا من الجهالة ، هذه الروح لا يشك إنسان فى وجودها ولا يجحدها أثرها ، وهو لا يعرفها ، فعدم معرفة الشىء لا يقدح فى وجوده ، فكثير من الملاحدة وضعاف العقول يقولون إذا كنا لا نبصر ولا نرى ولا نحس بأى حاسة كيف يكون موجوداً ، وقدحوا فى المجردات الملائكة والجن وقدحوا فى الذات العلية ، وهذا الإنكار وهذا الجحود ناتج من ضعف العقل وتمادى النفس فى رضاها وهذا خدش فى الفطرة السليمة ، فإنه قد فطر فى جميع العقول أن كل أثر لا بد له من مؤثر والحركة تنشأ من محرك بل ركز فى طباع الحيوان هذا المعنى فإنه

يلتفت إذا سمع حركة وبقدر الحركة يتحرك ، فهل يكون الإنسان أقل إدراكا من الحيوان ؟ وبهذه المناسبة نذكر حكاية تعزى لأبي حنيفة وسواء أصحت هذه الرواية أم لم تصح فهي في ذاتها صحيحة : قصد بعض الدهريين أبا حنيفة بسوء ودخلوا عليه ففهم قصدهم وقال : إني محدثكم بحديث غريب وشغلهم بالحديث عن قصدهم فتطلعت النفوس إلى سماعه وأخبرهم بأن رجلا كان في سفينة وقذفته إلى البر ولم يكن لها ربان ولا رئيس بل كانت تسير وحدها وتقف وحدها فاستغربوا من هذا الخبر وقالوا إن هذا الرجل لا شك مجنون فلا بد من ربان يحركها ، فقال إذا كنتم لا تصدقون بأن سفينة تجرى وحدها كيف تنكرون أن للسموات والأفلاك صانعاً يدبرها ويسيرها ، وهل تجرى وحدها بنظام بديع لا يختل . فرجعوا إلى أنفسهم وفكروا وتنبهت مشاعرهم واستيقظت عقولهم ، وقالوا آمنا بالله وحده . فالإيمان بوجود الله دليل على كمال العقل ، وإنكاره دليل على جهالة النفس وغباوتها ونقصان المدارك .
ولقد طغت الفلسفة على بعض العقول السخيفة فظنت أن الجحود دليل على رجاحة العقل واستساغت هذه الحالة وحرمت من نعمة الإيمان . والاعتراف وليس الاعتراف بوجوده عند العقول الكبيرة خوفاً من ناره أو طمعاً في جنته بل الاعتراف منهم يجدونه واجباً لدلالة العقل عند المعترف ، ومن ذا الذي يحب أن يكون ضعيف العقل ؟! على أن عبدة الأوثان والأحجار والشمس والقمر اعترفوا بوجوده وإنما جاءهم

الشرك والكفر من دعوى أن العبادة لها زلفى وقربى للإله وجاء القرآن الكريم مصرحاً بذلك فقال تعالى حاكياً عنهم : «ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى» . وما أعجب من الإنسان ، ولا أشد غرابة منه فبينما تراه يترفع عن السجود لله ويجحد ، إذا هو يتدلى للسجود لحجر أو شجر وما ترقى نوعاً ما . إن لبعض الأشخاص مزية ظهرت على يديه فتغالى واعتقد فيه الألوهية تارة والنبوة تارة . والأدلة قائمة من نفوس هؤلاء على عبوديتها واحتياجها وتنقلها من صغر إلى كبر ، ومن جوع إلى شبع ومن مرض إلى صحة . والإله يجب أن يكون غنياً عن كل ما هو حادث ، فالإله نهاية النهايات ولا مفر ولا محيد عن الاعتراف به . فلو قلنا إن العالم ليس له صانع أشكل علينا بأنه جماد فى الأصل ، وكيف يؤثر الشىء فى نفسه فلا بد له من صانع صنعه مباين لخلقه له بالمرة . فإما أن يستمر هذا الخيال من الآن إلى الأزل ، كانت هذه الموجدات حادثة ، فينتهى الأمر إلى واحد عظيم أحدث هذه الأشياء ، ويرجع الكلام إليه فنقول إنه موجود لا أول له فلم يؤثر فيه الغير ولم يؤثر فى نفسه فإن الشىء لا يؤثر بعضه فى البعض الآخر لاستحالة ذلك والاستحالة بدهية إذ القول بهذا يدل حتما على الأجزاء والتركيب ولا بد للأجزاء من مركب ركبها فيقف العقل باهتاً عند هذه النهاية ، وهى أن الله أثر فى العالم ولم يؤثر فى نفسه ولم يؤثر فيه أحد بل هو موجود بذاته ، وعندئذ يقف العقل باهتاً متحيراً لعدم تعقله ، وعندئذ نقول للعقل سلم لهذه النتيجة

ولا مفر منها ونريحه بأشياء أخرى لا ينكرها وهو عاجز عن معرفتها كالفراغ المحيط بالعالم فإنك لو قدرت العالم بأفلاكه العلوية والسفلية بأضعاف أضعاف ما عليه الآن فلا بد وأن الفراغ قابل العوالم كثيرة ، فما هذا الفراغ المحيط بالعالم فإن كان عدماً كيف يحل الموجود بالعدم؟ وإذا كان جسما فهل للأجسام نهاية أم لا ؟ وهل بعد الفراغ شيء فإذا اختلى المرء بنفسه وسرح فكره فى هذا هل يرجع بشيء يتعقله ؟ كلا إنه لا يرجع ولن يرجع وعندئذ يقف العقل باهتاً متحيراً . فإذا كان الفراغ معجزاً له وهو حادث فكيف بالإله الذى تنتهى عنده الأفكار وتتلاشى العقول فلا بد من التسليم لنتيجة أن الله موجود ولا تدركه العقول ، ولا الأفكار ولا محيد ولا مفر من الاعتراف بوجوده ، وصدق النبى المعصوم صلوات الله وسلامه عليه حيث قال : « إن الله احتجب عن البصائر كما احتجب عن الأبصار وإن الملأ الأعلى ليطلبونه كما تطلبونه أنتم » كذلك يقف العقل متحيراً فى العالم ، وفى مادته وتطورها وأن كل شيء لا يوجد إلا من شيء ، فهل لهذه المادة مادة أم لا ، فإن كان من مادة فالمادة لابد لها من مادة ، فيتسلل الأمر فيكون مستحيلا . إلا أن هذا يمكن أن يتعقله المرء ولا يضطرب فإننا لو قلنا سلمنا للفلاسفة قولهم أنه لا تتكون المادة إلا من شيء وأن هذا صحيح فنقول لهم : إن العالم مواد وهى من شيء وهو الله .

وغاية ما نفهم أن هذه المادة مخلوقة وكيفية صدورها عن مبدعها

مستعص علينا فلا ندركه . لذلك فلنضف هذا إلى الأشياء التى لا ندركها؛ ومن ادعى أننا أدركنا كل شىء فى هذا العالم الفسيح ؟ فمثلا الكهرباء عرفناها وعرفنا فائدتها ونتائجها ولكننا لا ندرك السر فى تفاعلها وتفاعيلها حتى الذين ظفروا بفائدتها واكتشفوا أمرها فما علمناه فى العالم بالنسبة إلى ما جهلناه قليل جداً ، وهذا معنى معترف به عند أعاظم الفلاسفة ، فقد قالوا ما جهلناه أكثر مما علمناه ، والخلاصة أنه يجب على العقل البشرى أن ينظر إلى نفسه وضعفها وأنه جاهل بما فى داخل هيكله ، وما فيه من أسرار وبديع تركيب ، وأن الأعضاء والمعدة تؤدى وظيفتها وهو لا يدرى كيف تحول الطعام إلى دم وما عليه إلا أن يمضغ لها الطعام بواسطة أسنانه ، وهى توزع توزيعاً دقيقاً ، ثم يرى أنه يحس ويبصر ويتلذذ وهو لم يخلق أى شىء فى جميع بدنه ، وهو يفكر ولا يدرى كيف يفكر ، فهل هو على ذلك له تأثير فى أقرب الأشياء إليه ؟ كلا ولم يكن أبواه ولا أجداده ولا أحد من الخلق له تأثير فى هذه البنية وتركيبها وكل المخلوقات كذلك وما المخلوقات إلا متناسلون من نطفة ، والنطفة ليس له مدخل فيها إلا أنه عند التزاوج حدثت منه هذه المادة ، ولم يكونها بل خرجت منه بواسطة الامتزاج ، فمن فعل ذلك وصور الجنين هل الأفلاك وهى مواد لا تفعل ولا تفكر وهى مركبة من أجزاء ليس فيها شىء من الحياة والإدراك إذن فكل المخلوقات لها مبدع وهو الله الذى لا إله إلا هو الحى القيوم ، وكل إنسان يحب الوصول إلى الله ،

ولكن هل له جهة أو مكان ؟ فبطاعتنا وإخلاصنا نصل إليه، كلا ليس لله مكان ولا جهة وإنما الوصول إلى الله إنما هو مسلك النفس فتقطعه بالمعارف على حسب قوة النفس وضعفها فهو طريق روحانى بحت وعروج لا يخرج عن انكشاف الحقائق والتسليم لله والاستغراق فى جلاله وجماله وتدرك الروح عند هذا الترقى معانى وأفهاماً يجهلها الغافل عن الله وكل عارف يتجلى عليه باسم من أسمائه . فيرى أثر ذاك الاسم عليه .



إن العقل السديد يقضى بأن الإله يجب أن يكون عالماً محيطا علمه بكل شيء لا يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء بحيث تنكشف له جميع الأشياء انكشافاً لا يخالطه أدنى خفاء سواء منها ما جل وعظم أو دق وصغر ، وسواء منها ما أحاطته الشمس بلألائها أو ستره الليل البهيم بجنحه (وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين) .

وذلك أن الإله يجب أن يكون كاملا كمالا مطلقاً لا يقف عند حد ولا ينتهى إلى غاية ، وبدهى أن العلم من أكمل الصفات وأجل الاعتبارات فيجب أن يكون ثابتاً للآلهة وفاء بحق الألوهية واعتباراً لما ينبغى أن يكون لها ، وأن ماتراه فى مصبحك وممساك وغدوك ورواحك كله شاهد بما لله جل وعلا من علم تام وكشف محيط بالأشياء . فإن نظاماً كالذى تراه وأعاجيب أفعال تحدث على غاية من الدقة والاتقان ، وأوضاعاً منسقة تنسيقاً بديعاً ، كل أولئك ينادى بعلم الله وإحاطته بكل شيء (لا إله إلا هو وسع كل شيء علما) .

إذا تأملت الإنسان وغريب خلقه فرأيت كيف هو مستوى القامة بادى البشرة متناسب الأعضاء ، له نفس إنسانية مجردة ليست حالة فى البدن ولا خارجة عنه ولكنها متعلقة به تعلق التدبير والتصريف ، وله عقل يعقل به ، ونظر يهديه ، وله رجلان يمشى بهما ، ويدان يبطش بهما وعينان يبصر بهما ، وأذنان يسمع بهما ، وله لسان يبين به حاجاته ويترجم به عن خاطرات نفسه وأنواع إدراكاته .

إذا تأملت الإنسان فرأيت منه ذلك كله علمت أنه لا يقوم له بهذا التركيب العجيب وتلك الخواص البديعة إلا الذى يعلم السر وأخفى وإلا فكيف يؤلف من المادة وما وراء المادة من جعله خليفة فى أرضه ، فاستخدم بعقله الماء والنار والأرض والهواء (إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار) .

نودى فى معاقل الآفاق ، وفجاج الأكوان ، ومعالم المصنوعات : إن سلطان الصفات القديمة ، وملك النعوت العظيمة ، يريد أن يمر على مسالك العوالم ، ويعدو فى مشاهد الشواهد ، فحدقوا عيونكم ، وصفوا سرائركم ، وقيدوا أفكاركم ، وغضوا أبصاركم ، وأحضروا بلاغتكم ، وفكوا مناطقكم ، وألسنتكم ، فتروا من جنان الأسرار ، فتجلى فى حلل لطفه وتلطفه ، ودنا بقربه وتعرفه ، له مطالع ومشارق ، ولوائح وبوارق ، وشواهد ومناطق ، ومعارف وحقائق ، وعوارف ومناشق تجلو مطالعه « الرَّحْمٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ اسْتَوَى » ، وتسفر مشارقه (وَسِعَ كُرْسِيُّهُ

السموات والأرض » ، وتوضح لوائحه « يَدَاهُ مَبْسُوطَتَان » ، وتكشف بوارقه « وهُوَ مَعَكُم » ، وتبدى شواهده « والسموات مَطْوِيّاتٌ بيمينه » وتفصح مناطقه « واللهُ مِنْ وَرَائهم مُحيط » ، وتنادى معارفه « وَهُوَ السَّميعُ البَصير » ، وتنطق حقائقه « لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّميعُ البَصير » ، وتشهد عوارفه « لا تدركُهُ الأبصار وهو يدركُ الأبصار » ، وتتأرجح مناشقه « قُل الله ؛ ثُمَّ ذَرْهُم فى خَوْضهم يلعبُون » ، فظهرت بدائع صنائع القدم فى أحسن صورة ، من بهجة الكمال البارز ، من حريم العزة ، عليها ملابس الجمال غرائب العجائب « فَطَافَ عَلَيْهَا طائفٌ منْ رَبِّكَ » ، فى طرائق الملكوت ، ومصنوعات المصنوعات ، ومكنون الكائنات ، فوقع الكل فى مهاوى البهتة ، وتاهوا فى مهامه الدهشة ، وإذا النداء من حضرة القدس : « ألست بربكم ؟ » قالوا بلسان الذل والخضوع ، فى مقام الإقرار بالوحدانية الإلهية : بلى : وأشهدهم على أنفسهم بقيام الحجة « يوم تَشْهدُ عليهم ألْسنتهم » ، فتبع الخلائق ، ذلك البارق وسلكوا نحوه طوائف ، فاقتفى قوم آثاره ، فلم يستضيئوا هدى من علمه ، ولا آثاره ، بل حكموا العقول ومقاييسها ، واتبعوا الأهواء وأباليسها ، تلك طائفة ضلوا فى تيه التمويه ، ووقعوا فى التجسيم والتشبيه ، فأولئك الذين أهلكهم الشقاء حين ابتلى أخبارهم « أولئكَ الذينَ لَعَنَهم اللهُ فأصَمّهم وأعمى أبصارهم » .

اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ

إذا سار سائر فى أرض مظلمة ، لادليل له ، ولاهادى يرشده ، ولامصباح يهديه ، فخليق به أن ينقطع به السبيل ، ويتعثر فى مهامه الأرض ، ويكون عرضة للأفاعى والهوام والسباع والحشرات تنوشه وتؤذيه ، فيسقط دون الغاية ، أو يذهب ضحية الضلالة والغواية . مثل هذا السائر الضليل كمثل رجل أخطأه التوفيق فسار فى حياته لايلوى على شىء ، ولاهمّ له إلا اتباع شهواته ، والانقياد لهواه ، لايسير على هدى ، ولايستنير بدين ، ولاوازع له من شرف أو ضمير ، فلا يزال يتخبط فى ضلاله . ويؤذى نفسه وغيره بطيشه وخباله ، حتى يسقط صريعاً غوياً ، مرذولا عصياً ، فيعيش فى الدنيا ساقط المروءة ، ويذهب إلى الآخرة سيىء العاقبة والمصير (إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فى ضَلَالٍ وَسعر ، يَوْمَ يُسْحَبُونَ فى النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ، ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ) . أمامن وفقه الله وهداه ، فأرضاه وارتضاه ، وهذبه بدينه ورباه ، فذلك الذى سطع نور الله فى قلبه فعمره ، فحيث سار أو درج رأى جلال خالقه ، وخاف مقام ربه ، فطهرت من السوء نفسه ، وامتلأتِ الدنيا بخيره ورشده فإذا هو فى دنياه عظيم السناء عاطر الثناء ، شامخ البناء ، كامل الهناءة والصفاء ، ثم هو فى الأخرى موفور الجزاء ، متمتع من ربه جل شأنه بالسعادة

والرضاء . فانظروا أيها المسلمون فى ملكوت السموات والأرض ، وفكروا فى شئونكم ، وافتحوا لنور الله قلوبكم ، حتى تروا آثار رحمة الله ، ومظاهر قدرته ، فتهتدوا بهداه وتعملوا دائماً ما يرضاه ؛ وتكفوا عما لا يرضاه ، وأشعروا قلوبكم خوفه فرأس الحكمة مخافة الله .

إذا هممت بأمر	فاصبر قليلا وفكر
واذكر إلهك واحذر	من بطشه ثم كبر
فإن رأيت جميلا	فاعمل وللخير بكر
والشر لا تقربنه	وانه الفؤاد وأنذر
فخشية الله نور	يجلو النهى ويطهر

كلمة الله هي العليا

كيف لا . ، وهى كلمة رب العالمين . كلمة العزيز الحكيم .

يمكن البحث عن الصوت والحرف وكيفية تكونهما من تموج الهواء المنضغط عند إخراج النفس من داخل الصدر إلى الخارج وحبس الإنسان إياه فى المحابس المعينة (أى المخارج) وبإزالة ذلك الحبس ، فتتولد الحروف ، ويمكن البحث عن الكلمة من جهة الاشتقاق ونوعه ، وإن تركيب الكاف واللام والميم بحسب تصريفاتها الممكنة تفيد القوة والشدة ومنه الكلام لأنه يقرع السمع ويؤثر فيه ، ويؤثر فى الذهن بواسطة إفادة المعنى المروم ، وكذلك يمكن البحث عن الحكمة فى وضع الألفاظ للمعانى وهى أن الإنسان خلق غير مستطيع أن يستقل بتحصيل جميع مهماته ، فاحتاج إلى أن يُعَرِّفَ غيره مافى ضميره ليمكنه الاستعانة به ولابد لهذا التعريف من وسائط ، والوسائط كثيرة مثل الكتابة والإشارة والتصفيق باليد والحركة بسائر الأعضاء ، إلا أن أسهلها وأحسنها هو تعريف مافى القلوب بهذه الألفاظ ، فإن النَّفَسَ عند الإخراج سبب لحدوث الصوت ، والأصوات عند تقطيعاتها أسباب لحدوث الحروف المختلفة ، فتحصل من غير كلفة ولااحتياج لمعونة ، بخلاف الكتابة والإشارة وغيرهما ، ولأن هذه الأصوات كما توجد

تفنى فى الحال ، فعند الاحتياج واللزوم تحصل ، وعند زوال الحاجة تضمحل . . . ولم أقصد كل هذه الأبحاث ، بل إن غرضى أن أقول أن لفظ الكلمة جاء فى القرآن لمفهومين آخرين الأول أنه يقال : عيسى كلمة الله ، إما لأنه حدث بقوله : كن ، أو لأنه حدث فى ظرف قليل من الزمن كما تحدث الكلمة ، والثانى إن الله تعالى سمى أفعاله كلمات قال : ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ ﴾ . الآية . والسبب فى هذا أيضاً الوجهان المذكوران آنفاً . كان الله ولم يكن معه شىء ؛ وكان كل شىء فى العدم ، فأراد الله سبحانه إيجاد العالم من العدم فقال : كن . فوجد العالم كما أراد على أبدع شكل ووضع نواميس وسننا يحير العقول إدراك آثارها ولا تتغير : كلمة الله هى العليا : ثم خلق آدم فى أحسن تقويم وعلمه الأسماء وأسجد له الملائكة فسجدوا إلا إبليس قال أنا خير منه ، فحبط عمله من قبل فصار رجيما : كلمة الله هى العليا .

أرسل نوحاً عليه السلام ودعا قومه فلم يؤمن به إلا من ذكر فى القرآن ، فأرسل الطوفان وأنجى من فى السفينة وأغرق الآخرين : كلمة الله هى العليا .

ثم دعا هود عليه السلام قومه عاداً فلم يؤمنوا ولم يخافوا عذاب الله وقالوا من أشد منا قوة فأهلكهم بريح صرصر عاتية : كلمة الله هى العليا !

وجاء صالح عليه السلام إلى ثمود فعتوا عن أمر ربهم فأهلكهم

بصيحة ولم تغنهم عنها بيوتهم المنحوتة من الجبال فإلى يومنا هذا صارت عبرة : كلمة الله هى العليا !

وَأُلْقِيَ إبراهيم عليه السلام ، فى النار حينما جعل الأصنام جذاذاً فقال الله ﴿يانار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم﴾ ونجاه من النار وأهلك عدوه ، كما جعل ديار قوم لوط عاليها سافلها وأمطر عليهم حجارة من سجيل : كلمة الله هى العليا !

وهذا موسى عليه السلام . كان فرعون يدعى الألوهية ويقتل أبناء بنى إسرائيل ومع ذلك التقطه ورباه فلما أرسله الله إليه ودعاه إلى الإيمان كابر بعدما رأى الآيات العديدة فأخرجه الله مع قومه من مصر وأغرقهم فى البحر ونجى موسى ومن معه : كلمة الله هى العليا !

ثم أرسل عيسى صلوات الله على نبينا وعليه فأراد اليهود قتله فشبه عليهم وماقتلوه وماصلبوه بل رفعه الله إليه : كلمة الله هى العليا !

الإيمان بالله

منينا فى هذه العصور التى يجدر بنا أن نسميها عصور الزور والإثم والفجور بقوم ينسبون إلى العلم مايتبرأ منه العلم ، فيعارضون كل شيء جاءت به الديانات بحجة أن العلم يأباه وقد وثق بهم كثير من الناس لما بهرهم من آثار ذلك العلم المادى التى تسبي الأنظار وتدهش الأفكار ، فظنوا أن كل مايقولون من جنس هذه المنظورات وأن لهم من التجديد فى المعقولات مالهم من التجديد فى المخترعات ، ولكن فاتهم أن هؤلاء المتفيهقين المتحاملين على الأديان إنما برزوا فى المحسوسات لا فى المعقولات وفى علوم الطبيعة لا فيما وراء الطبيعة ، ولما لم يمكنهم أن يكذبوا على علم الطبيعة فى المحسوس كذبوا عليه فى المعقول ، فكانوا كالمدلس الذى لاضمير له أو لا منطق له ، فهو يخلط الحق بالباطل والصحيح بالعاطل فخانوا العلم وغشوا الناس جهلا بالدين وبغضاً فيه وتحاملا عليه ، مع ملاحظة أنهم ليسوا أهل منطق ولا استدلال ، وليس لديهم غير ذلك التمويه الباطل وتلك الثرثرة الفارغة التى ليس فيها ظل من برهان ولا إثارة من علم ، وكثيراً مايشتبه عليهم القياس الفاسد بالقياس

الصحيح والتخمين باليقين والاستحسان بالبرهان ، وكثيراً ما تكون المسائل هناك فى محل الفرض أو الأخذ والرد فيحسبونها علماً وهى فى أول مرحلة من مراحل البحث العلى ، وطالما تناقضوا — والمبطل لابد أن يتناقض — فبينماهم يقررون أنهم متمسكون بالمحسوس ولايقولون بغير ما وقع عليه العيان إذ تراهم يخبطون خبط عشواء فى ظلمات الأوهام متخطين تلك الحدود التى رسموها لأنفسهم إلى حضيض الخيال والتظنن والتخرص ، على أن الملحدين عندنا أجهل وأقل من أن يقال إن لهم شيئاً يتقدم به العلم المحسوس أو المعقول ، وأصغر من أن يكون لهم فيه ظن أو استحسان وإنما هم أذيال لأولئك المادين المتعصبين الجاهلين كالمنافق الغُمر الذى يقول : سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته . فهؤلاء لايعدون من رجال العلم وإنما يعدون من صبية ملاحدة الغرب الذين يصفقون لهم كلما سمعوا شيئاً من الترهات أو الخرافات (والمصفق يصم الآذان ولايعرف البرهان) ولنسق إليك بيان علم الطبيعة وحدوده التى يقف عندها ولايخرج عنها لتعلم أن هناك كما مرقوا من الذين مرقوا من العلم وكابرتوا من الصدق برئوا من المنطق وكما قتلوا ضمائرهم أرادوا أن يقتلوا الحق أيضاً فنقول :

إن علم الطبيعة علم تعرف به علاقات الأشياء بعضها ببعض ولابحث له عما وراء ذلك فإذا سألته عن حقيقة الأشياء أو عن أوائلها ومصيرها أجابك : ذلك خارج من حدودى وليس من اختصاصى .

فالطبيعى إنما يبحث عن الطبيعة وظواهرها بعد وجودها وتحققها لاقبل وجودها وظهور مقتضياتها كما لايبحث له عمن أوجدها ولا لماذا أوجدت فيها تلك الظواهر ولا كيف أودعت فيها تلك الخواص .

فعلم الطبيعة يعرفنا مثلا أن جزءاً من الاوكسجين وجزأين من الإيدروجين تكون ماء ولكن كيف كون هذان العنصران ماء مع أن الاوكسجين عنصر محرق متى لقيه شىء قابل للالتهاب التهب ، والإيدروجين عنصر لايعيش فيه الحيوان وكذا الأزوت الداخل فى تركيب الهواء بنسبة ٧٩٪ ، فكيف كونا ماء أو هواء تكون به الحياة وأحدهما محرق والآخر مميت ، إذا سألته هذا السؤال أجابك أنه عاجز عن تعليل ذلك وإن هو إلا علم تجربة فقط فما أدت إليه التجربة العملية جعله قانوناً من قوانينه ، وإن كان لايعرف لماذا كان ولا كيف كان فضلا عن أن يعرف أول الأشياء وآخرها أو كنهها وحقيقتها ، ولديك هذا الغذاء تعرف من أحواله أن يهضم فى الفم هضما أولا ثم يهضم فى المعدة هضما ثانياً وتعرف أن فى المعدة عصارة تساعد على الهضم ثم يخرج منها إلى الأمعاء الدقائق فيهضم فيها هضما ثالثاً ويساعد على ذلك العصارة البنكرياسية التى أوجد لها الحكيم العليم تلك الغدّة التى تفرزها ويساعد عليها أيضاً الصفراء التى تفرزها الكبد إلى آخر ماهو معروف ، ولكن كيف تمثل ذلك الغذاء عيناً وفماً ويداً ورجلا ومخاً مدركاً الخ . . .

أو تقول كيف تمثلت تلك الأصناف التى تأكلها من البقول والخضروات

والفواكه الخ إنساناً سميعاً بصيراً عالماً متكلما ؟ إذا قلت للطبعى كيف صارت هذه الأشياء إنساناً ؟ ولو حدثنا أحد بذلك ماصدقناه لولا أننا نرى الأمر عياناً فى كل وقت أو قلت له : كيف انقلب هذا التراب زرعاً وزيتوناً ونخيلا وأعناباً وثمرات مختلفة الأشكال والطعوم والألوان ؟ لو سألته مثل هذه الأسئلة لأجابك إنى لاأعرف لذلك سراً ولاأفهم له معنى ، ولكنى أقرر لك ماأثبتته المشاهدة وأوصلتنى إليه التجربة فأماماوراء ذلك فليس من علمى ولاهوداخل تحت اختصاصى ، ولذلك قال سبنسر الفيلسوف الانجليزى الكبير « ليس الغرض من تعلم علم الطبيعة معرفة هذه الظواهر التى يعرفها تلامذة المدارس وإنما الغرض الأسمى أن نقف على ذلك السر الباهر من وراء تلك الحدود التى ينتهى إليها علم الطبيعة ، وقال باكون وهو أستاذ أساتذة علم الطبيعة : «من أخذ علم الطبيعة رشفاً بالشفاه كان ملحداً ومن شربه عباً أوصله إلى الخالق . وفى (سبيل السعادة) نقلا عن (مجلة الحياة) هذه العبارة الطريفة « جاء فى أعداد المجلة الطبية الباريسية هذه الجملة (ليست الفكرة الواحدة إلا اتحاداً يشبه اتحاد حمض الفسفوريك والتفكر نفسه ناتج من الفسفور الذى هو فى تركيب المخ) فرد عليها العلامة الطبعى الشهير كاميل فلامريون قائلا : « من أخبركم بذلك ياحضرات المحررين ؟ إن الناس يتوهمون أن معلميكم يعلمونكم هذه الهذيانات مع أن الأمر بخلاف ذلك لأن هذه الإدعاءات ليست أمام النظر العلمى إلا هباءً منثوراً ، على

أنى لاأدرى أى الأمرين يستحق أن نتعجب منه أكثر ، أمن الجسارة الصادرة من هؤلاء الممثلين العجيبين للعلم أم من سخافة ادعاءاتهم ، إن (نيوتن) كان يقول (يظهر لى) ، (وديكارت) كان يقول (إنى أستنزل حلمكم فى هذه الفروض) ولكن هؤلاء يقولون : نحن نثبت ، نحن ننكر ، هذا موجود ، هذا غيرموجود . العلم قد حكم . العلم قد أقر العلم قد أدحض . مع أنه ليس فيما يقولون ظل من البرهان العلمى إلى أن قال : إنكم تتجاسرون أن تعزوا إلى العلم هذا العبء الثقيل ولكن العلم أيها السادة — ويجب أن يسمعكم لأنكم من أبنائه — لضحك استهزاءاً من غروركم إنكم تقولون : العلم يثبت . العلم ينفى . العلم يأمر . العلم ينهى . وبذلك فأنتم تضعون على شفتى هذا العلم المسكين هذه الكلمات الضخمة وتدخلون إلى فؤاده هزة الكبر والعجب ، اه كلامه . فأنت ترى مكان تلك الطنطنة الفارغة أمام الفلسفة الصحيحة والعلوم الحقة التى يعرفها (كاميل فلامريون وأمثاله) . وقال البحاثة الكبير (توماس كارليل) فى هؤلاء المتشدقين الذين ضغطوا على وجدانهم حتى قتلوه وعلى عقولهم حتى أزهقوها ثم دفنوها فى مقبرة المحسوسات .

قال إنهم يحصرون هذا الكون وما به من شتى المناظر والأشكال والأصوات والحركات العديمة العدد والنجوم والغيوم والقفار والبحار فى اسم مركب من بضعة أحرف (طبيعة) فيطوون جلاله العظيم فى أثناء لفظ حقير . إن للكون لروعة فى القلب أى روعة وموقعاً أى موقع

لو ظهر عارياً من تلك الحجب التى غطت جماله ورونقه إلى أن قال :
« أما ظاهر الكون فقد عرف العالم عنه شيئاً ، وأما الباطن فهو سر عميق
لا ينفع معه علم عالم ولا تجربة كيماوى ، إنما أولى بالمرء فى هذا المقام
الإذعان والخشوع ، وللجهل هنا أفيد من العلم وما يستفيده المتوحش
الجاهل من جمال الطبيعة بشعوره أكثر مما يكتسبه المتمدين العالم بمنظاره
وكيميائه » إلى إن قال « صنع العلماء فى أسرار الكون الرائع الذى
يتضاءل العلم فى حضرته ويذل لعزته وعظمته ويطفو على موجة المتلاطم
كريشة فى مهب الريح » إلى أن قال « إن هذا الكون على رغم العلم ودعواه
لا يزال عجيبة العجائب ومعجزة المعجزات » . ثم قال « أليس أقصى
ما نستطيع أن نعلم عنه أنه قوة مركبة من ألف ألف قوة وأنه شىء ونحن
شىء آخر فهذا كل ما يمكننا معرفته ، الكون شىء ونحن شىء غيره
قوة فى قوة فى قوة فحيثما ألقيت البصر ألفيت قوة ونحن بين هذه القوى
المختلفة قوة مجهولة خفية » ثم يقول : « لا أخال أنه يجتمع الإلحاد
والتفكير فى هذه القوى الفعالة الذاتيـة المحدقة بنا والتى لا تكل ولا تنى
ولا تفتر ولا نعرف لها أولا ولا آخراً ولا مبدأ ولا نهاية » (فقضى على
الملحدين أنهم غير مفكرين) إلى أن قال : « ثم يجىء العلم بمنظاره وآلاته
فيجعل يقلبها ويديرها كأنما هى جثة ميتة توضع فى الزجاجات وتباع
فى الحوانيت » . إلى آخر ما قال ، وقال العلامة الطبيعى الإنجليزى (ميلين
إدوارد) يجب أن يدهش الإنسان حينما يرى أن أمام هذه المشاهدات

الناطقة المتكررة رجالا يدعون لك أن كل هذه العجائب الكونية ليست إلا نتائج المصادفة أو بعبارة أخرى نتائج الخواص العامة للمادة وأثراً لتلك الطبيعة التي تكون مادة الخشب ومادة الأحجار وأن الهامات النمل بل أسمى مدركات القوة الإنسانية ليست إلا نتيجة عمل القوى الطبيعية أو الكيمائية . إن هذه الفروض الباطلة أو بالأحرى هذه الأضاليل العقلية التي يسترونها باسم العلم الحسي قد أدحضها العلم الصحيح إدحاضاً ، فإن الطبيعي لا يستطيع أن يعتقدها أبداً ، وإذا أطل الإنسان على وكر من أوكار بعض الحشرات الضعيفة يسمع بغاية الجلاء والوضوح صوت العناية الإلهية ترشد مخلوقاتها إلى أصول أعمالها اليومية » ، ثم نقول لهم بعد ذلك على سبيل التنازل هل عدم الدليل يدل على عدم المدلول وهل عدم العلم بالشيء يوجب العلم بعدم الشيء ؟ أما كنا نجهل الميكروبات والكهرباء ومكثنا على ذلك ألوف السنين فهل نستنتج من ذلك عدمهما في الواقع ، وكذلك الراديوم مثلا لم يعرف إلا منذ عهد قريب فهل كان معدوماً قبل أن تستكشفه تلك السيدة التي أبرزته إلى عالم الظهور ، وأي فرق إذن بينكم وبين زنوج أفريقية المتوحشين الذين ينكرون مرقم الخطاب الجوي (التلغراف اللاسلكي) مثلا لعدم علمهم به وتصورهم إياه . اللهم إنا نرفع الصوت عالياً بأنكم في إنكار الأشياء حتى تروها بأعينكم مثل أولئك الزنوج لا فرق بينكم وبينهم فإن حجتكم هي حجتهم وما تستندون إليه عين ما يستندون إليه ، وكان

ينبغى أن تربأوا بأنفسكم عن تلك المخجلات وترتفعوا بها عن ذلك المستوى الذى فيه أولئك الهمجيون المتوحشون ، بل نقول لهم أكثر من هذا ولانخشى فى الحق لومة لائم إن الوقوف مع الحس وعدم تخطيه إنما هو شأن البهائم التى لاتعرف غير المحسوس ولا يمكنها أن ترتقى إلى مافوقه فهذه فلسفة بهيمية لاإنسانية ، ثم نقول بعدذلك إن العلم الذى يستندون إليه كثيراً ماينقض اليوم ماقرره بالأمس ، فقل لى بعيشك أى ثقة تبقى لهذا العلم بعد ذلك ؟ وأى علم هو ذلك الذى يوجب هذا التبجح وتلك الكبرياء التى جعلتهم يحكمون على السموات والأرض ويخرجون على الله ورسوله وينفون جازمين ويثبتون موقنين وكلما عرتهم مشكلة فى الكون حلوها بعبارة فارغة لامعنى لها عند من لا يقدسهم ولايهابهم وما أجدرنا أن نقول لمن يتفلسف ذلك التفلسف الفارغ الذى عرفت قيمته ماقال بعض الفضلاء :

يا من تفلسف كى يؤيد كفره
مع أنه لم يدر كنه وجوده
خسرت بسوق الفضل صفقة جاهل
تخذ العلوم ذريعة لجحوده

ولنذكر لك بعد هذا شيئاً من الأدلة الواضحة القريبة التى يطرب بها أهل الوجدان ويشهد لها أرباب صناعة البرهان فنقول :

أدلة واضحة :

كان ينبغى ألا يختلف الناس فى هذه العقيدة لأن دلالة الأثر على المؤثر والنظام على المنظم والفعل المحكم على الحكيم بدهية ، بل قالوا إن ذلك مما يدركه الحيوان فضلا عن الإنسان فإنك إذا ضربت الحمار مثلا التفت ليرى من ضربه لأنه مركوز فى فطرته أن الأثر لايكون بلامؤثر والفعل لا يكون بلا فاعل . فإذا رأيت كلمة مركبة من ثلاثة أحرف لم تشك فى أن كاتباً كتبها ، وإن رأيت ساعة تشير إلى الأوقات أيقنت أن لها صانعاً رتب أجزاءها وأعدها لتلك الغاية ، وما مثل من ينكر الخالق وهو أظهر من الشمس (لأن وجود الأثر فى نظر العقول ليس أقوى ولا أجلى من وجود المؤثر) إلا كمن رأى خزان أسوان بالقطر المصرى ، أو برج إيفل بفرنسا فقال : إن ذلك على فخامته وضخامته لايحتاج إلى مهندس ولا صانع ، أو كمن رأى كتاباً بديعاً فى مبانيه بليغاً فى معانيه وفيه من الفلسفة العالية والأفكار السياسية مايفوق أفكار أفلاطون وفلسفة أرسطو . ومن الأدب الرائع والشعر البارع مايسمو على شعر المتنبي وأدب أبي العلاء ، فلما نظر فيه عبس وبسر وفكر وقدر ثم قال : ماهذا الكتاب إلا أوراق كانت فى صندوق وكان معها شىء من حروف الطباعة ثم هز الصندوق هزات متوالية فعملت حروف الطباعة فى الأوراق عملها فوجد ذلك الكتاب على ماترون ، فهل ترمى

صاحب تلك الفلسفة بالجنون ، وإذا كنت لا تسلم أن ساعة توجد بلا صانع وأن باخرة توجد بلا مهندس ، بل لا تسلم أن كلمة صغيرة توجد بلا كاتب ، فكيف تسلم أن هذا الكون العظيم الذى يبهر العقول ويحير الألباب قد وجد بلا موجد ونظم بلا منظم ؟ وكان كل مافيه من نجوم وغيوم وقفار وبحار وليل ونهار وظلمات وأنوار وأشجار وأزهار وشموس وأقمار إلى أنواع لا يحصيها العد ولا يأتى عليها الحصر ؟ قد وجدت بلا موجد يخرجها من العدم وينوعها إلى مالا يحصى من الأنواع ويمتعها بما شاء من الخصائص المختلفة والمزايا المتباينة والصفات المتقابلة علماً منه مايترتب على ذلك من الغايات وماله من جليل الثمرات ثم يحفظها بما أودع فيها وماهيأ لها وماأوجد بينها وبين غيرها من العلاقات والروابط التى ربطت العالم العلوى بالعالم السفلى وجعلتهما جميعاً يؤلفان نظاماً واحداً يرمى إلى غاية واحدة فكأن العوالم كلها فى ترابطها وتضامنها أو تقول فى تجاذبها وتضافرها على مقصد واحد تؤلف بيتاً أحكمه بانيه ، فلست ترى شيئاً صغيراً أو كبيراً إلا لغرض سام وحكمة جليلة ، أوكأنها جسم واحد قد تعاونت أعضاؤه وتضافرت أجزاؤه وإذا نظرت إلى كل جزء من أجزائه بهرك مافيه من حكم وأسرار ومانيط به من منافع وآثار ، فإذا نظرت إلى ما بين تلك الأجزاء من العلاقات ومافيها من الدقائق الخفيات والمناسبات المدهشات ورأيتها متآخذة يمسك كل منها بحجزة الآخر وهى مسوقة للسير الدائم لا تفتر ولا تنى ولا تعرف الهدوء

ولا السكون ، علمت أن لها مدبراً دبرها ومقدراً قدرها وحكيما سيرها وقيوماً يكلؤها بعينه التى لاتنام وقدرته التى لاترام ، وقد قال بعض الفلاسفة يكفينى من الدلالة على الله وجود الأنثى بجانب الذكر ، فهل علمت الطبيعة أن النوع لايبقى ولايحفظ إلا بوجود المرأة فأوجدتها وغايرت بينها وبين الرجل وأعدتها لما يراد منها فخلقت لها الرحم والمهبل ومتعتها بما يجذب الرجل إليها من صفات الجمال حتى فى صوتها ، ومنحتها مايحتاج إليه طفلها الصغير . هذا معنى ما قال وهو يشبه ماقال أفلاطون « يكفينا مافى العين من التدبير الذى جعلها فى مكان من الحجاج وجعل لها الحاجب ليقيها من العرق أن يتساقط فيها والهدب ليقيها الغبار ولايمنعها الضوء » . وقد قال (فولتير) وهو من أكبر الفرنسيين : « من قال إن طبقات العين العجيبة التى تدل كل واحدة منها على حكمة سامية قد وجدت بالمصادفة كان مصاباً بأفظع أنواع الجنون التى تلم بنوع الإنسان » وقال بعض فلاسفة اليونان لرجل يقول إنى معجب بفلان المصور الذى يخرج لنا تلك الصور البديعة قال له ذلك الفيلسوف (وأظنه أفلاطون) من الذى يستحق الإعجاب أكثر ؟ من يصور صورة لاروح فيها أم من يصور صورة فيها روح ، وإن شئت بعد ذلك فانظر إلى الإنسان ومافيه من العجائب فنظرك فيه يكفيك « وفى أنفسكم أفلا تبصرون » ولسنا ننهج بك نهج الفلاسفة الذين يقولون إن كل شىء ممكن وكل ممكن لاشىء له من ذاته فلابد من مرجح يرجح وجوده على

عدمه ويعطيه مقداره الخاص به الذى كان يجوز أن يكون أصغر منه أو أكبر ويمنحه كل الصفات القائمة به التى تجوز عليه هى ومقابلاتها حيث أن الجميع جائز عليه ، فلا بدمن مرجح يجعله متمتعاً بتلك الصفات المخصوصة دون غيرها وواقفاً عند ذلك الحد منها دون مافوقه ومادونه ولكن نسلك بك طريقا أوضح ومهيعاً أوسع ونريك الأمر مفصلا ودقائق الصنع واضحة جلية حتى تكون لمس اليد ورأى العين فنقول قبل كل شىء : إن المادة ليس فيها حياة ولا إدراك ومن البدهى أن فاقد الشىء لايعطيه فلا يمكنها أن تعطى عبدها ماليس عندها ، وقد أحسوا ذلك فاعترفوا بأنهم عاجزون عن تعليل الحياة بالتعاليل الطبيعية ، أما المكابرون منهم فيقولون : إنها فلتة من فلتات الطبيعة . ولا ندرى مامعنى ذلك وكيف يعقلونه وهل فلتة الطبيعة تجوز أن يوجد معلول بلا علة ومسبب بلا سبب ؟ إن ذلك غير معقول ، فالحياة وحدها كافية فى إفحامهم فضلا عن الإدراك السامى والعلم الواسع اللذين لاتملكهما المادة لنفسها على أن المادة وخصائصها لايعقل أن تكون إلا من غيرها لامنها (أم خلِقوا من غير شىء أم هم الخالقون) على أن المادة لايظهر عنها إلا مقتضاها . أما اجتماعها مع غيرها واتفاقها هى وسواها على أن توجد أشياء مرتبة وأموراً مدبرة منظمة تشتمل على حِكم كبيرة وترمى إلى غايات بعيدة فما لايعقل فيها بوجه من الوجوه ، وهل يعقل أن العناصر التى تتألف منها اليد والرجل والمعدة والأمعاء والقلب والكبد والمخ

أرسل بعضها إلى بعض من أجل أن تجتمع ثم توزع العمل فيؤلف بعضها قلباً وبعضها كبداً وبعضها عيناً وبعضها فى المرأة رحماً إلخ ، وهل علمت بيضة الصقر أنه يتغذى باللحوم فهيأته لذلك بخلاف بيضة العصفور والدجاجة مثلا ، فإذا قلنا أن المادة تفعل مقتضاها على حسب ما أودع الله فيها من الخصائص فهل يمكنها أن تنتج كائناً حياً سميعاً بصيراً ؟ وهل يمكنها أن تدبر الأشياء تدبيراً حكيما بحيث يكون فى موضعه اللائق به ولغايته المقصودة منه ؟ وإذا كان لها سلطان على نفسها وظواهر من ذاتها فكيف يكون لها السلطان على غيرها حتى تأتى معها وتنوطه بعمل خاص لغرض خاص . . إن ذلك غير معقول ولا مفهوم ، فهل علمت المادة أنه لابد لك من عين تبصر بها وأنه لابد لها من طبقات مختلفة فى الشكل والتركيب وأنه لابد لها من صيانتها لما فيها من مزيد الرقة واللطافة فجعلتها فى حجاج العين وحاطتها بتلك العظام الصلبة وهذا الغطاء الذى يشتمل على الجفن والهدب وعلى ذلك الحاجب الأعلى إلى آخر مالا يمكننا شرحه ولا الخوض فيه . وماذا يكون الحال لو كانت هذه العين فى الرّجل أو تحت الإبط مثلا ؟ ثم نقول هل علمت الطبيعة أنه لابد لك من أكل وشرب فصنعت لك الفم وجعلت فيه الأسنان والأضراس مشكلة بأشكال مختلفة لحكم جليلة ، ثم جعلت له غطاء من الشفتين والأشداق ثم علمت أن الغذاء لا يمكنك بلعه إلا بسائل تسيغه به فخلقت لك الريق وركبته من تلك العناصر التى تفيد فى هضم الطعام

ثم جعلت لك منفذين : منفذاً للنفس ومنفذاً للطعام والشراب ، ثم احتاطت فجعلت لك غطاء يغطى به مجرى النفس عند البلع خوفاً من أن تدخله اللقمة فتموت ، ثم جعلت لك ذلك اللسان الذى لاتحصى عجائبه ولاتعد فوائده ، ثم جعلت لك معدة مركبة تركيباً خاصاً لكى تفرز تلك العصارة المعدية ، ثم جعلت لك أمعاء يتم فيها الهضم الثالث ودبرت لذلك تدبيراً حكيما فأعانتها بالعصارة البنكرياسية وبالصفراء التى تفرزها الكبد ثم ترسلها إليها عندا الحاجة ثم خلقت لك الكلى التى تفرز البول وهيأت له السبيل ، فقل لى بعيشك كيف يكون إذا لم يدبر للغذاء سبيل الخروج كما دبر له سبيل الدخول ، وكيف يكون الحال إذا لم توجد فيك تلك المفاصل وماذا كنت تصنع عند القيام أو الرقاد أو الجلوس ، وإلى أى حد من المشقة والضيق كنت تصل إذا لم يخلق لك ذلك الأنف الذى تتنفس منه وتستنشق منه الهواء صافيا خالياً من التراب والغبار بواسطة ما أودع الله فيه من تلك المصفاة العجيبة البديعة ؟ وماذا كنت صانعاً لو خلقت بلا يدين أو خلقت اليد بلا مفاصل تمكنها من الحركات المختلفة إلى الجهات المختلفة أو خلقت اليد بلا كف ولا أصابع أوخلقت الأصابع بلا أنامل ولا أظافر إلى آخر مايطول الكلام فيه ، ولانستطيع أن نصل إلى باطنه وخوافيه غير أن نقول بالإجمال : إن الذى وضع فيك الرئتين لإصلاح الدم ووضع فيك القلب بشكله المخصوص وتقسيمه إلى الأذين الأيمن والأذين الأيسر والبطين الأيمن والبطين الأيسر

ومادبر لذلك من تلك المجارى التى تحمل الدم الصالح المسماة بالشرايين وهاتيك المجارى الأخرى التى تحمل الدم الفاسد المسماة بأوردة ، وأوجد تلك الصمامات المختلفة إلى آخر ماأدهش علماء الفزيولوجيا ، إن الذى فعل ذلك وأضعافه وأضعاف أضعافه لجدير أن يعرف ولاينكر ويشكر ولا يكفر .

إن الطبيعة لايمكنها التفنن فى العمل ولا أن تلاحظ المقاصد والغايات فتدبرها تدبيراً وتقدر وسائلها تقديراً ، ولكننا نرى فى الجسم الإنسانى من الأشكال والألوان والصنائع والتدبيرات أفانين وأعاجيب فنجد نصفه الأعلى يغاير نصفه الأسفل ، ورأسه يغاير بدنه ، وكل عضو فيه يباين الآخر وما من عظم صغير أو كبير ولا عصب ولا وريد ولاشريان إلا قد وجد لحكمة كبرى ، ولو زاد عن مقداره الذى هو عليه أو نقص عنه أو تغير موضعه لاختل نظام الجسم حتى الشرايين الشعرية التى هى كالشعر أو أدق منه بكثير كل واحد منها لحكمة كبرى ، ولو زال عن محله أو زاد عن مقداره لفسدت الصحة واختل مزاج البدن . ولتعلم أن الأشياء الطبيعية لايعجز عنها الإنسان بعدما عرف ظواهر الطبيعة ومقتضياتها وتحليل المادة وعناصرها وقوانين المزج والاتحاد ، وأحكام الجوامد والسوائل والغازات ، ولذلك تراهم يخترعون لنا من الآلات على مقتضى تلك الظواهر مانشاهده كل يوم ، ولكن ليس فى إمكان الطبيعة أن تنظم وتدبر . ولا فى إمكان الطبيعيين

— وقد عرفوا عناصر الأحياء — أن يوجدوا لنا إنساناً حياً أو عضواً
حياً مع أن الأمر لو كان طبيعياً لم يتوقف إلا على عناصره التي يعرفونها
ويمكنهم أن يركبوه تركيباً طبيعياً على مقتضى قوانينهم ، ومن نظر
في مقدار حبة خردل من الجسم الإنساني كفته في الدلالة على الله ، فإن
في تلك الذرة الصغيرة من جسمك عصباً للحس وعصباً للحركة ومجرى
للدم الشرياني ومجرى آخر للدم الوريدي إلى غير ذلك مما لا يحصره العد
ولا يأتي عليه القول . وبالجملة إن أنكر الطبيعيون ما في الإنسان من
الأعمال المدهشة والأسرار الغريبة التي أثبتت في كل ذراته بحيث
لو أخذنا منها شرياناً شعرياً لتعطلت وظيفته ، لو أنكروا ذلك كانوا مجانين
وكذبهم علماء الفزيولوجيا تكذيباً مخجلا ، وإن اعترفوا بأن كل شيء
فيه لحكمة لا فرق بين مادق منه وماجل كما يقرره العلماء وكما هو مشاهد
ثم نسبوا ذلك لتلك المادة الصماء العمياء كانوا أشد جنوناً من المجانين
وأفظع جهلا من الحيوان الأعجم فأين يذهبون ؟ . .

الثلاثة الأصول

إذا كانت الأصول الثلاثة أكبر عون على شرح كلمة التوحيد فيجمل بنا أن نصفها بنصها لما فيها من الفائدة الكبرى والفضل العميم .

الواجب على كل مسلم ومسلمة أن يتعلم ثلاثة أصول : وهى معرفة ربه ودينه ونبيه صلى الله عليه وسلم .

الأصل الأول : « فإن قيل لك من ربك ، فقل ربى الذى ربانى بنعمته وخلقنى من عدم إلى وجود ، والدليل قوله تعالى « إن الله ربى وربكم فاعبدوهُ هذا صراطٌ مُستَقيم »

وإذا قيل لك : بأى شىء عرفت ربك ، فقل عرفته بآياته ومخلوقاته ، فأما الدليل على آياته فقوله تعالى : « ومن آياته الليل والنهارَ والشمْسَ والقمرَ لا تَسْجُدوا لِلشمْس وَلَا للقمَرِ واسجدوا لِلهِ الذى خلقهنَّ إن كُنتُمْ إياه تعبدون » .

ودليل مخلوقاته قوله تعالى : « إن ربكم اللهُ الذى خَلَقَ السموات والأرْضَ فى ستةِ أيام ثم استوى على العرش يُغْشى الليلَ النهار يَطْلُبُه حثيثاً والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا لَهُ الخلقُ والأمْرُ تبارك الله ربُّ العالمين » .

وإذا قيل لك لأى شيء خلقك الله ؟ فقل خلقنى لعبادته وطاعته واتباع أمره واجتناب نهيه .

ودليل العبادة قوله تعالى « وما خلقتُ الجن والإنسَ إلا ليعبدون ما أريدُ منهمْ من رزق وما أريد أن يطعمون ، إن الله هو الرزاقُ ذُو القوة المتين » .

ودليل الطاعة قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا اللهَ وأطيعُوا الرسول وأولى الأمر منكم فإنْ تنازعتم فى شىء فردُّوه إلى الله والرسول » يعنى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وإذا قيل لك أى شيء أمرك الله به ونهاك عنه ، فقل أمرنى بالتوحيد ونهانى عن الشرك ودليل الأمر قوله تعالى « إن الله يأمر بالعدل والإحسَانِ وإيتاءِ ذى الْقُرْبَى وينْهَى عن الفحشاءِ والمنكر والبغْى يعظُكُمْ لعلكم تذكَّرُون » .

ودليل النهى عن الشرك قوله تعالى : « إن الله لا يغفر أن يُشْرَكَ به ويغفرُ ما دونَ ذلكَ لمن يشاءُ ومن يشركْ بالله فقد حَرَّمَ الله عليه الجنةَ ومأْوَاهُ النارُ وما للظالمينَ من أنصار » .

الأصل الثانى : إذا قيل لك ما دينك ؟ فقل : دين الإسلام ، وهو الاستسلام والإذعان والانقياد إلى الله والدليل قوله تعالى « إنَّ الدينَ

عند الله الإسلام ، ومن يبتغِ غير الإسلامِ ديناً فلن يُقْبَلَ منه وهو في الآخرة من الخاسرين » ، وهو مبني على خمسة أركان : أولها شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة وصوم رمضان ، وحج البيت من استطاع إليه سبيلا . فأما دليل شهادة أن لا إله إلا الله فقوله تعالى « شهِدَ الله أنه لا إله إلا هو والملائكةُ وأولُوا العلم قائماً بالْقسْط لَا إله إلَّا هو العزيز الحكيم » ، وأما دليل أن محمداً رسول الله فقوله تعالى « ما كانَ محمدٌ أبَا أحدٍ من رجالكم ولكنْ رسولُ الله وخاتَم النَّبيِّين » ، ودليل الصلاة قوله تعالى : « إن الصلاة كانتْ على المؤمنينَ كتاباً موْقُوتاً » ، ودليل الزكاة قوله تعالى « خذْ من أموالِهم صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وتُزَكِّيهم بها وَصَلِّ عليهم إن صلاتك سكَنٌ لَهُم » ودليل الصوم قوله تعالى « يا أيها الذين آمَنُوا كُتبَ عليكم الصيام كما كُتبَ على الذين منْ قبلكم » ، وإذا قيل لك الصوم شهر فقل نعم والدليل قوله تعالى « شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ، فمن شهد منكم الشهر فليصمه » ، وإذا قيل لك الصوم في الليل أو في النهار ، فقل في النهار ، والدليل على ذلك قول الله سبحانه وتعالى « وكُلوا واشربوا حتى يتَبَيَّنَ لكم الخيطُ الأبيضُ من الخيط الأسودِ

من الفجر ثم أتموا الصيامَ إلى الليل » ودليل الحج قوله تعالى « ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا » ، وإذا قيل لك ما الإيمان فقل أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره من الله تعالى ، والدليل قوله تعالى « آمنَ الرسولُ بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كُلٌّ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لَا نُفَرِّقُ بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعْنَا غُفْرَانك ربَّناَ وإليك المصير » ، ودليل القدر قوله تعالى : « إنا كُلَّ شيءٍ خلقْنَاه بقَدَر » ، وإذا قيل لك ما الإحسان فقل : أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، ودليل الإحسان قوله تعالى « إن الله مع الذين اتقَوْا والذين هم محسنون » وإذا قيل لك منكر البعث كافر ، فقل نعم ، والدليل قوله تعالى « زعم الذين كفروا أن لن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى ورَبِّي لَتُبعَثُنَّ ثم لَتُنَبَّؤُنَّ بما عملتم وذلك على الله يسير » .

الأصل الثالث : وإذا قيل لك من نبيك ، فقل محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم ، وهاشم من قريش ، وقريش من كنانة ، وكنانة من العرب ، والعرب من ذرية إسماعيل ، وإسماعيل من إبراهيم الخليل ، وإبراهيم من نوح ، ونوح من آدم ، وآدم من تراب ، والدليل قوله تعالى « إن مثلِ عيسى عِندَ اللهِ كمثل آدم خلقه من ترابٍ ثم قال له كن

فيكون ، الحقُّ من ربك فلا تكونَنَّ من الممترين » .

وإذا قيل لك من أول الرسل ، فقل أولهم نوح وآخرهم وأفضلهم محمد ﷺ والدليل قوله تعالى « إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده » وإذا قيل لك هل منهم رسل فقل نعم ، بدليل قوله تعالى : « ولقد بعثنا فى كل أمةٍ رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت » .

وإذا قيل لك محمد بشر ، فقل نعم ، والدليل قوله تعالى « قل إنَّما أنا بَشَرٌ مثْلُكُمْ يُوحَى إلىَّ أنما إلهكم إلهٌ واحدٌ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً ولا يُشْرِكْ بعبَادَة ربه أحداً » . وإذا قيل لك محمد عبد ، فقل نعم ، والدليل قوله تعالى « سبحان الَّذى أسرَى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله » ، وإذا قيل لك كم عمره ، فقل ثلاث وستون سنة منها أربعون قبل النبوة ، وثلاث وعشرون رسولا نبياً ، نبیء بإقرأ وأرسل بالمدثر وبلده مكة ، خرج على الناس فقال يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً ، فكذبوه وأذوه وطردوه وقالوا ساحر كذاب ، فأنزل الله عليه « وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين » بلده مكة وولد فيها وهاجر إلى المدينة وبها توفى ، دفن جسمه وبقى علمه نبى لا يعبد ورسول لا يكذب بل يطاع ويتبع .. صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين .

إلى هنا انتهت الأصول الثلاثة ولا ريب أن العلماء اختلفوا فى أمر نبوته ﷺ ورسالته هل نبىء وأرسل مرة واحدة أكان من أول الأمر نبياً ورسولا أم نبىء أولا باقرأ ثم أرسل بالمدثر ولكل وجهة ودليل، وأن المرجح أنه نبىء وأرسل مرة واحدة وأن الرسالة لم تكن بالمدثر وإنما كانت بقول الله ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ وأنه ﷺ صعد الصفا ونادى بأعلى صوته : يامعشر قريش اشتروا أنفسكم من الله لا أغنى عنكم من الله شيئاً ، ياعباس بن عبد المطلب لا أغنى عنك من الله شيئاً ، ياصفية عمة رسول الله لا أغنى عنك من الله شيئاً . يافاطمة بنت محمد سليني من مالى ماشئت لا أغنى عنك من الله شيئاً .

ولا يبعد أن يجمع بين هذا وذاك فيكون الأمر بالتبليغ عامة بالمدثر وبالتبليغ خاصة بآية الحجر ، ولا مانع من هذا وإنما غرضنا أن يعرف الناس أمر هذا الخلاف وتفهمه على حقيقة أمره .

تفسير كلمة التوحيد

ليس المراد قولها باللسان مع الجهل بمعناها فإن المنافقين كانوا يقولونها وهم تحت الكفار فى الدرك الأسفل من النار مع كونهم يصلون ويتصدقون، ولكن المراد قولها مع معرفتها بالقلب ومحبتها ومحبة أهلها وبغض ماخالفها ومعاداته كما قال النبى صلى الله عليه وسلم : « من قال لاإله إلا الله مخلصاً دخل الجنة » وفى رواية . « خالصاً به من قلبه » وفى رواية « صادقاً بها من قلبه » ، وفى حديث آخر : « من قال لاإله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله دخل الجنة » إلى غير ذلك من الأحاديث الدالة على جهالة أكثر الناس بهذه الشهادة .

فاعلم أن هذه الكلمة نفى وإثبات . نفى الألوهية عما سوى الله تعالى من المخلوقات حتى محمداً صلى الله عليه وسلم وجبريل عليه السلام . فضلاً عن غيرهم من الأولياء والصالحين .

إذا فهمت ذلك فتأمل هذه الألوهية التى أثبتها الله تعالى لنفسه ونفاها عن محمد صلى الله عليه وسلم وجبريل وغيرهما أن يكون لهم منها مثقال حبة من خردل ، إلى أن قال .. وإذا أردت أن تعرف هذا معرفة تامة فذلك بأمرين : الأول أن تعرف أن الكفار الذين قاتلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقتلهم وأخذ أموالهم وسبا نسائهم كانوا مقربين

لله سبحانه بتوحيد الربوبية وهو أنه لايخلق ولايرزق ولايحي ولا يميت ولايدبر الأمور إلا الله وحده كما قال تعالى « قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ والأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَيُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ وَيُخْرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللهُ » ، وهذه مسألة عظيمة مهمة وهي أن تعرف أن الكفار شاهدون بهذا كله ومقرون به ومع هذا لم يدخلهم ذلك في الإسلام ولم يحرم دمائهم ولاأموالهم وكانوا أيضاً يتصدقون ويحجون ويعتمرون ويتعبدون ويتركون أشياء من المحرمات خوفاً من الله عز وجل .

الأمر الثاني : هو الذي كفّرهم وأحل دمائهم وأموالهم وهو أنهم لم يشهدوا لله بتوحيد الألوهية وهوأنه لايدعى ولايرجى إلاالله وحده لاشريك له ولايستغاث بغيره ولايذبح لغيره ولاينذرلغيره ، لاالملك مقرب ولا نبي مرسل إلا أنفال . . فالله الله تمسكوا بأصل دينكم وأوله وآخره وأسه ورأسه ، شهادة أن لاإله إلا الله واعرفوا معناها وأحبوها وأحبوا أهلها واجعلوهم إخوانكم ولو كانوا بعيدين واكفروا بالطواغيت وعادوهم وابغضوا من أحبهم أو جادل عنهم أو لم يكفرهم أو قال ماعلى منهم أو قال ماكلفني الله بهم فقد كذب هذا على الله وافترى فقد كلفه الله تعالى بهم وافترض عليه الكفر بهم والبراءة منهم ولو كانوا إخوانهم وأولادهم . . فالله الله تمسكوا بذلك لعلكم تلقون ربكم

لاتشركون به شيئاً . اللهم توفنا مسلمين وألحقنا بالصالحين .

وجاء فى كتاب التوحيد :

من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب ، وقول الله تعالى : « إِنَّ إِبْراهِيمَ كانَ أُمَّةً قانِتاً لِلّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ » ، وقال « والذين هم بربهم لا يشركون » .

عن حصين بن عبدالرحمن قال كنت عند سعيد بن جبير فقال أيكم رأى الكوكب الذى انقضّ البارحة فقلت أنا ثم قلت أما إنى لم أكن فى صلاة ولكن لُدِغْتُ قال فما صنعت قلت ارتقيت قال فما حملك على ذلك قلت حديث حدثناه الشعبي قال وما حدثكم قلت حدثنا عن بريدة ابن الحصيب أنه قال: لارقية إلا من عين أو حمة ، قال قد أحسن من انتهى إلى ما سمع . ولكن حدثنا ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «عرضت عليّ الأمم فرأيت النبي ومعه الرهط والنبي ومعه الرجل والرجلان والنبي وليس معه أحد . . إذ رفع لى سواد عظيم فظننت أنهم أمتى فقيل لى هذا موسى وقومه ، ثم قيل لى أنظر فنظرت فإذا سواد عظيم فقيل لى هذه أمتك ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولاعذاب ، ثم نهض فدخل منزله فخاض الناس فى أولئك فقال بعضهم فلعلهم الذين صحبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال بعضهم فلعلهم الذين ولدوا فى الإسلام فلم يشركوا بالله شيئاً وذكروا أشياء فخرج عليهم

رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبروه فقال : « هم الذين لا يسترقون ويكتوون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون » . فقام عكاشه بن محصن فقال يارسول الله أدع الله أن يجعلنى منهم قال : « أنت منهم » ثم قام رجل آخر فقال ادع الله أن يجعلنى منهم فقال : «سبقك بهذا عكاشه » .

الخوف من الشرك

قال الله تعالى « إنّ الله لايَغْفِـرُ أنْ يُشْرَكَ به ويَغْفِرُ مادُونَ ذلكَ لِمن يشاء » وقال الخليل عليه السلام « واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام » وَفى الحديث : أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر . وسئل عنه فقال الرياء .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « من مات وهو يدعو لله نداً دخل النار » . رواه البخارى ، ولمسلم عن جابر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « من لقى الله لايشرك به شيئاً دخل الجنة ، ومن لقيه يشرك به شيئاً دخل النار » .

تفسير التوحيد

قال الله تعالى : « أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أَيهم أقرب » الآية ، وقوله : « وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إننى براء مما تعبدون إلا الذى فطرنى فإنه سيهدين » .

وقوله : « إتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح

ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون » . وفي الصحيح عن النبي ﷺ قال : من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه وحسابه على الله عز وجل » .

وينبغي أن يكون لنا تعليق على هذا الكلام الطيب الجميل زيادة في الفائدة فما كان هؤلاء يتخذون أحبارهم ورهبانهم أرباباً معبودين كما يعبد الإله الحق وإنما كانوا يطيعونهم طاعة عمياء لا يطلبون دليلا ولا يناقشون ما يقولون . ولقد قال بعض من كانوا كذلك في جاهليتهم للنبي ﷺ يا رسول الله ما كنا نتخذهم أرباباً . فقال النبي صلى الله عليه وسلم أليسوا كانوا يحلون لكم ويحرمون ؟ قالوا نعم . قال فذاك . أي هذا هو معنى اتخاذهم أرباباً .

ولو أننا بحثنا عن منشأ الشرك وأصله لوجدنا أن أصله ومنشأه إنما يرجع الى الغلوّ في أمثال هذه الطاعة العمياء .

فالأصنام الأول والأوثان التي عبدت على وجه الأرض من دون الله في الزمن القديم ، وهي : ودّ ، وسواع ، ويغوث ، ويعوق ، ونصرا .. هذه أول أصنام كانت على وجه الأرض ومع ذلك فهي أسماء رجال صالحين أسماء رجال كانوا من قوم نوح كما جاء ذلك في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما وكان هؤلاء الصالحون يفوقون غيرهم في بابهم من النشاط والشفقة والرأفة والرحمة والزهد ، والورع .

فلما مات هؤلاء سوّل الشيطان لمن بعدهم أن يصوروا لهم صور أو تماثيل حتى إذا ماراوها نشطوا نشاطهم وعملوا عملهم فأقاموا التماثيل ووضعوا الصور ولم يكن غرضهم من هذه العبادة وإنما كان غرضهم طيباً وهو حب الصالحين والتأس بهم .

ولكن بعد أن انقرض هذا الجيل وبعد العهد وطال الأمد سوّل الشيطان لمن بعدهم أن أباؤكم كانوا يعبدونهم فأعيدوهم معبودهم ، ولعلنا أيضاً نذكر أن اللات لم يكن إلا رجلا صالحاً كان يَلُتُّ السويق للحاج ويقدمه طعاماً هنيئاً لكل قادم عن طريقه الى مكة وكان بهذا موضع الغبطة فلما مات جعلوا له هذا التمثال وتلك الصورة حتى أصبح صنما له قيمته ومعبوداً له شأنه فى مقدمة المعبودات المعلقة فى الكعبة والتى كانت قريش تدافع عنها بكل ماتملك من قوة .

إذاً ينبغى أن نعرف أنه لايتم التوحيد ولا الإقرار الكامل بالشهادة إلا بأن ندرأ المفاسد ونوصد أبواب الشر جميعها ، ولقد جاء فيما صح عن أبي واقد الليثى قال خرجنا مع رسول الله ﷺ الى حنين ونحن حدثاء عهد بكفر وللمشركين سدرة يعكفون عندها وينوطون بها أسلحتهم يقال لها ذات أنواط ، أى أغصان وفروع فقال المسلمون يارسول الله اجعلنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط . فقال ﷺ : « الله أكبر قلتم والذى نفسى بيده كما قال بنو إسرائيل لموسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة : إنها السنن لتركبن سنن من كان قبلكم » الحديث .

ولا يغيب عن ذهن من درس تاريخ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه أمر بقطع الشجرة التى بويع تحتها النبي ﷺ وهذا كله حتى لاتتخذ فى مستقبل الأيام وثناً يعبد من دون الله .

وهذا قليل من كثير والمقصود أننا نعرف أن معنى الشهادة لا يستقر فى قلب المرء إلا إن كان ينتزع من قلبه ألوهية ماسوى الله فلا يقصد غيره ولا يستعان بسواه فيما لا يقدر عليه إلا الله وهذا يستلزم تمحيض الوجه والقصد فى الإنابة والتوكل والخوف والرجاء والحب والبغض فلا يوالى إلا لله ولا يعادى إلا لله فإن فعل ذلك كان قد أقر بالشهادة وجعل لها مكاناً فى قلبه ولهذا نطقت آيات القرآن بأن من شرط الإيمان خشية الله وحده والتوكل عليه وحده كما قال تعالى « وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » .

وهذا يستدعى أن يعرف الإنسان العوائق والحوائل التى تحول بينه وبين إخلاص التوحيد لله جل شأنه .

ألا ترى أن النبي ﷺ حظر علينا أن نذبح لله بمكان ذبح فيه لغير الله وذلك لما فيه من شائبة إرادة غير الله ولو كانت نية الذابح لله حسنة طيبة وكذلك نجد أن النبي ﷺ نهى أن يمثل الناس بين يديه قياماً وهو جالس كما كان يفعل الأعاجم بملوكهم وذلك حرصاً منه ﷺ على كمال التوحيد وإخلاصه لله عز وجل .

تجنب الشرك

من الأمور التي يجب أن نجمع عليها كلمتنا هي :

ألا نشرك به شيئاً لعدم قدرة غيره على ما يقدر هو عليه فلا ندعو غير الله في الملمات ولا نعتقد ولا نتوهم في سرنا أن لأحد مع الله أي سلطان أو تأثير ، حتى ولا ننسب لأنفسنا القدرة على فعل أي شيء أو تنفيذ أي فكرة إلا أن يشاء الله ، بأن يقدرنا على فعلها وتحقيقها . فلا نجزم في سرنا بتحقيق مطالبنا إلا بمعونته تعالى . باعتباره جل وعلا أنه هو مسبب الأسباب ، وهو مالك جميع القوى الغيبية ، وهو فعال لما يريد وبالنسبة لأن أرواحنا بين يديه . وقدرتنا على فعل الأشياء محدودة ضمن ما يمده لنا من أجل ، وما يمنحه لنا من سلامة الأعضاء والقوة ، وفي هذا يقول تعالى « وما تشاؤون إلا أن يشاء الله » «ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله » « وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » وقد أمر الله نبيه عليه الصلاة والسلام أن يخاطب المشركين بقوله : « قل إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله لما جاءني البينات من ربي وأمرت أن أسلم لرب العالمين» « ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون » وقال تعالى « ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين بل الله فاعبد وكن من الشاكرين » .

لا سلطان إلا بالله

من الامور التى يجب أن نتحراها ونعمل بها هى :

أن لا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله . أى لا نجعل لبشر علينا سيادة ولا سلطاناً كسيادة الله وسلطانه بحيث نطيعهم فى معصيته ونحبهم مثل محبة الله أو أكثر . ونؤثر أوامرهم على ما جاءنا من عند الله . أو نسألهم غفران الذنوب أو إصلاح القلوب أو شفاء المرضى أو نطلب منهم ما لا يقدر عليه غير الله من تفريج الكروب وستر العيوب من الأشياء التى لا يستطيعها مخلوق فسؤال هذه الأشياء وطلبها من المشايخ والسادات . وطاعتهم فى معصية الله فاطر السموات والأرض . . هو من اتخاذهم أرباباً من دون الله الذى حرمه الله وأوضح فى كتابه أنه كفر وشرك . روى ابن حاتم الطائى عن النبى ﷺ : قال : جئت النبي ﷺ وفى عنقى صليب من ذهب . قال : ياعدى أخرج عنك هذا الوثن ، وتلا قوله « إتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله » ، قلت يا رسول الله ما كنا نعبدهم . فقال ﷺ : « أما كانوا يحللون لكم ويحرمون فتأخذونهم بأقوالهم » ، قلت نعم . قال : « هو ذاك » أى إطاعتهم فيما يحللون ويحرمون هو اتخاذهم أرباباً من دون الله

وقد ختم الآية الكريمة بقوله تعالى : « فإن تولوا ، عن هذه الدعوة ، وأبوا إلا أن يعبدوا غير الله يحبونهم كحبه ، ويلجأون اليهم فى الشدائد ويدعونهم لقضاء الحاجات ويطيعونهم من دون الله . ويسألونهم غفران الذنوب ، فقولوا لهم إذن (إشهدوا بأنا مسلمون) نعبد الله وحده مخلصين له الدين لا ندعوا غيره ولا نتوجه إلى سواه ، ولا نعتقد فى غيره النفع أو الضرر . ولا نحل إلا ما أحل ولا نحرم إلا ما حرم وأنتم معشر أهل الكتاب كفار إذ أبيتم عن الإجابة إلى عبادة الله وحده وترك الشرك به . وترك اتخاذ الأرباب من دون الله .

الإقرار بالوحدانية

لا شك أن هذه الأسس ما هى إلا لتقرير وحدانيته وألوهيته ووحدانية الربوبيـــة بأدق معانيها . وهى التى جاء بها جميع الأنبياء والمرسلين وقد جاء فى التوراة قول الله لموسى « إن الربّ إلهك لا تكن لك آلهة أخرى لا تصنع لك تمثالا منحوتاً ولا صورة ما مما فى السماء من فوق ومما فى الأرض من تحت ، ومما فى الماء من تحت الأرض ولا تسجد لهن ولا تعبدهن » وبمثل هذا جاء جميع الأنبياء من بنى إسرائيل حتى المسيح عليه السلام الذى ينقلون عنه فى إنجيل يوحنا قوله « وهذه هى الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقى وحده ويسوع المسيح الذى أرسلته » .

فالمسلمون واليهود والنصارى متفقون جميعاً على أن الله هو المتصرف فى العالم وهو خالقه ومدبره ، وهو الذى أرسل لنا الرسل ليعرفونا بما يرضيه . وما لا يرضيه من الأعمال . وإذا كان فى نبأ المسيح ما يشعر بأنه ابن الله فإنه يجب تخريجه على وجه لا ينقص الأصل الثابت الذى اتفق عليه الأنبياء من أن الله تعالى ليس من البشر ولا يشبه البشر فى شىء وأنه لم يتخذ صاحبة ولا ولداً وأن معنى ابن الله أنه كان ووجد

بكلمة منه أى لمجرد أمره على غير سنته فى البشر التى تقتضى بالتوالد من اجتماع ماء الرجل والمرأة . وفى هذا يقول الله فى القرآن «إن مثل عيسى عند الله كمثل آدمَ خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون » ومما لا جدال فيه أن المسيح عليه السلام لم يدع لنفسه الألوهية . ولم يدع الناس إلى عبادته وعبادة أمه قط . ولم ينكر أحد أنه كان يدعو إلى عبادة الله والإخلاص له بصريح القول . وقد روى القرآن الكريم حديثاً عن عيسى عليه السلام يقرر فيه حقيقة دعوته بقوله « وإذ قال الله تعالى يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ؟ قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك إنك أنت علام الغيوب . ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم وكنت عليهم شهيداً مادمت فيهم فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شىء شهيد» .

وحدة الإله جل جلاله

إن هـذا المطلب من العقائد بمنزلة الرأس من الجسد وإنسان العين من العين. وقد ضلت فيه الأفكار، وتاهت العقول، واستهوتها الشياطين، وتفرقت بهم السبل، حتى أدت بهم إلى وهاد قفرة يتوه فيها الخريت، ويتحير فى شعابها الأريب، ومن قديم تسرب الشرك للإنسان من حيث يدرى أو لا يدرى فى كل أدواره، وجميع أطواره. فان التاريخ يحدثنا أنه ما من جيل، إلا وكان فيه من يعبد الأوثان، ويخضع للأصنام، ويبحث عن إله يعبده فى الوهاد وفى الأنجاد. ولذلك اعتنت الشرائع كلها بهذا الموضوع أتم عناية، فكان أول واجب يدعو الرسل الكرام عليهم السلام إليه، وكان الأصل الذى ينبنى عليه غيره من أوامر الدين ونواهيه.

وحدة الإله جل جلاله: معناها انفراده سبحانه وتعالى فى كل شىء: فى ذاته. فى صفاته. فى أفعاله. فلا ذات تشبه ذاته، ولا صفة لأحد تماثل صفته، ولا لكائن من كان فعل كفعله، ولست أريد أن أستدل على وحدة الإله كما اعتاد المتكلمون، أن يستدلوا به عليها من الأقيسة المنطقية والبراهين الجدلية. ولكنى أقفك أيها المسلم على النصوص اللغوية، لترى كيف تقضى بأن الإله لا يكون إلا واحداً. ثم أعود بك إلى الفطرة السليمة، لتسمع حكمها الصريح بأن الإله يجب أن يكون واحداً.

جاء في القاموس وغيره من كتب اللغة أله يأله إلاهة وألوهة وألوهية عبد عبادة ، وإله كفعال ، بمعنى مفعول لأنه مألوه بمعنى معبود ، وقال الزمخشرى فى الكشاف العبادة أقصى غاية الخضوع والتذلل . إذن فالإله هو الخضوع له غاية الخضوع ، والمتذلل له نهاية التذلل وأقصاه ، وهل يستحق هذا الخضوع وذلك التذلل البالغين حد النهاية ، إلا من بلغ النهاية فى العظمة والجلال ، ومن العظمة فى ذروتها ، التفرد فى تصريف الشؤون جميعها ، صغيرها وكبيرها ، حقيرها وعظيمها . فالإله يجب بحسب الأوضاع اللغوية ، أن يكون منفرداً بالعظمة والجلال ، وإلا لما استحق العبادة ، ولما سمته اللغة إلها . وبهذا تعلم أن العرب إذ اتخذوا مع الله إلهاً أخر كانوا فى غمرة من الجهل ساهين عن مقتضى لغتهم ، وما تنادى به أوضاعها ولعلهم كانوا يدركون أن أحجارهم التى كانوا يعبدونها عظيمة بالغة النهاية ، ولكن أين ذهبت منهم العقول وشردت الأفكار ؟ أى عقل يدرك فى حجر ينحته بيده ويسويه بفأســـه وقدومه عظمة وجلالا ؟ بل أى إنسان يخطر بباله أن مثل هذه الحجارة تستحق شيئاً من التعظيم بَلْهَ العبادة البالغة أعلى درجات التعظيم والجلال ؟ بل إنهم كانوا كما قال القرآن الكريم (لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون) .

أحسبك أيها المسلم بهذا اقتنعت بأن اللغة تقتضى بحسب أوضاعها

انفراد الإله ، وعدم مشاركة غيره له فى أى أمر من الأمور . فل معى نحو الفطرة السليمة لتسمع حكمها الصريح فى هذا الموضوع . فإنها الحكم الذى ترضى حكومته لا يدفعها إلا من لا عقل عنده ، ولا إدراك بل هو إذن بالجمادات أشبه منه بالإنسان .

إن الفطرة السليمة ولو لم تعرف الوضع اللغوى تدرك من كلمة (إله) عظمة مطلقة ، وجلالا لا حد له ، وعلواً لا يساويه فى نظرها شىء ، فإذا ذكر الإله ، وجمعت النفوس ، واقشعرت الأبدان ، وسرت فيها روعة مهابة وإجلال ، وإكبار وإعظام . فسائل هذه الفطرة التى تحس بهذا وبأكثر منه بجانب الإله ، أترضى أن يكون معه غيره ؟ تجبك فى غير مواربة ، إنها لا ترضى ذلك بحال من الأحوال ، وإلا ذهبت عنها العظمة والجلال ، اللذان تحس بهما عند ذكر الإله ، فإن هذا الغير ينقص من عظمته ، ويحط فى قيمته ويجعله غير مهيب عندها بالدرجة التى تدركها من كلمة (إله) فإن ذلك الغير إن عمل معه ، كان محتاجاً إليه ، وحسبك نقصاً أن يكون الإله محتاجاً . وإن لم يعمل معه كان مجرد وجوده معه جرحاً لعزته ، وهدماً لعظمته ؛ وإذن فلا يمكن للفطرة السليمة أن تقبل أن يكون مع الإله غيره وهى تحس منه بتلك العظمة اللانهائية . هذا حكم الفطرة المجردة عن الهوى المبنى عن الإحساس والوجدان ولست تجد حكما أصدق مما يدعو إليه الأجناس والوجدان فإنه مشتق من ذات النفس . ونابع من قرارة القلب ، فمن لم يحكم به كان من الخاطئين .

لا إله إلا الله

إن كل من توجه إلى التوحيد بلا إله إلا الله ، وقلبه لغير الله حجب عن الله تعالى ، وإن كل من ذكر : لا إله إلا الله ، وقلبه لغير مذكوره حجب بألف حجاب . فإذن الواجب على كل من أراد أن يذكر لا إله إلا الله أولا : أن يطهر ظاهره من الأنجاس والأدناس . وثانياً : أن يطهر باطنه من الوساوس والظنون والأوهام . وثالثاً : أن يكون ذكره لها ذكر حضور ومعنى ، أي حضور قلب ، وملاحظة مالها من المعانى الأربعة عشر ، التى أولها وثانيها : لاخالق ولا رازق سواه . وثالثها ورابعها : لا محي ولا مميت سواه . وخامسها وسادسها : لا معطى ولا مانع سواه . وسابعها وثامنها : لامعز ولامذل سواه . وتاسعها وعاشرها لا نافع ولاضار سواه ، وحادى عشرها وثانى عشرها : لا هادى ولا مضل سواه ، وثالث عشرها ورابع عشرها : لامبدىء ولا معيد سواه. فمن لم يعرف هذه المعانى فهو كافر . لكن محل اشتراط أن يكون ذكرها بهذه الشروط الثلاثة لمن ذكرها لا على أنها قرآن تضمنها قوله تعالى : (فاعلم أنه لا إله إلا الله) ، وإلا فلا يشترط لذكرها ملاحظة معانيها المذكورة ، لما روى عن الإمام أحمد رضى الله عنه أنه قال : رأيت رب العزة فى المنام ، فقلت : يارب ، ما أفضل ما يتقرب به المتقربون ؟ قال

تلاوة كلامى يا أحمد ، فقلت يارب ، بفهم وبغير فهم ؟ فقال نعم .

نعم ينبغى لمن يحرك لسانه بلا إله إلا الله خمسة آلاف مرة أو اثنتى عشرة ألف مرة ، ألا يقتصر على تحريك لسانه بها ، بل يكون تحريك لسانه بلا إله إلا الله مع الفكر ، كما هو مقام الأكابر ، فإن هذا التوجه سريع الفتح ، وأكثر العباد تركوا العبادات ، واشتغلوا بالتوجهات ، حتى أحرق الذكر قلوبهم ، وغابوا عما سوى الله ، وتوفقوا . فإذا كان مع رياضة حصل الكمال الأعظم سريعاً بلا شك . هذا وروى أن من قال لا إله إلا الله سبعين ألف مرة فداه الله من النار ، وقال عليه الصلاة والسلام : « ما قال عبد لا إله إلا الله مخلصاً من قلبه إلا فتحت له أبواب السماء حتى يفضى إلى العرش ما اجتنب الكبائر » .

وعن الصحابة رضوان الله عليهم : « من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه ، ومدها بالتعظيم ، غفر له أربعة آلاف ذنب من الكبائر ، ومن كان يخشى شيئاً فليقل بعد صلاة الصبح : أستكفى كل شر بلا إله إلا الله مائة مرة ، فإنه يكفى مايخاف . ومن كتب لا إله إلا الله على خاتم فضة فى الساعة الأولى من يوم الجمعة ، انشرح صدره ، وانبسط فكره ، وتيسر أمره ، وزال همه ، وانجلى كربه ، ولايقع عليه بصر أحد إلا أحبه . ومن كتب لا إله إلا الله بعدد حروفها فى جام ومحاه بماء وشربه على الفطور ، أحيا الله قلبه بنور الإيمان . وفجر من صدره أنوار العرفان ، ومن داوم على شربه وقاه الله قساوة القلب . وشرح باطنه لقبول الحقائق

الإيمانية ، والأسرار الروحانية ، ومن كتبها على خاتمه وتلا عليه عددها أى عدد حروفها ، ووضعه تحت رأسه ، رأى ما رآه فى نومه بشرط العزلة والطهارة ، وعدد حروفها ١٦٦ بالجمل . وفى المعارف أن من قال لا إله إلا الله ألف مرة على الطهارة فى صبيحة كل يوم ، يسر الله له أسباب الرزق ، ومن قالها عند منامه ألفاً باتت روحه تحت العرش . ومن قالها عند قوة الشمس ضعف منه شيطان الباطن ، ومن قالها عند رؤية الهلال أمن من أسقام الأجسام ، ومن قالها عند دخول مدينة أمن من فتنتها ، ومن قالها بجميع فكره ، وأرسلها لظالم أو جائر قطعته ، ومن قالها بقصد التطلع إلى العلويات كشف له عن غيب ما قصده . ولها خواص كثيرة ، وهذه نبذة منها للترغيب .

وذكر عن كعب الأحبار ، أن من قال ليلة القدر : لا إله إلا الله صادقاً من قلبه ثلاث مرات غفر الله له ذنوبه بواحدة ، ونجاه من النار بواحدة ، وأدخله الجنة بواحدة . فقلنا لكعب الأحبار : يا أبا إسحاق صادقاً ؟ قال : وهل يقول : لا إله إلا الله إلا كل صادق ، والذى نفسى بيده إن ليلة القدر لثقيلة على المنافق ، فكأنما على ظهره جبل .

فائدة الشهادة عند الموت

لشهادة أن لا إله إلا الله عند الموت تأثير عظيم فى تكفير السيئات وإحباطها لأنها شهادة من عبد موقن بها ، عارف بمضمونها ، قد ماتت منه الشهوات ولانت نفسه المتمردة وانقادت بعد إبائها واستعصائها وأقبلت بعد إعراضها وذلت بعد عزها وخرج منها حرصها على الدنيا وفضولها واستخذت بين يدى ربها وفاطرها ومولاها الحق ، أذل ما كانت له وأرجى ما كانت لعفوه ومغفرته ورحمته ، وتجرد منها التوحيد بانقطاع أسباب الشرك وتحقق بطلانه فزالت منها تلك المنازعات التى كانت مشغولة بها واجتمع همها على من أيقنت بالقدوم عليه والمصير إليه . فوجه العبد وجهه بكليته إليه وأقبل بقلبه وروحه وهمه عليه ، فاستسلم وحده ظاهراً وباطناً واستوى سره وعلانيته فقال لا إله إلا الله مخلصاً من قلبه وقد تخلص قلبه من التعلق بغيره والالتفات إلى ما سواه قد خرجت الدنيا كلها من قلبه وشارف القدوم على ربه وخمدت نيران شهوته وامتلأ قلبه من الآخرة فصارت نصب عينيه وصارت الدنيا وراء ظهره فكانت تلك الشهادة الخالصة خاتمة عمله فطهرته من ذنوبه وأدخلته على ربه لأنه لقى ربه بشهادة صادقة خالصة ، وافق ظاهرها باطنها ، وسرها علانيتها ، فلو حصلت له الشهادة على هذا الوجه فى أيام الصحة لاستوحش من الدنيا وأهلها وفر إلى الله من الناس وأنس به

دون ما سواه ، لكنه شهد بها بقلب مشحون بالشهوات وحب الحياة وأسبابها ، ونفس مملوءة بطلب الحظوظ والالتفات إلى غير الله ، فلو تجردت كتجردها عند الموت لكان لها نبأ آخر وعيش آخر سوى عيشها البهيمى والله المستعان .

ماذا يملك من أمره من ناصيته بيد الله ونفسه بيده وقلبه بين أصبعين من أصابعه يقلبه كيف يشاء وحياته بيده وموته بيده وسعادته بيده وشقاوته بيده وحركاته وسكناته وأقواله وأفعاله بإذنه ومشيئته : فلا يتحرك إلا بإذنه ولا يفعل إلا بمشيئته. إن وكله إلى نفسه وكله إلى عجز وضيعة وتفريط وذنب وخطيئة ، وإن وكله إلى غيره وكله إلى من لا يملك له ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشورا . وإن تخلى عنه استولى عليه عدوه وجعله أسيراً له فهو لا غنى له عنه طرفة عين بل هو مضطر إليه على مدى الأنفاس فى كل ذرة من ذراته باطناً وظاهراً ، فاقته تامة إليه ومع ذلك فهو متخلف عنه معرض عنه يتبغض إليه بمعصيته مع شدة الضرورة إليه من كل وجه قد صار لذكره نسياً واتخذه وراءه ظهرياً ، هذا وإليه مرجعه وبين يديه موقفه .

فرغ خاطرك للهم بما أمرت به ولا تشغله بما ضمن لك فإن الرزق والأجل قرينان مضمونان فما دام الأجل باقياً كان الرزق آتياً وإذا سد عليك بحكمته طريقاً من طرقه ، فتح لك برحمته طريقاً أنفع لك منه : فتأمل حال الجنين يأتيه غذاؤه وهو الدم من طريق واحدة وهو السرة

فلما خرج من بطن الأم وانقطعت تلك الطريق فتح له طريقين اثنين وأجرى له فيهما رزقاً أطيب وألذ من الأول لبناً خالصاً سائغاً ، فإذا تمت مدة الرضاع وانقطعت الطريقان بالفطام فتح طرقاً أربعة أكمل منها ، طعامان وشرابان ، فالطعامان من الحيوان والنبات . والشرابان من المياه والألبان وما يضاف إليهما من المنافع والملاذ ، فإذا مات انقطعت عنه هذه الطرق الأربعة ، لكنه سبحانه فتح له إن كان سعيداً طرقاً ثمانية وهى أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء . فهكذا الرب سبحانه لا يمنع عبده المؤمن شيئاً من الدنيا إلا ويؤتيه أفضل منه وأنفع له ، وليس ذلك لغير المؤمن فإنه يمنعه الحظ الأدنى الخسيس ، ولا يرضى له به ليعطيه الحظ الأعلى النفيس . والعبد لجهله بمصالح نفسه وجهله بكرم ربه وحكمته ولطفه لا يعرف التفاوت بين ما منع منه وبين ما ذخر له ، بل هو مولع بحب العاجل وإن كان دنيئاً وبقلة الرغبة فى الآجل وإن كان علياً ، ولو أنصف العبد ربه وأنى له بذلك ، لعلم أن فضله عليه فيما منعه من الدنيا ولذاتها ونعيمها أعظم من فضله عليه فيما آتاه من ذلك فمامنعه إلا ليعطيه . ولاابتلاه إلاليعافيه . ولا امتحنه إلا ليصافيه ، ولا أماته إلا ليحييه ، ولا أخرجه إلى هذه الدار إلا ليتأهب منها للقدوم عليه وليسلك الطريق الموصلة إليه فجعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً وأبى الظالمون إلا كفورا ، والله المستعان . من عرف نفسه اشتغل بإصلاحها عن عيوب الناس . من عرف ربه اشتغل

به عن هوى نفسه . أنفع العمل أن تغيب فيه عن الناس بالإخلاص وعن نفسك بشهود المنة فلا ترى فيه نفسك ولا ترى الخلق .

دخل الناس النار من ثلاثة أبواب : باب شبهة أورثت شكا فى دين الله . وباب شهوة أورثت تقديم الهوى على طاعته ومرضاته . وباب غضب أورث العدوان على خلقه .

أصول الخطايا كلها ثلاثة : الكبر وهو الذى أصار إبليس إلى ما أصاره ، والحرص وهو الذى أخرج آدم من الجنة ، والحسد وهو الذى جرأ أحد بنى آدم على أخيه ، فمن وقى شر هذه الثلاثة فقد وقى الشر ، فالكفر من الكبر ، والمعاصى من الحرص ، والبغى والظلم من الحسد .

جعل الله بحكمته كل جزء من أجزاء ابن آدم ظاهرة وباطنة آلة لشىء إذا استعمل فيه فهو كماله . فالعين آلة للنظر ، والأذن آلة للسماع ، والأنف آلة للشم ، واللسان للنطق ، والفرج للنكاح ، واليد للبطش ، والرجل للمشى ، والقلب للتوحيد والمعرفة ، والروح للمحبة ، والعقل آلة للتفكر والتدبر لعواقب الأمور الدينية والدنيوية وإيثار ما ينبغى إيثاره ، وإهمال ما ينبغى إهماله .

أخسر الناس صفقة من اشتغل عن الله بنفسه بل أخسر منه من اشتغل عن نفسه بالناس . فى السنن من حديث أبى سعيد يرفعه « إذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء كلها تكفر اللسان تقول اتق الله فإنما نحن بك

فإن استقمت استقمنا وإن اعوججت اعوججنا ، قوله تكفر اللسان قيل معناه تخضع له ، وفى الحديث أن الصحابة لما دخلوا على النجاشى لم يكفروا له أى لم يسجدوا ولم يخضعوا ، ولذلك قال له عمرو بن العاص: أيها الملك : إنهم لا يكفرون لك ، وإنما خضعت للسان لأنه يريد القلب وترجمانه والواسطة بينه وبين الأعضاء ، وقولها إنما نحن بك أى نجاتنا بك وهلاكنا بك ، ولهذا قالت فإن استقمت استقمنا وإن اعوججت اعوججنا .

خطبة منبرية

أول واجب معرفة الله وتوحيده

الحمد لله رب العالمين نحمده على نعمائه ونشكره على بره وإحسانه ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله سيد المرسلين وقدوة الموحدين ، اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وأصحابه والتابعين ، أما بعد فيا عباد الله :

أهم الواجبات على الإنسان ما وجب عليه لله سبحانه وتعالى من الإقرار بوحدانيته والاعتراف بما ثبت له من نعوت العظمة والجلال ومن تنزهه عن كل نقص واتصافه بصفات الجلال والكمال ألا وإن أول شيء ابتدأ به رسول الله ﷺ دعوة الناس إلى التوحيد والإقرار له بالعظمة والسلطان والعزة لما بعث ﷺ معاذاً نحو اليمن قال له إنك تقدم على قوم من أهل الكتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه أن يوحدوا الله تعالى فإذا عرفوا ذلك فأخبرهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات في يوم وليلة فإذا صلوا فأخبرهم أن الله فرض عليهم زكاة أموالهم تؤخذ من غنيهم وترد على فقيرهم فإذا أقروا بذلك فخذ منهم وتوق كرائم أموال الناس .

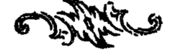
عباد الله :

واجب على الإنسان أن يعتقد أن الله إله واحد موجود قادر على كل شيء ،خالق لجميع الكائنات ، حي قيوم لايماثله شيء من المخلوقات ، سميع بصير يرى حركات أرجل النمل فى الليلة الظلماء عليم خبير لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ، ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم .

وقد أرشدنا الله إلى طريق معرفته بأن نتأمل فى هذا الكون وفيما احتوى عليه من بدائع المصنوعات ، وأن ننعم النظر فيما نصه فى الآفاق والأنفس من الآيات البينات إذ بداهة العقل تقضى بأن كل صنعة لابد لها من صانع . سئل أعرابى كيف عرفت ربك فقال البعرة تدل على البعير والسير يدل على المسير فسماء ذات أبراج وسبل ذات فجاج ألا تدل على العليم الخبير ؟

أيها الإنسان تأمل فى نفسك من الذى جعلك إنساناً ناطقاً بعد أن كنت فى عالم الخفاء . تأمل فى الحيوان من الذى خلقه وتكفل برزقه . تأمل فى البحار والجبال والصحراء . تأمل فى النجوم والكواكب كيف تسبح فى بروجها وكيف دق سير نظامها فى السماء (لا الشمس ينبغى لها

أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون) لا شك أن الذى خلق هذا ودبر وأحكم نظام هذا هو الله الواحد الأحد القادر المقتدر الذى أخرجنا من العدم وأمدنا بما لا يحصى من النعم . فواجب علينا حبه وشكره ، ومن آثار ذلك أن تتفانى فى خدمته وطاعته وأن نحافظ على فعل أوامره واجتناب نواهيه فإن ذلكم أعظم مظهر من مظاهر الخضوع والإخلاص . فاتقوا الله واعبدوه وحده وفكروا فى بدائع صنعه وقوموا بواجب شكره عسى أن يصلح لنا الأحوال ويبلغنا الآمال . قال رسول الله ﷺ (تفكروا فى الخلق ولا تفكروا فى الخالق فإنكم لا تقدرون قدره) .




القسم الثالث
محمديات



أحيّ فى ربيع الأول ذكرى رسول الله ، وفى الأرض ملايين تهتز نفوسهم لهذه الذكرى إعجاباً وإكباراً ، وتمتلىء قلوبهم عزة وفخاراً . . ويشهد الله أن ليلة الميلاد الكريم كلما اقتربت أخذ قلبى يهفو كجناح الطائر ، وأحسست فى جوانحى تياراً يتمشى البُرء فى السقم ، ورأيت خلجات النفس تدفعنى إلى الكتابة فى هذه السيرة العاطرة ، والإفاضة فيما أسدت إلى الدنيا من آيات باهرة .

ولن أزعم أنى مقترب من غاية أو بالغ مبلغاً ، ولكنها كلمات أحد فيها شفاء لنفسى وطهارة لحسى . وليست إلا جهد المقل ، وحسى أن يدفعنى الإخلاص لله وحب رسوله ومجتباه .

كان فى مكة أسرة عرفت من قديم العصور بالتبتل والركون إلى قوة إلهية تدبر الكون وتصرف أموره ، وانتهت رياسة هذه الأسرة إلى عبدالمطلب بن هاشم ؛ ذلك الشيخ الوقور . الذى عاش بين قومه معروفاً بدين صحيح لاعوج فيه ولا احتيال . موصوفاً بالإذعان لما يأتى به

القدر من خير وشر ، تاركاً الأمر كله لرب الأرض والسموات ؛ دل على ذلك بقوله وعمله يوم غزا أبرهة الكعبة بجيشه يريد أن يهدمها ، فقال عبدالمطلب : إن البيت له رب يحميه ! ثم بالغ فى الاستسلام والرضا بما يسوقه مولاه ، وعبر عن ذلك أوفى تعبير وأصدقه :

إن كنت تاركهم وكعبــتنـا فأمر ما بدالك

وهل تجد أبلغ من هذا فى اطمئنان العقيدة وهدوء النفس ، والإيمان بحكمة المولى الحكيم فيما يأتى أو يذر من أعمـال ؟

ولعلك تعرف أن بنى هاشم كانوا يعملون فى الرياسة الدينية ، وأن لهم من المناقب والمفاخر فى الجاهلية ما نماه الإسلام ورعاه ، فقد كانوا سراعاً إلى النجدة ونصرة الحق ، والتعاون على البر ؛ ويجل لهم هذه الخلائق أقوال العرب وحكاؤهم : روى أن عبد المطلب بن هاشم وحرب بن أمية تنافرا إلى نفيل بن عدى ، فقضى لعبد المطلب ، ودوّن أسباب الحكومة فى شعره ، إذ يقول لحرب :

أبوك معاهر وأبوه عف وذاد الفيل عن بلد حرام

ولم يكف هذه الأسرةَ الطيبة الأعراق أن تؤدى فروض الديانات ، بل أربت على ذلك أن تُعين من يريد أداء هذه الفروض ، فكان منهم من انتهى إليه سقاية الحجيج فى الجاهلية ، إيماناً منهم بالبيت الحرام ورب البيت الحرام ، وما أحسب هذه الطهارة إلا متأصلة فى ذلك البيت ،

فطرية فى أهله ، يعرفهم الناس بها ، ويحفظونها لهم . فأصحاب السير يروون أن فاطمة بنت مرة الخثعمية دعت إلى نفسها عبدالله والد محمد ، وكانت من أجمل النساء وأعفهن ، فأعرض ، وقد أخذه خوف لا يدرى أين مصدره ، وإشفاق لا يعرف من أين أتى ؛ فهدأت الخثعمية من روعه ولم تدهش لما اعتراه ؛ لأنها تعرف فيه نسك أبيه ، أما آمنة بنت وهب فقد كانت سيدة صادقة الحس ، قوية الإلهام ، موصولة الفؤاد بالسماء . فكانت تبشر فى نومها فتصدق البشرى ، ويصح التأويل .

تحدث المتحدثون أنها رأت فيما يرى النائم شبحاً مؤنساً عذب الصوت دنا منها حتى إذا كاد يمسها تحدث إليها فى رفق كأنه يسر إليها سراً ؛ قال : أتعلمين أنك حامل ؟ قالت : لا . قال : فاعلمى إذن أنك ستكونين أمًّا لخير من أقلت الأرض من الناس .

من هذه النفوس الزكية ، وبين تلك البيئة النقية ، ولد محمد صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ، ونشأ نشأة يتيمة وديعة ، فطرية كريمة ، فكان له من فضل ربه وكرم أصله وسلامة منبته ماهيأه لمستقبل لم يهيأ له سواه من العالمين ، ولم يخلق له غيره من المصلحين ، شب شباباً كريماً ، واستوى شهماً رحيما ، فالتقت فى خلقه عناصر القوة والرأفة ، وعوامل الحياة والحيـــاء .

تنبأ المتنبئون بأنه سيغير وجه الأرض ، ويقيم الدنيا ويقعدها ، وتوسم

المتوسمون ماوُهب من بطولة ، وما أوتى من عظمة ؛ ولقد راب حليمةَ السعدية مرضعته يوماً بعض أمره ، فحسبت أن به بأساً ، فأرسلته مع بعض الرسل إلى الكاهن ، فلما قصوا عليه قصته قال : اسكتوا حتى أسمع من الغلام ، فسأله ، فقص عليه بعض أمره ، فلما سمعه وثب إليه وضمه إلى صدره ، ثم نادى بأعلى صوته : ياللعرب ! اقتلوا هذا الغلام ، واقتلونى معه ! واللات والعزى لئن تركتموه وأدرك ليذلنّ دينكم ، وليسفهن عقولكم وعقول آبائكم ، وليخالفن أمركم ، وليأتينكم بدين لم تسمعوا بمثله قط !

وشهده فى الندوة قَيْل يمنى وهو يتحدث إلى عمه وله من العمر بضع عشرة سنة ، فراع القَيلَ سمته وحده ، حتى سأل القوم : يامعشر قريش من هذا الفتى يمشى وئيداً ولا يلتفت ، وينظر مرة بعينى أم أشبال صخار ، وأخرى بعينى عذراء خفرة ؟ فأخبروه خبره ، فدهش القيل وقد غلبه الإعجاب ، واستبان من شبابه رجولة جريئة متوقدة تهز العالم هزاً ، وتدفعه إلى الامام دفعاً . إذ ينظر بعينين مستأسدتين ، وكذلك رأى رجولة فيها وداعة وفيها حس ونور ، إذ ينظر بعينى عذراء خفرة . وهكذا يكون الذين يسيطرون على الدنيا ويقودون الأمم ؛ فلاتعجب إذا ماقال ذلك القيل وقد رأى شباباً على غرار لم يألفه : لئن بلغ هذا الغلام أشده ليمتن قريشاً ثم ليحيينها ، وإنه نظر إليكم نظرة لو كانت سهماً لانتظمت أفئدتكم فؤاداً فؤاداً ، ثم نظر إليكم نظرة أخرى

لو كانت نسيا لأنشرت موتاكم وكذلك كان ؛ فقد أمات محمد قريشاً في ضلالها وجهلها ، وباطلها وعنادها ، ثم أنشرها أمة خالدة في رشادها وعلمها وحقها وجهادها ، وحسب قريش بل حسب الدنيا بأسرها رجل كمحمد صلى الله تعالى عليه وآله وسلم!

حرست العناية الإلهية ذلك الغلام حتى نضجت شخصيته واكتملت رجولته ، فبعث ليؤدي الأمانة ، ويبلغ الرسالة ، ويضطلع بخطب جليل وينهض بجليل من العمل عظيم ؛ فاحتمل العبء صادعاً ماضياً ، ودبر له متأنياً صابراً ، ليتم الله نوره ، ويعلي كلمته ، ويهيء للأرض سبيل الهدى والكمال . . .

أهاب بالدنيا « يا أيُّها النَّاس إنِّي رَسُولُ الله إلَيْكُمْ جميعاً ، الذي لَهُ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالأرْضِ ، لاإلٰهَ إلَّا هُوَ يُحيي وَيُميتُ ، فآمنُوا بِالله وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بالله وَكَلِماتِهِ ، واتَّبِعوه لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ »

هذه الرسالة العامة الشاملة ، وتلك الأمانة العظمى الكاملة التي تدعو الأحمر والأصفر وغيرهما من صنوف الناس قد عهد إليها ربها أن تروض البدوي في سذاجته ، والقروي في خشونته . والحكيم في حكمته والعالم في فطنته ؛ لن تكون كذلك إلا إذا كان صاحبها الهادي المهذب، والرائد المحرر ، قد وهب من القوة والعزم والحكمة والبيان مايزيح به ضلالات ويمحو جهالات ، ويحرر عقولا . ويصفي نفوساً ، ويشيد محاسن ، ويغري بمكارم .

ذلك عبء جسيم يُعجز البشر حمله ، ويعييهم أن ينهضوا به ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ؛ لكن الله الذى خلق محمداً ليكون صلة السماء بالأرض أعده لهذا كله من حيث لايشعر ، وهيأه للعمل العظيم وهو لايدرى ، فصرفه عن الدنيا ومباهجها ، فلم يسلك ماكان يسلكه غيره فى الوصول إلى ماترغبه الأنفس من نعيمها ، بل كلما قويت شوكته زادت زهادته فيما يطلبه الناس من متع العيش وزخرف الحياة ، ونما فيه حب الانفراد والانقطاع إلى الفكر والمراقبة والتحدث بمناجاة الله تعالى والتوسل إليه فى طلب المخرج من همه الأعظم فى تخليص قومه ، ونجاة العالم من الشر الذى تولاه ، إلى أن رفعت عنه الحجب ، وأزيحت السدول ؛ فكان محمد من البشر ولكنه ليس منهم ، يعيش بين ظهرانى الناس وهو غريب عنهم . إنه من البشر بمقدار مايؤدى لهم رسالته ، ويدعوهم لما يحييهم ، وهو مع الناس بمقدار ما يأنسون به ويأنس إليهم أمانفسه وأما روحه فليس لنزعات البشر إليهما من سبيل .

ألم تره يقوم بهذه الدعوة العظمى وحده ، ولاحول له ولاقوة ، والقوم من حوله أعداء أنفسهم وعبيد شهواتهم ، لايفقهون دعوته ، ولايعقلون رسالته ؛ وهم يقولون : مالهذا الفقير الأمى يتطاول على من هو أرفع منه مقاماً وأعز سلطاناً ؟ وهلا ترك ذلك لغيره ممن هم أقوى جانباً وأعز نفراً ؟ . . لكنه فى فقره وضعفه كان يناضلهم بالدليل ، ويقارعهم بالحجة ، ويأخذهم بالنصيحة، ويزجرهم بالزجر ، يأسو ويحلم ،

ويحتمل ويذل ، حسن التأتى لهذا كله ; فإذا اشتد فكأنما هو سلطان قاهر ، وإذا لان فكأنما هو أب حكيم ، وكذلك أمره ربه ووصفه :
« يا أيُّها النَّبيُّ جاهدِ الكُفّارَ وَالمُنافقينَ واغْلُظْ عليهمْ » ، « وَمَا أرْسَلْنَاكَ إلَّا رَحْمَةً للعالَمين » وكذلك تكونَ الحياة ، وكذلك يكون الدعاة ، وأى داع أَقوم وأى رشد أحكم ! أمىّ يدعو الكاتبين ويعلم القارئين ، يعيد من مدارس العلم ، ينبه العلماء أن يمحصوا مايعلمون ، ويخلصوا من الخرافات مايكتبون . أى علم ذلك الذى هبط على نفسه العظيمة فى أقرب الشعوب إلى سذاجة الطبيعة ؟ وأى تهذيب ظهر فى خلقه وهو أبعد الأمم عن التهذيب والنظام ؟ وأى معرفة ملأت نواحى نفسه ففاضت على من حوله ، وأضاءت لهم السبيل وأبانت المعالم ؟ فدانوا له جميعاً بالزعامة وأسلموا إليه زمام النفوس .

يا أيُّهــا الأمىُّ حسبُكَ رتبـةً فى العِلم أن دانت لك العُلمـاء

وما هذا الأفق الرحيب الذى أطل منه النبى فكشف عن أطوار النفس البشرية فى خبايا الغيب ، وصاح صيحته المدوية بتكريم الإنسان وتنظيم العمران ، وهو ينشده نظاماً عملياً نافذاً يصلح للحياة فى صورها البدائية ، وأحوالها الفطرية ؟ والناس فى هذه الحال لا يفهمون إلا المادة تجبر وتمنع ، وتحمى وتدفع . وتزع بالسلطان مالا تزع بالقرآن . وهو كذلك يصلح للحياة فى صورها المثالية حين تكون سماوية الآفاق ،

متسامية الأهداف ، مترفعة راقية ، طاهرة عالية ، تحتكم إلى الضمائر ، وتناجى السرائر ، تشيع الرحمة وتدفع إلى الصفح والعفو ، وتهدر القصاص وتلغى العقاب ، وتطمع الناس على الأرض فى سلام الملائكة لتكون لهم دار السلام . أى نظام أكفل بهذا كله مما دعا إليه محمد صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ؟

لقد دعا إلى التوحيد ، والإخاء ، والمساواة ، والحرية ، والسلام ، والتوحيد سبيل القوة والعزة واستقلال الإرادة وحرية الفكر . والإخاء سبيل التعاون والتراحم وإغاثة الملهوف وتأمين الخائف ، والحرية سبيل الكرامة ورفعة النفس ومحو التفاوت بين الطبقات والتمايز فى المنازل إلا بالعمل الصالح والقول السديد ، والسلام فى الدنيا سبيل الرخاء والسعادة ، وطريق العمل والاستزادة ، وتلك هى الغايات التى طلبت الإنسانية قبل محمد وبعده بلوغها عن طريق العلم والمدنية ، وتمنت أن تصل إليها بهداية العقل البشرى ؛ ولكنها كلما أمضت فى السير ظهر لها أنها مخدوعة فى أمانيها مغرورة فى مطالبها ؛ وإنما سبيل ذلك كله وحى السماء لا وحى الأرض ، وهداية الله لا هداية البشر .

هذه المبادىء العالية التى تضمنتها دعوة الإسلام نزل بهـــا الوحى السماوى فشملت الأرض جميعها ، وشرعها الله فاستقام بها ميزان الخليقة . فالتوحيد ركن من أركان هذا الدين ، وعنوان من عناوينه ، وهو من الكلم الجوامع التى جمعت جوهر الإصلاح لكل مجتمع ، وسر النجاح

لكل أمة ، فهو توحيد الله ، وتوحيد العقيدة ، وتوحيد الغاية ، وتوحيد التشريع ، وتوحيد الدنيا والدين . وفكرة الوحدة الإنسانية هى مزية الدعوة المحمدية على كل دعوة ، وفى سبيلها فرض الإسلام فى أموال الأغنياء حقاً لإخوانهم الفقراء . وشرع الحج مؤتمراً عاماً يجمع شتات المسلمين ويوحد رايتهم ، وأمر بالإحسان والبر ، ثم سوى بين الناس على اختلاف ألسنتهم وألوانهم فى الحقوق والواجبات ، والمزايا والتبعات « لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى » . وفى سبيل هذه الوحدة التى فرضها الله لخير الإنسان اعترف الإسلام بكل دين أنزل ، وبكل نبى أرسل ، ودعا الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً إلى خطة واحدة وكلمة سواء ، ثم وصل الدين بالدنيا ، فلا تعمل الدنيا إلا بوحى من الدين ، ولا تسير إلا بهديه ؛ ثم آخى بين المؤمنين ليجتمعوا على صدق المودة ، ويتعاونوا على لأواء العيش ، فلا يبغى قوى ، ولا يبخل غنى ، ولا يظلم متسلط ، ولا يهضم محكوم . فهل وعى الناس هذا النداء ؟ وهل شمل أهل الأرض نعيم السماء ؟

يا أيها النبى الكريم : هذا شهر مولدك ، وكان الظن به أن يأتى على القلوب فيذكر بما فطرتَ عليه من خلق عظيم ، وعلى الأبصار فيفتحها على ذلك الضياء الذى ملأتَ به نواحى الأرض شرقاً وغرباً . ولكن فى أمتك ناساً نهلوا من شرعتك فلم تشف ما فى أفئدتهم ، ولم تخفف ما فى صدورهم ، يأمرون الناس بالبر وهم عن البر معرضون ، ويدعون

الناس إلى الصراط وهم عنه ناكبون . قد اشتروا دنياهم بآخرتهم ، بل باعوا آخرتهم بدنيا غيرهم ؛ يقولون إنهم أئمة الهدى وماهم إلا فى عمياء ، وقادة الرأى وماهم إلا أدعياء ، باسم الدين يعيشون ، وبسمات العلماء يتصفون قُصارى احتفالهم بك وتعظيمهم لك أن يشتركوا فى المآدب ، ويهيئوا للناس المآكل والمشارب ؛ فإذا سموا عن ذلك رتبة أو ارتفعوا منزلة فإنها الخطب يحبرونها ، والمقالات يسطرونها ، يجمعون فيها ما أنعم الله عليك به من عدل وحلم وفصاحة وعلم وبر ورحمة . وأين هم من هذا كله ! بل أين أقوالهم من أعمالهم ، وسعيهم من خصالهم ؟ ! ولقد علمنا أنك قلت سيكون : فى أمتى ناس يقرءون القرآن لا يتجاوز حناجرهم ؛ فهل هم هؤلاء ؟ وهل أنت سائل ربك أن يستبدل قوماً غيرهم ثم لا يكونوا أمثالهم ، أو مستغفر لهم ربك ، طالب لهم الهداية إلى السبيل المستقيم ، والنهج القويم ، والإخلاص فى الأعمال ، والقصد فى طلب الدنيا ومافيها من لهو ومن باطل ؟ أكبر الظن أنك مستغفر لهم : ولكنهم اقترفوا جللا ، فاضرب لمثابهم أجلا ، عسى أن يثوبوا إلى شرعك فتستقيم الدنيا ويصلح أهلها .

يا أمة النبى الكريم : لقد أظلت الدنيا حولكم محن جوائح ، وإحن فوائك ، لاذت الأمم منها بأقوى قواها ، وأمنع ذراها . ولكنها محن باطشة عاصفة لا يعصم الأمم منها إلا ذرى الأرواح ، ولا يحميها إلا حمى

الأخلاق ، فما بال الناس فى جد وأنتم عابثون ! ومابالهم فى اجتماع وأنتم متفرقون ؟ .

إن هذه الأمة لايصلح آخرها إلا بما صلح به أولها . فاعتصموا بحبل الله جميعاً ولاتتفرقوا ، وتمسكوا بعرى الإسلام ولا تنقضوها ، وأحيوا شريعة ربكم ولاتميتوها ، وجاهدوا أعداءكم بما أوتيتم من قوة وأعدوا للشدائد عدتها ، واتخذوا للأيام النكراء أهبتها ، ولن يصيبكم خير إلا إذا أصلحتم أنفسكم ، وجاهدتم أهواءكم ، فحاربوا شهواتكم ، وتحملوا البذل فى سبيل دينكم ، ينشر لكم ربكم من رحمته ، ويهيء لكم من أمركم مِرفقا . . .

نبوة محمد صلى الله عليه وسلم

الكلام فى النبوة فى مقامين :

المقام الأول :

إمكان النبوة وتصوير كيفية الوحى وأنه لا بعد فيه وبيان أنهم الآن فى أوربة أصبحوا يعترفون به أو بما هو من جنسه .

المقام الثانى :

ثبوت نبوته (صلى الله عليه وسلم) بالبراهين القاطعة .

إمكان النبوة :

تعلم أن فى كل شىء من الأشياء وصنعة من الصنائع وعلم من العلوم وخلق من الأخلاق مثلا أعلى . لأن الناس فى كل ذلك متفاوتون وليس هناك تفاوت يشبه تفاوت أفراد نوع الإنسان حتى أن من فى الدرجة الدنيا يجهل علوم من فى الدرجة العليا تمام الجهل فلا يعرف ذلك إلا بالتوقيف . وربما كان البعد بينهما شاسعاً فلا يعرفه بالتوقيف أيضاً ، وإذا كان ذلك معقولا فى العلوم والصنائع والسياسات فهو فى باب الفضائل والكمالات وطهارة النفوس وعلو الفطرة ورفعة الاستعداد أوضح وأظهر ، حتى أنك لتجد فى هذا النوع الرجل الغبى الذى لا يفرق بين الحق والباطل ولا يكاد يعرف الضار من النافع ولا المهلك من المنجى ، أو تجده شريراً قد تناهى شره فلا يلذ له إلا النقائص والموبقات

وهؤلاء الشريرون هم عقارب نوع الإنسان ، ومنهم من ينقدح فى نفسه الأمور على غير وجهها ولا يكاد يحكم فيها حكماً صحيحاً ، ومنهم الذكى الذى ينظر فى الأمر نظرة صادقة فيعرف بواطنه وخفاياه ويعلم ما سيكون له من أثر وما يترتب عليه من غاية ويتفرس فلا تخطىء فراسته وكأنه يرى من وراء حجب الغيب ما قد خفى على غيره كما قيل :

الألمعى الذى يظن بك الظن كأن قد رأى وقد سمعا

فهذا هو المحدث والملهم أو الذكى والأولى أن نقول هو الطاهر النفس الصافى الذهن ، الرفيع الاستعداد ، القوى الحدس ، فهذه الصفة أو الميزة أو الدرجة التى تعرفونها فى بعض الناس قد تترقى حتى يكون صاحبها مستعداً للتلقى من الملأ الأعلى ، وأهل أوربة لا ينكرون الأخذ عن الأرواح الآن ... فمثل هذا باستعداده الشريف يكاد يعرف جلية الأمر قبل أن ينزل عليه الوحى فنفسه الطاهرة كشجرة مباركة يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار. فإذا جاءه الوحى كان نوراً على نور ، والوحى لا ينزل إلا على صاحب الاستعداد الرفيع الذى يحب الفضائل حباً جماً ويبغض النقائص بغضاً شديداً لأنه يباينها وتباينه فتراه يمقت الظلم والشرك والفساد ويكرهها كراهة ذاتية ، وبالاختصار يحب الحق حباً بالغاً من أعماق قلبه ، ويكره الباطل كرهاً بليغاً من أعماق قلبه كذلك . فعدله ذاتى ، وشفقته على خلق الله ذاتية ومحبته لمكارم الأخلاق ذاتية ، ومعرفته بالله آخذة بكل قلبه ومستولية على جميع

مشاعره ولا يشغله عن ذلك شيء ولا يخالجه فيه شك ولا وهم ولا يعتريه انهزام ولا تردد ... فليس كل إنسان صالحاً للرسالة ولا مستعداً للنبوة وإنما المستعد لها هو الفرد الكامل والمثل الأعلى من ذلك النوع كما قال عز وجل (الله أعلم حيث يجعل رسالته) .

أما الوحي الذى يجهله كثير من الناس أو لا يكاد يصدق به لعدم تصوره إياه حتى قال لى بعض الكبراء : لو انحلت مشكلة الوحي لزالت عقبات كثيرة تعترضنا فى سبيل التصديق بالنبوة فإنه لا يمكننا أو لا يمكن أبناء هذا العصر الحاضر أن يصدقوا بما لم يفهموا . نقول : أما الوحي الذى بلغ من الصعوبة فى بعض العقول هذا المبلغ فأمره واضح إلا عند من يقف مع ما ألف ولا يؤمن إلا بما عرف ، فإن الوحي عبارة عن إلقاء الملك فى الروع شيئاً من الأشياء . ومن ذا ينكر الإلهام الذى يقع فى القلوب المستعدة بغير نظر وفكر فى كل الطبقات من أفراد هذا النوع حتى الطبقات الدنيا منها فيما هو مستعد له ، فضلا عن العلياء . وقد أثبت ذلك المناطقة وسموه حدساً ، وقالوا إن الحدس ليس فيه ترتيب أمور معلومة ليتوصل بها إلى أمر مجهول كما هو شأن النظريات ، ثم نقول من ذا الذى يجعل المعارف الإنسانية كلها قصراً على ما ينتجه الفكر والنظر بعد ما أثبت علماء التنويم المغناطيسى بالأدلة المحسوسة التى يمكن كل إنسان أن يشاهدها أن المنوم بعد أن يبطل حسه وتتخدر أعصابه تخدراً تاماً فلا يمكنه أن ينظر أو يفكر حتى أنه لا يسمع

أصوات المدافع ولا يتأثر بشيء من الأشياء، يأتى فى هذا الحال بما لا يصل إليه فكر ولا نظر وقد أصبح الجدال فى ذلك جدالا فى المحسوس فلاحاجة للإطالة فيه والاستدلال عليه بل نقول : من ذا الذى ينكر الرؤيا الصادقة وقد وجدت فى كل أمة وأثبتها علماء كل ملة بعد التجربة والمعاينة، والمقام لايحتمل كثرة الاستشهاد . وليس غرضنا فى هذه العجالة أن نلم بكل ما يتطلبه الموضوع فى نقطة من نقطه، فإن ذلك يحتاج إلى مقالات عديدة ، على أن من لا ينفعه القليل لا يفيده الكثير ولا بأس أن نقول للمؤمنين بالقرآن : إن سورة يوسف فيها من الرؤيا الصادقة (رؤيا يوسف عليه السلام ورؤيا الملك) وإن شئت فقل رؤيا صاحبي السجن ، وعلماء الأرواح الآن يثبتون ما هو أكثر من هذا (وإن شئت أفردنا ذلك بمقال ضاف) .

أما الملك الذى ينزل بالوحى ويكلم الأرواح فلا معنى لإنكاره والحكم بعدم وجوده فإن الحجة فى ذلك الإنكار إنما هو كون العلم يثبته (كما يقولون) وهل كل ما لم يصل إليه العلم غير موجود (اللهم إن العلم يكذب ذلك) فقد كنا نجهل الميكروبات منذ زمان قريب أفكان جهلنا بها موجباً لعدم وجودها ! أم كانت موجودة فى الواقع على الرغم من هذا الجهل ، وأى معنى للبحث والتنقيب الذى يتقدم به العلم يوماً فيوماً إذا كان الأمر على ما ظنوا !!

ومن ذلك الجاهل الذى يزعم أنه أحاط بكل العوالم وعرف ما فى الوجود ؟

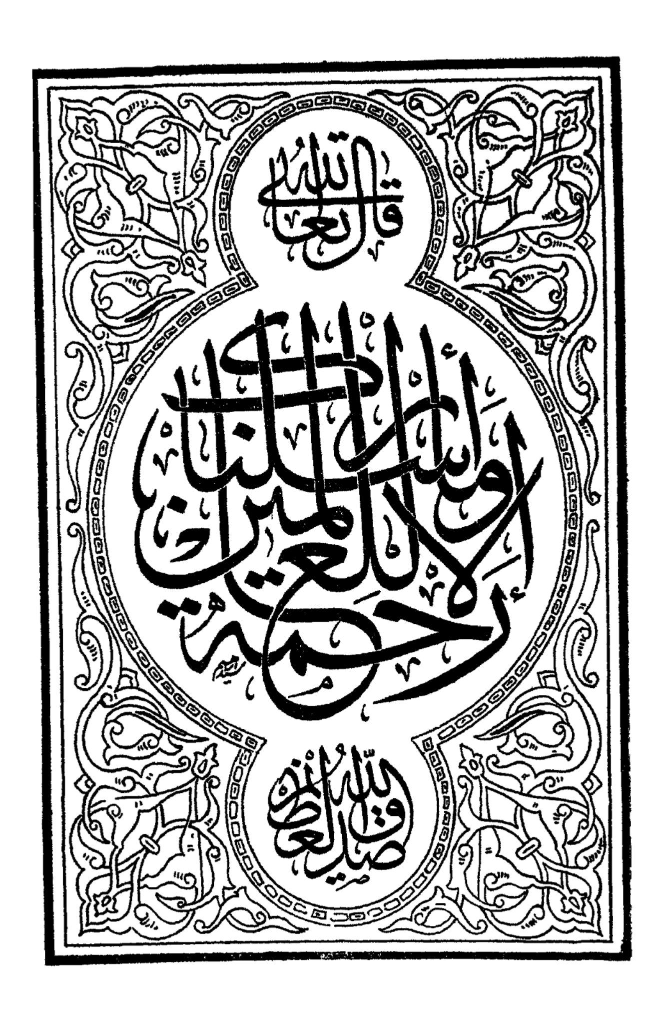
ألم يقرر العلماء والفلاسفة أن عدم الدليل ليس دليلا على عدم المدلول ، على أن علماء الاسبرتزم (استحضار الأرواح) الذين اشتغلوا بالمسائل الروحية أثبتوا بالمشاهدات المتكررة والحوادث المتواترة أن هناك عالماً وراء عالم الطبيعة قد خرق لهم كل نواميس المادة وما قرروه من ذلك وقد أصبح ذلك عندهم لمس اليد ورأى العين (وستعرف أن علم الطبيعة برىء مما نسبوه إليه وافتروه عليه) وسنبين أن له دائرة خاصة لا يتعداها وأنه هو نفسه يكذب هؤلاء المتفيهقين الجاهلين . فإذا كان ذلك معقولا بل محسوساً فى غير الأنبياء فما بالك بالأنبياء وهم المثل الأعلى لذلك النوع !

هذا وقد ذكر علماؤنا للوحى كيفيات كثيرة ولكن نقتصر منها على كيفيتين ذكرهما الحديث الصحيح الذى رواه الإمام البخارى ، وهما فى غاية الوضوح لكل من يريد الحق لا التعصب والعناد ، أحدهما أن يرتفع النبي (صلى الله عليه وسلم) عن المستوى البشرى إلى المستوى الملكى (وروحه الشريفة مستعدة لذلك تمام الاستعداد . فإن علاقتها بالملأ الأعلى أكثر وأتم من علاقتها بعالم المحسوسات) والروح فى أصل خلقتها مناسبة لخلقة الملك وربما كانت أرفع منه قدراً وأعظم منه سرا ، والملك إذ ذاك يكون على حالته الملكية ولكن يصح أن يراه الرسول

وهو على هذا الحال لأنه إنما ينظر إليه ببصر الروح عند تجرده عن الغواشي البدنية ومفارقته للعوالم المادية، وأما جلساؤه فلا يرونه لأنهم لم يتجردوا من ملابسهم الطبيعية ومحيطاتهم الكونية، ويقرب هذا بعض التقريب ما نشاهده من أحوال المنوم تنويماً مغناطيسياً فإنه يرى ما لا يراه الحاضرون لأن السلطان فيه للروح فهو يرى بحواسها لا بحواس البدن، وأما حاضروه فالمستولى عليهم هو سلطان الجسم لا سلطان الروح، ونقربه من وجه آخر فنقول: لا بدع فى تغير الأحكام بتغير الأطوار والأحوال حتى تصل إلى حد التباين. فإن الثلج إذا كان جامداً كان له حكم الجامدات فإذا أذبناه بقليل من الحرارة كان له حكم السوائل فإذا صيرناه غازاً كان له حكم الغازات. وإذاً فما الذي يستنكر من تغير الأحكام بتغير الأحوال؟ ويكفى هذا لمن أنصف ولم يتعسف!

أما الكيفية الثانية للوحى فهى أن يتنزل الملك من سماء الملكية إلى أرض البشرية فيتمثل رجلا فيكلم النبي بلسان الأشباح لا بلسان الأرواح وفى هذه الحال يراه كل من حضر ويكون النبي على حالته العادية وصفاته البشرية (كما فى حديث الإسلام والإيمان والإحسان).

وقد أعطى الملك القدرة على هذا التمثل ولا معنى لأن تنكر ذلك قياساً على ما تعلمه من نفسك فإنك لا تعرف إلا أحكام عالمك، ومن الغلط البين أو الجهل الشائن أن تحكم بأحكام عالم على عالم آخر.


قال الله تعالى
وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين
صدق الله العظيم

رسول من أنفسكم

قال الله تعالى وهو أصدق القائلين :

« لَقَدْ جاءكم رَسُولٌ من أنفُسِكم عَزِيزٌ عليه مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عليكُمْ بالمؤمنينَ رؤوفٌ رحيمٌ ، فإن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللهُ لا إله إلا هوَ عليه توكلتُ وهو رَبُّ العَرْشِ العَظِيم » .

لقد كتب الناس ، ولا يزالون يكتبون ، عن سيرة سيد العالم ، النبي الأمي ، محمد بن عبد الله (صلوات الله وسلامه عليه) .

ولكنهم على كثرة ما كتبوا . وعلى كثرة ما سيكتبون ، لم يبلغوا ولن يبلغوا فى وصفه (عليه السلام) ولا فى إظهار حقيقته ما وصفته هذه الآية ، على وجازتها واختصارها وقلة كلماتها .

ذلك أن محمداً عليه السلام ، ليس من السهولة واليسر ، أن يتعرّف على حقيقته إنسى ، مهما كان فى علمه ، ودقة إدراكه ، وتصوره .

لقد بلغ النبي ﷺ فى سموه الروحى ، أسمى مراتب الكمالات ،

وحلق فوق مستوى الأوهام والخيالات ، فأصبح بعيداً عن حدود الإمكان أن يحيط به قاصر عاجز من بنى الإنسان .

وهل باستطاعة هذا المسكين الضعيف أن يصل إلى الشمس ، ومن يدرى لعله إن وصل إليها أحرقته نارها ، أو عشته أنوارها .

أيها الإنسان : إنك أمام الحقيقة المحمدية ، أمام نور الأنوار وشمس العوالم ، أمام الفضل ، والنبل ، والطهر ، والخلق ، والعظمة ، والكرامة الذى تجسم وتجسد ، فكان ذاتاً بشرية ثم كانت محمداً بن عبد الله ﷺ .

أيها الإنسان : إنك حينما تحاول أن تصف سيد العالم أو تكتب عنه كنت كمن يريد أن يجمع أقطار السموات بين ذراعيه ، أو يضع محيطات البحار فوق كفيه .

إنما مثلوا صفاتك للنـــــاس كما مثل النجوم المـاء

أما الحقيقة المحمدية فإنما يعلم أسرارها وما انطوت عليه من إنسانية وسعت الإنسانية كلها ، من أبدعها خير إبداع ، وأنشأها خير إنشاء ، ذلكم هو رب محمد ، هو الله رب العالمين .

ذلكم ، هو الذى اختص بمعرفة (سيد العالم) ، لأنه هو الذى (كوّنه) على ما أحب ، (ونشأه) كما أراد ، (وصيره) بشراً (وبعثه) رسولا ، (وجعله) رحمة للعالمين .

وهو الذى يعرف عباده بسيد العالم بتعريفات ، يقربها إلى أفهامهم ويتنزل معهم إلى مداركهم البشرية ، ورحم الله صاحب النظر البعيد

حيث يقول :

فمبلغ العلم فيــه أنه بشر وأنه خــير خلق الله كلهم

يارب محمد ! اكشف لنا عن بعض الأستار ، حتى نحظى بقبس من هذه الأنوار ، من نور محمد .

يارب محمد ! أزل عن عيوننا الغشاوة ، وعن قلوبنا العماية ، لنكون أحباباً لمن أحببت ، مقربين عند من قربت ، لسيد العالم .

* * *

رجوع إلى الآية

ها هو ذا كلام الله يصفه عليه السلام فى هذه الآية بخمسة أوصاف كل وصف منها لو أفرد بمجلد ، لوسعه ، أو اضاق به .

لقد جاءكم رسُولٌ من أنفسكم :

إنه يمتن على (العرب) بأنه جعل الرسول من أنفسهم ، بل ويمتن على (العالم الإنسى وعلى البشرية جمعاء) بأنه جعل سيدالعالم منأنفسهم .

لقد كان شرفاً للعرب أن يكون سيد العالم عربياً ، ولقد كان شرفاً للإنسانية كلها ، أيضاً أن يكون سيد العالم بشراً إنسياً .

لقد كان شرفاً لهؤلاء وهؤلاء أن تكون هذه الجوهرة الإلهية ، وهذه اللطيفة الربانية ، وهذه الحقيقة المحمدية ، مصوغة بهذا القالب (العربى الإنسى) .

ليكون فى ذلك ، فخر العرب ، بهذا الرسول العربى ، وليكون

فى ذلك فخر للنوع الإنسانى ، بهذا الرسول الإنسانى .

لقد جاءكم رسول من أنفسكم :

قد تضمنت سيرة الرسول بأكملها ، قبل البعثة .

خمس كلمات تضمنت سيرة أربعين سنة من حياته ، بل وسيرة مئات السنوات ، من حياة آبائه وأمهاته وأجداده وجداته .

بل سيرة المحيط كله من جماعته وقبيلته ، وسفره وإقامته ، ودقائق سيرته ، وكل مايتعلق بسيرة سيد العالم ﷺ .

كأن هذه الآية صرخة استغراب من أولئك الذين وقفوا موقف التكذيب ، أو وقفة الاستكبار ، أو موقف الحيرة والتردد من دعوة سيدنا محمد ﷺ .

كأن الآية تقول لهؤلاء : لو كان محمداً غريباً عنكم بعيداً عن وطنكم أو مجهولا بينكم ، أو مغموزاً بعيب ، لو كان شيء من ذلك لحق لكم أن تقفوا منه موقف التكذيب أوموقف الاستكبار أوموقف التردد .

أما وإن محمداً ذلك الذى عاش بينكم أربعين سنة عرفتم فيها دقائق حياته وخبرتموه فى كل شيء ، وقد كان بينكم كالشمس اللامعة الساطعة يشار إلى أمانته بالبنان ، وإلى صدقه كالعلم ، ويضرب المثل بعد ذلك بطهره وخلقه ونبله وشجاعته وكرمه وبره .

ويمد كل هذه الأوصاف جذور عميقة عريقة بالمجد من سلالة طاهرة هاشمية قرشية ، حتى لكأن كل واحد من آبائه وأمهاته قداختير اختياراً

ليكون فى مكانه المختار له

حلقات بعضها وراء بعض لتنتهي هذه الحلقة بالغاية منها وبالمقصود من إيجادها واختيارها لتنتهى بسيد العالم ، ولتكون هذه المقدمات لهذه النتيجة المحمدية .

أما وإن سيدنا محمداً كذلك ، أما وإن سيد العالم كذلك ، فقد كان جديراً بأن تقابل دعوته بالتسليم ، ورسالته بالقبول وأوامره ونواهيه بالرضا والاطمئنان .

وكأن هذه الآية تقول : إن محمد الذى عرفتموه وكفى .

وهل يحتاج محمد بعد معرفته أربعين سنة إلى معجزة على أنه رسول، أو إلى آية على أنه نبي ؟

لقد كانت حياته فى هذه الأربعين سنة معجزة ، بل كانت كل سنة من هذه الأربعين معجزة .

لقد كان محمد ﷺ كتلك الشجرة الوارفة الظليلة ، ذات الأغصان والأفنان ، القائمة (وحدها) وسط تلك البيداء اللافحة لسعيرها ، القاتلة بسمومها ، الجرداء من الحياة ونسائم الحياة .

نعم كان سيدنا محمد كذلك ، وكان قومه ومحيطه كتلك البيداء .

لقد ارتفع بعقله وهو صبي دون الحلم ، عن أن يسجد لصنم ، صنع من حجر ، أو نحت من صخر أصم ، وقومه سدنة تلك الأصنام والدعاة إلى تلك الأوثان ، بل مفخرة قومه التى كانت تتقطع لها أشراف العرب

أنهم سدنة الأوثان ، والأصنام ، بل لقد كان كبار العقلاء ، وفحول الصناديد من كافة أنحاء الجزيرة العربية يحجون إلى هذه الأوثان ، ويضعون رؤوسهم التى تحمل عقولهم تحت أرجل أوثانهم .

أليست معجزة ، أن يكون يتيم أمى ، فقد عطف الآباء ، وحنان الأمهات ، لايجد المربى الشفيق ، الذى ينشؤه على الخير ، ويعوده على الطهر ، ويربيه على الكمال ؟

لا يجد الهادى ولا المرشد ، ولا المعلم ولا المهذب ؟

ثم تراه بعد ذلك كأنه مجبول على الخير ، مفطور على الكمال مدفوع إلى الخلق الكريم دفعاً ، كأن غرائزه قد ركبت من غير ما ركبت عليه غرائز الناس ! يرى الناس يعاقرون الخمر صباح مساء ، فلا يرى داعية إليها ، بل يرى نفسه أنه نافر منها ! ثم يرى الناس عبيداً لشهواتهم مقادين بسلاسل الملذات الحيوانية ، فلا يرى ذلك من مذهبه بل لكأن غرائزه عليه السلام قد طبعت على غير ما طبعت عليه غرائز الناس .

فإذا كانت غرائزهم تدعوهم إلى الشر والشهوة ، فإن له فى غرائزه طهراً وشرفاً يدعوانه إلى الخير ، ويقودانه إلى الشرف والطهر ومكارم الأخلاق ، ومعالى الأمور .

أليست معجزة أن يدعى اليتيم بالأمين . وأن يعرف بالصدق ، وأن يوسم بالكمال ، وأن ينظر إليه الناس نظرتهم إلى الشىء النادر الغريب : الوحيد الفريد : أو نظرتهم إلى الوردة الفواحة وسط الشوك والحنظل ؟

أليست معجزة أن يترك محمد — ابن مكة القرشي !! — أصنام مكة وآلهة قريش ، وأرباب العرب ، فيصعد الجبل ليختلي هناك برب العالم ، وليهزأ من هناك بهؤلاء الناس وبعقولهم وبآلهتهم المزعومة ، وليتأمل في ملكوت السموات والأرض ، وليترقب انبثاق النور وإشعاع الفجر من نور السموات والارض ؟

ذلكم هو معنى قوله تعالى :

﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم ﴾ .

إنها لمنة وأى منة ، إن الفخر كل الفخر فى اتبـــاع هذا الرسول المعروف ، والعيب كل العيب ، فى البعد عن دعوته ، وعدم الاهتـداء بهديه ، إنه رسول من أنفسكم .

وكأن هذه الآية ، قارعة وتقريع ، لأولئك الجامدين ، المتحجرين الذين فقـدوا كل شيء ، حتى عاطفة القرابة ، حتى عاطفة المعرفة ، حتى عاطفة الإنسانية .

لقد كانت معرفتهم بمحمد ﷺ توجب تصديقه ، فما فعلوا . ولقد كانت قرابتهم لمحمد ﷺ توجب تصديقه ، فما فعلوا .

وأخيراً لقد كانت إنسانية محمد ﷺ كافية لتعرف الناس جميعـاً ، وأهل الإنسانية جميعاً ، فكأن الآية تقول : هذا نبي الإنسانية فاتبعوه هذا رسول من أنفسكم (أيها الناس) .

لو أن الحقيقة (المحمدية) قد صاغها الله على شكل ملائكى ، أو قد

لبست ثوباً ملائكياً ، ثم كان داعياً إلى الله لكان للناس أن يقولوا : إنه ملك ، إنه من غير جنسنا ، ومن غير طينتنا وطبيعتنا ، وهكذا يرون أعماله ، وصفاته ، وكمالاته ، وينصرفون عن كل ذلك ، بداعى المخالفة والمباعدة ، ودعوى عدم التجانس والمجانسة .

ولكن الحقيقة المحمدية جاءت على صورتها البشرية ، ليثبت لهم ، أن الطبيعة البشرية فيها ما ليس فى الطبيعة الملائكية ، من الاستعداد للكمالات والعلو فوق الكمالات أيضاً .

ذلكم قوله تعالى : ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم ﴾ .

﴿ هُوَ الذى بَعَثَ فى الأُمِّيِّينَ رسولاً منهُمْ يَتْلُو علَيْهِم آياتِهِ ويُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ والحِكْمَةَ وإن كانوا من قَبْلُ لَفِى ضلالٍ مبين وآخَرِينَ منهمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بهمْ وَهُوَ العزيزُ الحكِيمُ ﴾ .

صفة محمد

وعلاقتها بطبيعة دعوته

أعلم أرشدنا الله وأرشدك ، وأيدنا بالحق وأيدك ، أن أصول الفضائل ، وجراثيم الرذائل ، معروفة متواضعة من الزمان الأقدم . فالصدق ، والشجاعة ، والنجدة ، والعدل ، والكرم ، والوفاء ، مسلم عند كل قوم وفى كل زمان بأنها من غرائز الخير ؛ كما أن الكذب ، والجبن ، والفسولة ، والظلم ، والبخل ، والغدر ، مسلم عند كل قوم وفى كل زمان ، بأنها من ضرائب الشر : فإذا اختلفت أقوام على بعض الخلال أو الهنات ، فإن شيئاً من ذلك لا يصيب أصول الأخلاق ، وإنما يتعلق بفروعها ؛ ولعل أبلغ ذلك يرجع إلى اختلاف التقدير فى رد الفرع إلى أصله ، وضم الشكل إلى شكله .

وإذا كان هذا هكذا ، كانت خلال الخير محبوبة مستجادة ، وكانت خلال الشر مرذولة مبغضة فى كل زمان وفى كل مكان ، وكان الناس أحرياء بأن ينتحلوا كرائم الأخلاق ، ويتنافسوا جاهدين فى ذلك ، ضرورة أن الإنسان لا يكره الخير لنفسه ، بل إنه ليود أن يؤثرها بكل كريم وكل جميل .

هذا كله بديهى لا شك فيه ؛ على أنك كثيراً ما يتداخلك العجب ، وترجحك الحيرة ، إذ ترى رجلا حاد الفطنة ، نافذ الرأى ، واسع العلم .

يتجافى عن كثير مما يعلم أنه من أفضل الفضائل ، ويتقلب فى كثير مما يجزم بأنه من أرذل الرذائل ، لا ينكسر ذلك على شأن المؤمن فى أحكام الدين ، ولا المربىء فى قواعد المروءة . بل إن الأمر ليتجاوز ذلك إلى الأسباب العامة والمنافع الخاصة ، فكأى من رجل يؤمن أشد الإيمان بأن ما جاء به الدين هو الحق ، ويجزم كل الجزم بأن الصلاة واجبة على المؤمن ، ومع هذا تراه لا يقوم للصلاة قط ، ويقطع فيما بينه وبين ربه . والناسى أن الخمر حرام ، وأنها أم الخبائث ؛ ومع هذا لا ينفك يعاقرها ما تهيأ له ذلك .

وكأى من رجل يحذق قواعد الأخلاق ، ويعلم أن الكذب مما يسقط المروءة ويضع من المنزلة فى الناس ؛ ومع هذا تراه لا يفتأ يكذب ولقد يعلم أن الناس يعرفون أنه يكذب .

وكأى من رجل أوتى البصيرة فى فن الاقتصاد ، وتدبير الأموال ووجوه تثميرها ؛ ومع هذا تراه مسرفاً متلافاً لا يبقى على قليل ولا كثير ، ولقد يعالج فى تثمير المال ضرباً لا يأذن به ما حذق من علم ولا ما أصاب بطول التجاريب !

اللهم إن هذا كله لقد يقع ؛ بل إنه لواقع بقدر كبير . إذن لقد خرج لنا من هذا أن ليس هناك تلازم فى العادة بين الفعل والاعتقاد ، أو على التعبير الشائع ، بين العلم والعمل . قال جل من قائل : « أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم » . وقال تعالى : « ومن أعرض

عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى . قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيراً قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى » .

ولقد عرفت أن الإنسان بطبعه أثر يود لو استقل بكل ما فى الدنيا والآخرة من ألوان الخير والإحسان ، إذن فما ينحرف به عن سبلها ، ويعدل به عن طلبها من وجوهها ، إلا ما يعتريه من ضعف الإرادة ، ويدخل عليه من انخذال العزم ، فيستسلم لنزعات الهوى ، ويخنع لدواعى الشهوة ، فيعرض عما يعرف أنه الحق المجدى عليه فى أسباب دنياه ودينه ، ويقبل على ما لا شك عنده فى أنه باطل من الباطل المتلف لماله ، والهادم لبنيته ، والذاهب بأمر دينه ودنياه جميعاً .

وكأى من رجل أصاب من الفضائل صدراً ، وأخطأ صدراً ؛ وأقام من أحكام المروءة على بعض ، وأعرض عن بعض ؛ فهذا تراه يقيم الصلاة ويؤتى الزكاة ويؤدى حق الصوم فى رمضان ، ومع هذا تجده لا يتأثم من شرب الخمر أو من مقارفة غيرها من المناكر . وهذا لقد تراه شجاعاً لا يهاب صولة السيوف ، ولا يرهب مواقع الحتوف ، ومع هذا تراه حريصاً على جمع المال واكتنازه والضن منه بالدوانق والسحتوت حتى على ما يحفظ أطراف المروءة ويعصم من سوء القالة .

ولقد ترى هذا جواداً متلافاً يفتدى بجليل الأموال ما جل ودق من أسباب مروءته ، ويطلب بها حسن الأحدوثة فى الناس ؛ ومع هذا

تراه حقوداً شديد الطلب لمعايب الناس والتدسس إلى مكارههم ، وبسط اللسان بمنكر القول فيهم ؛ وهكذا . وأولئك ممن يجرى عليهم قول الله تعالى : « خلطوا عملا صالحاً وآخر سيئاً » .

ويخرج لنا من هذا أيضاً أن ليس هناك تلازم بين مجموعة الفضائل ، ولا بين مجموعة الرذائل ؛ والوجه فى ذلك أن الإرادة البشرية قد تقوى فى بعض نواحيها وتضعف فى بعض ، فمن حيث تكون القوة تستوى الفضيلة ، ومن حيث يكون الضعف تستمكن سطوة الرذيلة .

هنالك أيضاً مسألة ثالثة ، هى الدعوة ، فإن كثيراً من الناس يتجردون فى الدعوة إلى لون من ألوان الخير أو ما يزعمونه كذلك ، ومن الدعاة من تصدر دعوته عن إيمان وعقيدة ، وبعبارة أخرى ، أنه يطلب إلى غيره فعل ما يعلم أن فيه الخير والنفع ، وينهاه عما يعلم أن فيه الشر والضر ، ومنهم من يدعو إلى ما لا يعتقده ولا يؤمن به ، وأولئك الدجالون الذين لا يخلو وجه الأرض منهم فى كل زمان . على أن بسط الحديث فى هؤلاء ليس مما تدعو إليه حاجة هذا الكلام ، ومهما يكن من شىء ، فالمفروض أن من يدعو غيره إلى ما يؤمن بأنه خير من الخير ، وينهاه عما يجزم بأنه شر من الشر . المفروض أن من يقوم لمثل هذا يأخذ نفسه به أولا ، لأن الإنسان — كما أسلفت عليك — أثر بالطبع ، لا يحب أن يتجاوزه الخير والنفع إلى غيره ، ولا يحب أن يستأثر بالشر والأذى دون غيره . ولأن من

يدعو سواه إلى شيء فإنه يكون فى العادة وثق بأسبابه علماً وأسنح به إيماناً . ومع ذلك فإننا نرى كثيراً من الدعاة إلى الخير الصحيح من يخالفونه إلى الشر الصريح ، مع أنه لا شك فى إيمانهم بحق ما يدعون إليه ا وأولئك الذين وجه الله تعالى خطابه عليهم « أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون » .

والواقع الذى لا يطوف به الريب أن هؤلاء لا يكرهون لأنفسهم الخير والنفع ، ولا يحبون لها الشر والضر ؛ ولكنه ضعف الإرادة يسطو به الهوى ، وانخذال العزم تعصف به الشهوات. على ما تقدم به الكلام .

وعلى كل حال فقد بان لك أن هذه الخلال الثلاث : (الإيمان ، والعمل ، والدعوة) لا تلازم بين شيء منها وبين شيء . على أن هذا لا ينافى أن امرأ يعمل بما يعلم ، وأن امرأ يدعو إلى ما يؤمن ، ويكون فى أخذه نفسه بالفضيلة القدوة الصالحة فيما يدعو إليه من فنون الخير . وهؤلاء الأقلون عدداً الأكثرون مدداً .

عصمة الأنبياء

ومهما يكن من شيء فإنه من أندر النادر أن يخرج فى الناس من تحلى بجميع الفضائل ، وتجرد عن جميع الرذائل ؛ فإن هذا إذا استثنيت الأنبياء وخاصة أصحابهم وحواريهم مما يكاد يتصل بالمستحيل . وإن

التاريخ البعيد والقريب ليحصى على الكثيرين من عيون الفلاسفة وأئمة المصلحين من بناة الفضيلة وشارعي قواعد الأخلاق ، من تقلبوا فى أوضع الشهوات ، وانغمسوا فى أقذر الرذائل ! ذلك بأن الإنسان مهما أوتى من سعة العلم ، وصحة الرأى ، وحسن التدبير ، وصدق العزم ، فإنه ضعيف ، لقد يميل به الهوى ، ولقد تغلبه الشهوة . قال تعالى : « وخلق الإنسان ضعيفاً » .

أما الأنبياء ففضلا عما آتاهم الله من شدة العقل ، ونفوذ الفطنة ، وسعة العلم ، وقوة الطبع ، ومضاء العزم ، فقد أمدهم بالتوفيق، وحاطهم بالعصمة ، وكف عادية الشهوات عنهم ، فما تجد السبيل إلى أنفسهم . وهيهات لشيء من خلق الله أن يسطو بما قضى الله .

ولله تعالى فى هذا حكمته الواضحة ، فإن الرسول هو أداته - جل وعلا - فى تبليغ دعوته ، وأداء رسالته ولا يتسق للحكمة ألا يكون رسول الله أول قائم بما يأمر الناس به ، وأول مجتنب لما يزجرهم عنه « وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه » . ولقد قال الحكماء : إن فاقد الشيء لا يعطيه . إلى أن الأليق برسول الله أن يكون فى الناس المثل الأعلى فى الأخذ بمحمود الخلال ، والتجافى عن مرذول الخصال . والرسل إنما يبعثون أولا للدعوة إلى الإيمان بالله ولتقويم الأخلاق . قال صلى الله عليه وسلم : « بعثت لأتمم مكارم الاخلاق » . هذا فضلا عن أنه لو تردى النبي (حاشا لله) فى أى الرذائل ، لكان فى ذلك أنفذ الطعن

فى صحة دعوته ، وصدق رسالته ، وهيهات على ذلك ان يؤمن برسالته أحد ، أو يظاهره على أمره إلا منافق لا يشايعه فى ظاهر الأمر إلا إيثاراً للعاجلة ، لو قدر أن الدولة دائلة له ، وأن منافع الدنيا صائرة إليه . وما كان قط لمشايعة هؤلاء فى أمر الدعوة العظيمة جليل خطر ، ولا بعيد أثر .

ولقد تعلم ما أصاب الأنبياء من عنت قومهم ، وشدة حملهم عليهم ، وتلوينهم العذاب لهم ، إلى حد القتل والتحريق وما دون ذلك من فنون الأذى . ومع هذا فقد صبروا وصابروا ، ما يمسكون عن رسالتهم ، ولا ينفكون عن تبليغ دعوتهم ، ولا ينزلون على حكم كذبة واحدة تستنقذهم من كل ذلك البلاء . فى حين أن أحداً منهم لا يبغى بقيامه مالا ولا جاهاً ولا سلطاناً ، حتى يقال إنهم إنما يجازفون بذاك كله فى سبيله . ولقد يجيء أحدهم المال والجاه والسلطان ، فيأبى إلا شظف العيش وإلا حياة المساكين . وفى حال داود وسليمان عليهما السلام أكرم الأمثال ، وناهيك بدعوة محمد صلى الله عليه وسلم : « اللهم أحيني مسكيناً ، وأمتني مسكيناً ، واحشرني فى زمرة المساكين » . وستعلم مما سيرد عليك من بعض شأنه فى هذا الباب ، أنه لو شاء لعاش فى أخفض عيش وأرغده ، وتقلب فى أهنأ حال وأسعده .

لقد تعلم هذا ، وتعلم أن أيسر آلات الأذى ، وأدناها مثالا ، وأشيعها أثراً ، وأقلها كلفة إنما هى الطعن والتجريح والدمغ بفنون آلهم ،

وخاصة فيمن يقومون بدعوة دينية . ومع هذا كله لا ترى الكفار من أعداء أصحاب الرسالات يعتمدون تنقص أنبيائهم والمبعوثين فيهم من ناحية أخلاقهم ، بنسبة الرذائل إليهم وادعاء تعطلهم من الفضائل ؛ على أن دعوة الرسل إنما تقوم على تسفيه أحلامهم وتقبيح سيرهم ، ومباداتهم برذائلهم ، إلى ذم معتقداتهم ، والزراية على آلهتهم . كل أولئك والكفرة من عداتهم لا يلقونهم فى هذا الباب إلا بتهمة واحدة ، هى تهمة الكذب فيما بعثوا به ، ونحو هذا من إضافة السحر وما يشبه السحر إليهم ، وذلك مما ينسق لحكم المنطق العام ، فإنهم لو آذنوا باستراحتهم إلى تصديقهم ، ونزهوهم عن رذيلة الكذب فى دعوى الرسالة للزمتهم الحجة ، ولم يبق لهم مناص من التسليم إليهم والإذعان لهم : أما تحرجهم من الطعن فى سائر خلالهم ، فلأن نشأتهم - عليهم السلام - فى الكمالات، وانطباعهم مدى محياهم على أعالى الخلال ، وطول تنزههم عن أدانى الرذائل فضلا عن قواصيها وأنهم لم يؤخذ على أحد منهم مدى العمر زلة ، ولم تحص عليه فى هذا الباب جولة ، واشتهارهم ، بهذا عند كل من لابسهم ، وشيوعه فيمن لم يتصلوا بهم ؛ كل ذلك مما يجزم عداتهم بأنه لا يمكن أن يبعث فيهم معه قيل ، ولا يجعل لقالة السوء إليهم أى سبيل.

أما حواريوا الأنبياء وخاصة أصحابهم ، فإن مما لا شك فيه أنه لا يمكن أن يبلغ منهم هذا الموضع ، وينزل عندهم هذه المنزلة إلا من حباه الله بقوة الإيمان ، وشدة النفس ، وكمال العقل ، وقوة العزم ،

وإيثار الآخرة على كل منافع الدنيا ، حتى لترى هؤلاء يخرجون ، فى سبيل تأييدهم ونصرتهم ، عن كرائم أموالهم ، ويصارحون بالعداوة أبناءهم وأدنى أهليهم منهم ، ولقد يتقدمون إلى سفك دمائهم طيبة بذلك أنفسهم . إلى أن لزامهم للرسل الكرام ، وطول اتصالهم بهم حقيق بأن يجدد الإيمان فى قلوبهم ، ويذكى خشية الله فى نفوسهم . وهذا فضلا عن يقينهم بوثيق الصلة بين الرسول وربه الذى لا يخفى عليه ما تطوى الصدور وما تجن القلوب . « ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ، ولا خمسة إلا هو سادسهم ، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أين ما كانوا ، ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شىء عليم » ، « ربكم أعلم بما فى نفوسكم » ، « إنه عليم بذات الصدور » . وذلك ما يدعوه أصحاب الكلام : العصمة الجائزة ؛ كعصمة الشيخين أبى بكر وعمر رضى الله عنهما . أما عصمة الأنبياء عليهم السلام فالعصمة الواجبة .

وبعد ، فإنك لو تتبعت سير الأنبياء عليهم السلام ، وتقصيت أخبارهم وما أثر من أسبابهم فى كل أمورهم ، لترادفت عليك الحجج بأن ما رزقوا من سلامة الخلال ، وجلالة الأخلاق ، لا يمكن إلا أن يكون بمدد من الله تعالى وتوفيق وعصمة .

ولقد تقدم الكلام فى أنه ما من رجل عرف بأنه قد اجتمعت له كل غرائز الخير . وتنزه عن جميع ضرائب الشر ، غير الأنبياء عليهم السلام فقد طهرهم الله تعالى ، وكف كل رجس عنهم ، من يوم سواهم إلى يوم قبضهم .



كتبها محمد حسني الخطاط بمصر سنة ١٣٦٣ هـ

أخلاق محمد صلى الله عليه وسلم

إن من صفاته الجديرة بالنبوة الرقة والاحترام اللتان كان يعامل بهما أتباعه حتى أقلهم شأنا . فالتواضع والرأفة والأناة وإنكار الذات والسماحة والسخاء تغلغلت فى نفسه ووثقت به محبة كل من حوله .

وكان يكره أن يقول لا ، فان لم يمكنه أن يجيب الطالب لسؤله فضل السكوت عن الجواب وقد قالت عنه عائشة « أنه كان أشد حياء من العذراء فى خدرها وكان إذا أساءه شيء تبيناه فى أسارير وجهه أكثر من كلامه ولم يمس أحداً بالضرر الا فى سبيل الله » . ويؤثر عنه أنه كان لا يمتنع عن إجابة دعوة الى بيت مهما كان حقيراً أو يرفض هبة مهداة إليه مهما كانت صغيرة ، وإذا جلس صاحبه لم يرفع نحوه ركبتيه تشامخاً منه وكبرا وكانت له تلك الخلة النادرة التى يجعل بها كل فرد من صحابته يظن أنه المفضل المختار . وكان يرثى كثيراً للشكلى والمنكوبين كما كان سهلا لين العريكة مع الأطفال لا يأنف إذا مر بطائفة منهم يلعبون أن يقرئهم تحية الإسلام . وكان يشرك غيره فى طعامه حتى فى أوقات العسر والإملاق ويهتم جهد الطاقة بتوفير أسباب الراحة لأنصاره وتابعيه . وكان صديقاً وفياً أحب أبا بكر محبة الشقيق الودود وعلياً محبة

الآب الرؤوف . ومما يذكر أن زايدا الذى كان عبد خديجة كان متعلقا بالنبي تعلقاً شديداً لعطفه عليه حتى أنه آثر البقاء بمكة على أن يعود لبلده مع أبيه وتعلق بأهداب النبي قائلا لست تاركك وقد كنت لى أبا باراً عطوفا . وقد بقيت صداقة محمد هذه إلى ما بعد موت زيد حيث عامل أسامة ابنه معاملة ممتازة إكراماً لأبيه .

كذلك كانت علاقته بعثمان وعمر مشبعة بروح المودة والولاء . وكان محمد « عليه الصلاة والسلام » فى استعمال الحكم المطلق عادلا مقتصداً فلم يكن يعوزه الرفق بأعدائه إذا مادانوا له بالطاعة ، وقد كان دفاع مكة العتيد الطويل المدى ضد دعوته مما كان يحمله عند فتحها على أن يعبر عن سخطه بآثار لا تمحى من دم ونار ، ولكنه أصدر عفواً عاماً ملقيا بذكريات الماضى بما فيها من سخرية وإهانة واضطهاد فى زوايا النسيان ، وعامل حتى ألد أعدائه بكل كرم وسخاء ، ولم تكن السماحة التى أبداها لعبد الله[1] وأهل مكة الخارجين عليه بأقل من ذلك ظهوراً وهم الذين ناصبوه العداء سنين وامتنعوا عن الدخول فى طاعته . كما ظهر حلمه وصفحه حتى فى ساعة الظفر والانتصار وقد دانت لطاعته القبائل التى كانت من قبل أكثر مناجزة له وأشد عداء .

---

(١) هو عبد الله بن ابي بن سلول رأس المنافقين

حياة قبل البعثة

بينما العرب العرباء فى الجاهلية الجهلاء على أسوأ حالات الوثنية وفى أسفل دركات الانحطاط السياسى والاجتماعى ، وأهل الدولتين الفارسية والرومانية فى ضلال عن الرشد فى الدين ، ورؤساء الأديان تتحكم فى عقائد الرعية والحكومة فى تزايد من جهة اختلاف العقائد تارة ومن جهة المغارم والمظالم تارة أخرى ، والناس فى ظلام الحيرة لا يهتدون .

بينما كل ذلك إذ جاءت ليلة التاسع من شهر ربيع الأول من سنة الفيل وفيها ولد فى مكة مولود لم يشعر بشىء من أمره سوى عشيرته وجيرانه ، ولما بلغ هذا المولود هز عروش الملوك ، وأزال التيجان عن كثير من الرؤوس ، وغير حدود الممالك فى العالم القديم ، وأضاء أركان الكرة الأرضية بعد ذلك الظلام الحالك ، ورفع أعلام الهداية وأخرج جيل العرب من الظلمات إلى النور ، وفجر ينابيع الشريعة السمحة فى تلك القلوب التى كانت أشبه بالصخور ، وسير أولئك القوم فى طريق لم يعرفوها وسلك بهم سبيل النجاة بعده ، وصير حفاة الأعراب قادة الأمم وهداة الشعوب ، وساسة الممالك ، ورسل العمران وبناة صروح المدنية .

فانظر بعين البصيرة إلى هذا الرقي العظيم ، وانظر من أوجده بين تلك الأمم ليتجلى لك عظمة هذا النبي الكريم وهو رجل واحد ليس له معلم إلا الذات العلية ، أفاض عليه فجعله أفضل الخلق وأعلمهم لا بالدين فقط بل وبالسياسة العمرانية وهو أمى لا يقرأ ولا يكتب ، جاء يعلم الناس أمر دينهم وأمور دنياهم وعمرانهم وسياستهم ، جاء يعلمهم الكتاب والحكمة ويملى عليهم أحكام الفلك والطبيعة وغير هذا مما يطول شرحه، فأصبحوا يفخرون بما آتاهم الله من فضله على لسان نبيه.

أمى ﷺ خضعت لإرادته الملوك والقياصرة وشهد له أهل الفضل من علماء وفلاسفة مستشرقين وغير مستشرقين بأنه درة تاجهم وفص خاتمهم وبفضله تنحى الكثير من العلماء الأوروباويين عن دينهم رغبة فى دينه بعد بحث وتدقيق .

وهنا نقول إن المولود المذكور هو محمد بن عبدالله بن عبد المطلب ابن هاشم بن عبد مناف بن قصى بن حكيم بن مرة بن كعب . هذا هو نسبه من جهة أبيه ، أما نسبه من جهة أمه فهى بنت وهب بن عبد مناف ابن زهرة بن حكيم بن مرة بن كعب من أشراف قريش . أعنى أن نسبه من جهة أبيه يتصل بنسبه من جهة أمه بواسطة حكيم بن مرة بن كعب كما قدمنا . ولا غرابة فى محافظة العرب على أسماء أجدادهم فقد نحى هذا النحو الكثير من سرات الإنجليز خصوصاً اللوردات يحفظون أسماء آبائهم وأجدادهم يفخرون بذلك ، وبهم يقيمون الأدلة على أنهم من

أصل عريق فى الإنجليزية لم يختلط بجنسية أخرى ، ولأنهم أحدث زمناً من العرب . لا شك فى أنهم أخذوا ذلك عنهم . والعرب من أحرص الناس على حفظ أسماء الجدود الذين ينتسبون إليهم يذكرونها على سبيل الشرف ، كانت ولادة سيدنا محمد ﷺ بعد حادثة الفيل بخمسين يوماً على الأصح ، مات أبوه وهو جنين فى بطن أمه لأربعة أشهر من حمله ، سافر أبوه إلى الشام فى تجارة له ولما أحس من نفسه المرض أماله ضعفه إلى أخواله بنى النجار بمدينة يثرب وهناك أدركته منيته .

لم يترك هذا الأب لابنه سيدنا محمد ﷺ من الميراث سوى زود من الإبل ما بين الخامسة والعاشرة وجارية وعبدين . وكان من عادة نساء الأشراف فى مكة أن يسترضعن أولادهن بالبادية طلباً لصحة أطفالهن ، ونساء البادية يفرحن بذلك لما يصبهن من صلات أهل الأطفال ، فلما جاء نساء بنى سعد بن بكر يلتمسن الرضعاء بمكة أخذت إحداهن واسمها حليمة محمداً ﷺ لإرضاعه ، وعادت إلى بادية بنى سعد مغتبطة راضية لما رأت من آثار الخير والبركة بقدومه فأحبته وتمنت أنه لو بقى عندها .

بقى سيدنا محمد ﷺ مع حليمة فى البادية إلى السنة الرابعة وفيها ردته إلى أمه السيدة آمنة التى ذهبت به فى تلك السنة إلى بنى النجار فى المدينة وهم أخوال أبيه عبد الله بن عبد المطلب وماتت السيدة فى

طريقها فى موضع يقال له الأنواء وكانت معها أم أيمن الجارية التى ورثها محمد ﷺ من أبيه فرجعت به إلى مكة . وكفله جده عبد المطلب وكان يحبه حباً جماً ويعطف عليه عطفاً شديداً لما يراه فيه من مخايل الذكاء والنباهة وقوى العزيمة وعظيم الأدب مع أنه صغير . وكان عبد المطلب رجلا مهيباً عن سادات قريش يفرش له الفراش فى ظل الكعبة فلا يجلس عليه سوى (محمد) وإذا جلس وهو صغير بجانبه على الفراش واهتم أعمامه لمنعه ، حال الجد بينه وبينهم قائلا : إن لابنى هذا لشأناً . وكان يتفرس فيه الخير لترفعه عن الصغائر التى تحيط بالصبيان لأنه كان مولعاً بعلو النفس . بلغ محمد (ﷺ) الثامنة من عمره ومات جده عبد المطلب فكفله عمه أبو طالب شقيق أبيه بوصية خير من الجد واعتنى بتربيته نفاذاً لهاته الوصية حناناً وشفقة ، وكان لا يفارقه قط .

كان فى العرب رجل من لهب صادق الحدس والظن تأتى العرب إليه بغلمانها فإذا نظر إليهم عرف عن مستقبلهم ، جاءه أبو طالب بمحمد فنظر إليه ، ثم قال : إنه سيكون له شأن .

ولأنه ﷺ ولد فى سنة أربعة وخمسين قبل الهجرة أى بعد حادثة الفيل بأيام وهى حادثة تاريخية من الأهمية بمكان شاهدها الكثير من الصحابة .

نبي الهدى

بسم الله الرحمن الرحيم

«هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِى ضَلَالٍ مُبِينٍ»

من يمن الطالع ، وتوفيق الله ، أن نبدأ بكلمة عن مولد النبي الأمي ، الذى ملأ الدنيا علماً وهدى ونوراً ، واليتيم الذى آواه ربه ، واصطفاه من خلقه ، وأرسله رحمة للعالمين ، فرفع لواء الإسلام ، وجاهد فى سبيل الله ، وفى سبيل العدل والحرية . فكان للمتقين إماماً ، وللمجاهدين قائداً وزماماً .

وإذا كانت الأيام تعلو درجاتها ، ويرتفع قدرها ، بما يقترن بها من مفاخر وذكريات كريمة ، وعبر خالدات ، فإن ذكرى محمد بن عبدالله أجدر الأيام بالتقدير ، وأولاها بالإحياء والتكريم ، وبالشرف العظيم ، إذ كانت رمزاً لأعظم الحوادث فى الكون أثراً وأرفعها شأناً ، وأكبرها خطراً .

فى هذه الذكرى الجليلة تتحرك مشاعر المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ، تحية وإكباراً لمولد هذا الرسول الكريم . الذى اختاره الله تعالى ، واصطفاه من خلقه . ليخرج الناس من الظلمات إلى النور

ومن الضلال إلى الهدى ، ومن الجهالة إلى العلم والعرفان ، ومن الكفر إلى الإيمان واليقين .

وفى هذه الذكرى المباركة المقدسة ، يتنافس الأفراد والجماعات . والشعوب والحكومات من جميع الأمم الإسلامية ، فى الحفاوة والإجلال إظهاراً لما تكنه قلوبهم من تقوى وإيمان ، ومحبة لله ورسوله ، واعترافاً بما لهذا النبي الكريم من فضل على الإنسانية ، وماأضفته حياته المباركة من هداية ونفع للبشرية ، بما لاتستطيع الأقلام بيانه كاملا ، ولاتستطيع الأفراد ولاالجماعات الوفاء بحقه من التعبير . وإنما يعبر عنه ماسطره عليه السلام فى الكون من آيات ، وما أضفاه على العالم من نور وهدايات ؛ هذا النبي الأمى الذى ملأ طباق الأرض علماً وعرفاناً وإيماناً ، وتوحيداً ، وإصلاحاً وعدلا ، وإخاء ومساواة ، وحرية وأمناً .

هذا اليتيم الذى كلأه الله بعنايته ، ونشأه فى رعايته ، وطهره من آثام الجاهلية ، وعصمه من ضلال الشرك ، وعبادة الأوثان . وأعده لأكبر رسالة إلهية ، وأسمى دعوة إلى رفع شأن الإنسانية ، وتوطيد أركان المجتمع البشرى على أساس العقل والحكمة . فكان صلى الله عليه وسلم جماع الفضائل الإنسانية كلها ، وأثنى عليه ربه فى كتابه العزيز بقوله تعالى « وإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ » .

وإلى هذا السمو النفسى والكمال الخلق مع تأييد الله تعالى له يرجع سر نجاح الدعوة الإسلامية ، فقد أعده الله لها واصطفاه ، وأيده بروح من عنده ، فبلغ رسالة ربه أوفى تبليغ وأداها أكمل أداء ، حتى قال سبحانه وتعالى «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِيناً» .

وكان صلى الله عليه وسلم قبل بعثته ، على أعظم جانب من الأمانة والصدق والوفاء ، والبعد عن شرور الجاهلية ومفاسدها . عصمه الله من باطل عقائدهم ، وسيئات أعمالهم ، وطهر قلبه من كل دنس ، وصدره من كل حقد ، وجمله بأكمل الصفات وأقوم الأخلاق حتى كانت قريش فى الجاهلية يدعونه بالأمين ويثقون به ، ويرتضون رأيه ، لما عهدوه فيه من كمال الصدق ، وسمو الخلق ، ورجاحة العقل ، وبعد النظر .

ولما اختلفت قريش عند بناء الكعبة ، وتنافسوا فمن يضع الحجر الأسود فى مكانه من البيت لينال الشرف الرفيع ، وتنازعوا فى ذلك حتى كاد الأمر يفضى بينهم إلى الحرب ولما رأوا الأمين محمد بن عبدالله أول داخل . أثلجت صدورهم لتمام ثقتهم به ، وإجماعهم على أمانته . ووفور عقله ، وسداد رأيه ، فحكموه فى الأمر ، فهداه الله سبحانه إلى الحل الذى كان فيه فصل الخطاب ، واجتماع الشمل ، فأشار عليهم

بأن يوضع الحجر الأسود فى رداء ثم يحمله ممثلون لجميع بيوتات قريش فارتضوا حكمه ، وتم وضع الحجر الأسود فى مكانه من البيت ، وسكنت الفتنة واطمأنت النفوس ، بحكمة محمد ، وإصالة رأيه ، وعدالة حكمه .

وقد كان له عليه السلام حتى قبل بعثته أوفر نصيب من الرحمة والعطف ، ومواساة الضعفاء ، والبر بالفقراء ، ولما أخبر خديجة رضى الله عنها بنزول الوحى فى أول أمره عندما جاءه جبريل عليه السلام وقال له « إقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذى خَلَقَ ، خَلَقَ الإِنْسانَ مِنْ عَلَق ، إقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَم ، الذى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الإِنْسانَ مالم يَعْلَمْ » وانتابته عند ذلك رعدة وخوف ، قالت له خديجة : ماكان الله ليخزيك أبداً ، إنك لتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتعين على نوائب الدهر . وكان صلى الله عليه وسلم يقول : « أدبنى ربى فأحسن تأديبى » ، ولقد أدبه ربه حقاً فأحسن تأديبه كما أشار سبحانه وتعالى إلى ذلك بقوله عز وجل « أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فآوَى ، وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى ، وَوَجَدَكَ عائلاً فأَغْنَى ، فأَمَّا اليَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ، وأما السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ، وأَمَّا بِنِعمةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ » . فكان صلوات الله عليه وسلامه مثال التواضع ولين الجانب ورقة القلب ، وكان يقول : « اللهم أحينى مسكيناً ، وأمتنى مسكيناً

واحشرنى فى زمرة المساكين » : ويقول « إنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم وفقرائكم » .

بهذا التواضع وذلك السمو النفسانى ، رفع الله شأنه وأعلى مكانته فاختاره لرسالته وهدى به الخلائق ، وفضله على العالمين . هذا هو الإعجاز وتلك هى الآية والبرهان على صدقه ، وتأييد الله تعالى له :

كفاك بالعلم فى الأمىِّ معجزة   فى الجاهلية والتأديب فى اليُتم

ماشاء الله كان : يتيم أمى ينشأ فى فقر وضعف ، فيتسامى بخلقه وإيمانه ، وبرعاية الله ، وينصب نفسه بأمر ربه لهداية العالم ودعوتهم إلى الله وإلى الحق المبين ، فيقوم بتلك الدعوة الجبارة وحده فى أول الأمر ، معتمداً على ربه ، وعلى صدق دعوته وإيمانه ، وأنه على الحق ، والناس جميعاً على الباطل ، وأن الله مؤيده وناصره ، فلا تزال دعوته تتسع . وأنصاره ممن هداهم الله به إلى الإيمان يتتابعون ويكثرون ، وهو فى ثنايا ذلك يغالب الباطل وأهله من الكفار والمشركين ، وصناديد قريش ، وقبائل العرب ، ويحتمل من صنوف الأذى . وألوان العسف والعناد . مالايصبر عليه إلا أولو العزم من الرسل ممن اختارهم الله لهداية العالم ، وأيدهم بروح من عنده ، فكانت قوة نفوسهم ودرجة احتمالهم وعزمهم فوق طاقة البشر ، ولقد قام هذا النبى الأمى ، والرسول الأمين بتبليغ رسالة ربه وتلا على الناس قرآنه العظيم ، وآياته التى أضاءت الكون ، وملأت أرجاءه نوراً وهداية ، فأنار العقول ،

وطهر القلوب ، وأقام أركان العدل والحرية ، ورفع من شأن الإنسانية وقرر المساواة بين الناس كافة فى احترام الدماء والأموال ، وحق الحياة والأمن ، على اختلاف ألسنتهم وألوانهم . إلا بالحق « لافضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى » ، « إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ » لاتفاوت إلا بالعمل ، ولا استحقاق إلا بما قدمت الأيدى . وأمرت العقول ، بميزان العدل ، لابميل الهوى ، ولا بالأنساب والأحساب ، حتى كان يقول لذويه وآله الأقربين :

« يابنى هاشم ، لايجيئنى الناس بالأعمال ، وتجيئونى بالأنساب . اعملوا » ، ويقول لابنته فاطمة : « يافاطمة لن أغنى عنك من الله شيئاً ، اعملى » ثم يقول للأنصار من أهل المدينة فى معرض الثناء عليهم لحسن بلائهم فى الجهاد ، مع تعففهم عن الغنائم « يامعشر الأنصار .. إنكم لتكثرون عند الفزع ، وتقلون عند الطمع » .

هذا هو اليتيم الأمى الذى رباه الله ، واختاره من خلقه ليكون صلة بينه وبينهم ، يبين لهم ، ويهديهم إلى طريق الهدى والرشاد . كانت حياته ﷺ كلها فى سبيل الله ، ومن أجل الهداية والإصلاح ، لايبغى لنفسه مغنما ولاثروة ، ولاعرضاً من أعراض الدنيا . قد فنيت نفسه فى إتمام رسالة ربه ، وتوجيه الخلق إلى الخير ، وإلى مايصلح شؤونهم ، ويرضى خالقهم ، ويربى نفوسهم .

ماعاش محمد لنفسه ، بل عاش لله ، وجاهد فى سبيل الله ، ولم يرغب

عليه السلام فى مال ولا فى دنيا ، لا لنفسه ولا لأهل بيته، فلم يورثهم مالا بل كان يقول « نحن معاشر الأنبياء لا نورث ، ما تركناه صدقة » .

وكان صلوات الله عليه لا يغضب إلا للحق ، ولا ينتقم إلا لله ، وتقول عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها : « ما خير رسول الله ﷺ فى أمرين إلا اختار أيسرهما ، مالم يكن إثماً ، فإن كان إثماً كان أبعد الناس عنه ، وما انتقم لنفسه قط إلا أن تنتهك حرمات الله ، فينتقم لله بها » .

وكان عليه السلام ، إذا نالت منه الحوادث ولقى الأذى فى الجهاد والحرب ، يقول : « اللهم إن لم يكن بك غضب علىّ ، فلا أبالى » .

هذه لمحة من سيرة رسول الله محمد ﷺ صاحب الذكرى التى يفاخر المسلمون بها ، ويتقربون إلى الله بإحيائها ، فى ربيع الأول من كل عام ، نسوقها للتحية والقدوة ، وللعظة والاعتبار ، وتقديراً لسيد الرسل وخاتم الأنبياء ، اليتيم الأمى الذى اختاره الله من سائر خلقه ، لأداء رسالته العالمية ، فأداها كما أراد الله كاملة ، ووضع للناس شريعة سماوية ، ومنهاجاً قويماً ، يكفل لهم السعادة كلها ، ويهديهم إلى الخير كله ، ويأمرهم بالعدل والإحسان ، ومحاربة البغى والعدوان ، ومقاومة الظلم والطغيان .

وإن أكرم تحية لهذه الذكرى النبوية المقدسة أن تكون شريعة محمد ﷺ عقيدتنا وسبيلنا ، ومنهاجنا فى حياتنا ، فنأخذ بأسباب العزة والقوة ، « ولِلَّهِ العِزَّةُ ولِرَسولِهِ ولِلمُؤْمِنينَ » ، « ومَنْ يَعْتَصِمْ باللهِ فَقَدْ هُدِىَ إلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ » .

ذكرى مولد الرسول ﷺ

ما العظيم إلا رجل علا وسما . . فلفت الأنظار إليه ، وشغل الناس به ، فقالوا عنه ، وحكموا له أو عليه ، وأطالوا الكلام فى سائر ما يتعلق به ، حتى كأن العظيم قد صار ملكا للجماعة ، لا فرداً عادياً مستقلا بذاته وشخصه ، والأنظار مختلفة ، والعقول متفاوتة والأهواء شتى ، ولذلك يختلف الناس دائماً فى شأن الرجل العظيم من حيث تاريخه وأعماله وما يتعلق به ، ومن حيث تعدد نواحيه ، التى يتجادل حولها الناس فى كثير من الأحيان .

هذا ما يحدث بشأن الرجل العظيم فكيف برسول الإسلام عليه الصلاةوالسلام ، وهوسيدالعظماء وإمامالكبراء ؟ . لقدحقدعليه سفهاء فوصفوه بأنه كاهن وساحر ومجنون ، وآمن به عقلاء رأوا فيه أستاذ البشرية ومنقذ العالم .

ولقد اختلف كذلك السابقون واللاحقون فى يوم عيد ميلاده ، فمن قائل إنه اليوم الثانى عشر من ربيع الأول وذلك هوالذائع المشهور ومن قائل إنه اليوم العاشر ، ومن قائل إنه الثامن ، ووراء ذلك اختلافات وأقوال أخرى ، هى من الضعف أو الشذوذ ، بحيث لا يقام لها ميزان ، ونستطيع بعد جولة بين نصوص المتقدمين وبحوث

المعاصرين من مسلمين ومتعربين ، وتحقيقات المتأخرين من حاسبين ومقارنين ، أن نستنتج أن الرسول ﷺ ولد فى صبيحة اليوم التاسع من شهر ربيع الأول ، وذلك لكثير من الأدلة ذكروها وبسطوها ، وأهمها أن خلافهم محصور فى الأيام الواقعة بين الثامن والثانى عشر ، ولكنهم مجمعون على أن يوم الميلاد يوم اثنين ، وليس فى هذه الأيام — بحسب الاستقصاء التاريخى الحسابى — يوم اثنين إلا اليوم التاسع ، وقد بسط البحث فى هذا المرحوم محمود باشا الفلكى فى كتابه المفيد : « نتائج الأفهام فى تقويم العرب قبل الإسلام » .

وقد اتفق المؤرخون على أنه ﷺ ولد فى عام الفيل ، على عهد كسرى أنوشروان ، فى فصل الربيع ، وكان الميلاد بعد طلوع الفجر ليكون مولده فجراً أكبر وأزهر دونه الفجر ، فى الدار التى ملكها بعد محمد بن يوسف أخو الحجاج ، وذلك بيطحاء مكة فى الليلة المسفرة بعد قران بين زحل والمشترى فى برج العقرب ، ويقابل تاريخ المولد النبوى العربى ٢٢ من أبريل سنة ٥٧١ من التاريخ المسيحى ، وعشرين نيسان من شهور الروم النيسانية ، وفى سنة ٨٨٢ من عهد الإسكندر ذى القرنين، وبعد سنة ١٣١٨ من حكم بختنصر ، وهذا كله كاف كل الكفاية فى الاطمئنان كل الاطمئنان إلى أن الرسول ﷺ ولد فى فصل الربيع ، فى شهر ربيع الأول . فى النصف الأول منه فى يوم الاثنين ، والأقرب إلى الضبط الحسابى أنه اليوم التاسع ، فى صبيحة الليلة الواقعة بين اليوم

الثامن ، واليوم التاسع من هذا الشهر الأغر المبارك .

ومهما قيل من خلاف بعد هذا فلن يضيرنا فى شىء ، فالتاريخ دائماً تتعدد فيه الأقوال ، وخصوصاً فى أوقات الولادات والوفيات لتطاول الزمن واضطراب النقل ، وتفاوت الاعتبار والتقدير ، ومهما يكن من شىء فقد صار شهر ربيع الأول شهر الرسول ﷺ ، ما كاد يبدو هلاله حتى يبدو معه سنا النبوة ونفحات الرسالة وذكريات محمد ﷺ عاطرة متجددة ، وما تكاد تغمرنا هذه الذكريات بفيضها حتى تؤمن كرأى العين أن ميلاد الرسول ﷺ كان ميلاداً للوجود . وأن إشراقه على الدنيا بوجهه وشريعته كان ربيعاً دونه الربيع :

يقول لنـــا لسان الحـــال منـه
وقول الحـــق يعـــذب للسميع :
فوجهى والزمانـــ وشهر وضعى
ربيـــع فى ربيـــع فى ربيـــع

* * *

ولئن صحبت ميلاده أحداث معجزات طال عنها الحديث فإن شرعة محمد ﷺ وحدها بجمالها وجلالها وكمالها لكافية فى الإقناع بأنه رسول رب العالمين ، وأنه هدية الله إلى الناس أجمعين .

وصف النبي ﷺ في القرآن

إن الحق سبحانه وتعالى قد قص علينا طرفاً صالحاً مما أفاضه جل جلاله على عبده ورسوله خاتم النبيين محمد ﷺ من العظمة وفاضل الأخلاق ، وجميل السجايا ، وكريم الشيم ، مما لم يذكر أنه منحه أحداً من خلقه ، تفضلاً منه وإحسانا ، وتعظيما لأمره وتنويها بقدره عليه الصلاة والسلام ، قال تعالى فى آخر سورة التوبة : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم ، حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم » فقوله تعالى : من أنفسكم (بضم الفاء) أى يعرفونه ويتحققون مكانته ، ويعلمون صدقه وأمانته ، فهو ليس موضعاً للاتهام بالكذب أو بالتقصير فى بذل النصيحة لهم ، وقد قالوا : إنه لم يكن فى العرب قبيلة إلا ولها على رسول الله ولادة أوقرابة . وقد قرىء من أنفسكم (بفتح الفاء) والمعنى عليه من خيركم ، وهذا نهاية المدح وغاية فى التنويه بقدره لا تدرك .

ثم وصفه بعد ذلك بأوصاف بارعة بقوله : « عزيز عليه ما عنتم » أى شديد عليه أن تقعوا فى عنت أو تصيبكم مشقة أو يمسكم من ضيق أو عقاب من مقارفة معصية ، « حريص عليكم » أى على هدايتكم ورشدكم وفلاحكم بدخولكم فى دين الله الحق وهو الإسلام ، وهو دين الله فى كل الأمم ، وعليه وبه أرسل جميع أنبيائه ورسله كما قال جل شأنه :

« إن الدين عند الله الإسلام » وقد منحه الله تعالى اسمين من أسمائه ، أو صفتين جليلتين من صفاته ، وذلك فى قوله : « بالمؤمنين رءوف رحيم » فقد كان ﷺ فى أمته كالراعى الرفيق فى رعيته ، يرد الضال ، ويجبر المهيض ، ويعصب الكسير ، ويداوى الجريح ، ويرشدها إلى جيد المراعى .

قال جعفر الصادق بن محمد بن الباقر بن على زين العابدين : علم الله عجز خلقه عن طاعته فعرفهم ذلك لكى يعلموا أنهم لا ينالون الصفو من خدمته ، فأقام بينه وبينهم مخلوقا من جنسهم فى الصورة ، وألبسه من نعمته الرأفة والرحمة ، وأخرجه إلى الخلق سفيراً صادقا ، وجعل طاعته طاعته ، وموافقته موافقته فقال تعالى : « من يطع الرسول فقد أطاع الله » .

وقال الله تعالى فى سورة الأنبياء « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » فهذه الآية فى أن رسالته عليه الصلاة والسلام رحمة للإنس والجن والملائكة ، أما الإنس والجن فبهداية من اهتدى منهم ، حتى أن رسالته تعتبر لمن وافقه أو خالفه ، فهى رحمة للمؤمنين بالهداية وللمنافقين الذين يظهرون الإيمان ويبطنون خلافه بنجاتهم من القتل والقتال . ورحمة للكفار بتأخير عقابهم فى الدنيا إلى اليوم الآخر ، وقد كانت أمم الأنبياء متى جاءتهم الرسل بآيات الله تعالى نخالفوا حل بهم العقاب ، وعجل لهم الجزاء فى الحياة الدنيا ولعذاب الاخرة أشد وأخزى ، كما

أهلك الله تعالى عاداً بالريح العقيم ، ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم ، قال تعالى فى سورة الحاقة : «وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية ، سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية ، فهل ترى لهم من باقية » . وقال تعالى : « فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية ، وأما أهل مدين فأهلكوا بالصيحة كما قال تعالى فى سورة هود : « وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين كأن لم يغنوا فيها ألا بعداً لمدين كما بعدت ثمود » .

وأما المخالفون من أمة محمد ﷺ فقد أخر أمر حسابهم إلى القيامة فبعثته ﷺ رحمة لهم لأن فى تأخير عقابهم مهلة يتذكر فيها من يتذكر .

وأما الملائكة فقد جاء أن رسول الله ﷺ سأل جبريل : هل أصابك من هذه الرحمة شيء ؟ قال نعم كنت أخشى العاقبة فأمنت لثناء الله عز وجل عليّ بقوله فى سورة التكوير « ذى قوة عند ذى العرش مكين مطاع ثم أمين » .

إن الله تعالى جعل رسوله محمداً ﷺ سراجاً منيراً ، ولم يقل الله تعالى ذلك لنبي قبله فقال فى سورة المائدة : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام » ، وقال تعالى فى سورة الأحزاب : « إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيرا » .

ويقول عنه أشعياء : « أنا الرب قد دعوتك بالبر فأمسك بيدك وأحفظك وأجعلك عهداً للشعب ونوراً للأمم ، لتفتح عيون العمى ، لتخرج من الحبس المأسورين من بيت السجن الجالسين فى الظلمة » ، وهذا كما قال تعالى فى كتابه الكريم فى أول سورة إبراهيم : « كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور » .

ومن أسمائه تعالى الحق المبين ، وقد سمى الله تعالى نبيه عليه الصلاة والسلام الحق ، وسماه المبين فى سورة الزخرف بقوله : « بل متعت هؤلاء وآباءهم حتى جاءهم الحق ورسول مبين » ، وفى سورة الحجر فى قوله : « وقل إنى أنا النذير المبين » ، وفى سورة يونس « قل يأيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم » ، وفى سورة الأنعام « فقد كذبوا بالحق لما جاءهم » ، قد فسر العلماء الحق برسول الله ﷺ ، وفسروا المبين كذلك برسول الله ، ومعنى كونه الحق : أى الرسول الثابت الرسالة أو ذى الحق ، والمبين : أى الثابت أمره الظاهر شأنه أو المبين عن الله ما أنزل إليه كما قال تعالى فى سورة النحل : « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم » .



من الحسن أن نكتب عن محمد الرئيس بعد كتابتنا السابقة . لأنه هو قد جعل للرئاسة معنى الصداقة المختارة .

فمحمد الرئيس هو الصديق الأكبر لمرءوسيه ، مع استطاعته أن يعتز بكل ذريعة من ذرائع السلطان .

فهناك الحكم بسلطان الدنيا .

وهناك الحكم بسلطان الآخرة .

وهناك الحكم بسلطان الكفاءة والمهابة .

وكل أولئك كان لمحمد الحق الأول فيه : كان له من سلطان الدنيا كل ما للأمير المطلق اليدين فى رعاياه ، وكان له من سلطان الآخرة كل ما للنبى الذى يعلم من الغيب ما ليس يعلم المحكومون . . . وكان له من سلطان الكفاءة والمهابة ما يعترف به بين أتباعه أكفأ كفؤ وأوقر مهيب .

ولكنه لم يشأ إلا أن يكون الرئيس الأكبر بسلطان الصديق الأكبر : بسلطان الحب والرضا والاختيار .

فكان أكثر رجلا مشاورة للرجال ، وكان حب التابعين شرطاً عنده من شروط الإمامة فى الحكم بل فى العبادة . فالإمام المكروه لاترضى له صلاة .

وكان يدين نفسه بما يدين به أصغر أتباعه . فروى أنه كان فى سفر وأمر أصحابه بإصلاح شاة . فقال رجل : يا رسول الله ! علىّ ذبحها . وقال آخر : على سلخها . وقال آخر : وعلىّ طبخها . فقال عليه السلام : وعلى جمع الحطب . فقالوا يا رسول الله نكفيك العمل . قال : علمت أنكم تكفونى ، ولكن أكره أن أتميز عليكم ، وإن الله سبحانه وتعالى يكره من عبده أن يراه متميزاً بين أصحابه .

وأبى ، والمسلمون يعملون فى حفر الخندق حول المدينة ، إلا أن يعمل معهم بيديه . ولولا أنها سنة حميدة يستنها للرؤساء فى حمل التكاليف لأعفى نفسه من ذلك العمل وأعفاه المسلمون منه شاكرين .

وجعل قضاء حوائج الناس أماناً من عذاب الله أو كما قال : « إن لله تعالى عباداً اختصهم بحوائج الناس يفزع إليهم الناس فى حوائجهم أولئك الآمنون من عذاب الله » .

وقد كان أعلم الناس أن الأعمال بالنيات ، ولكنه علم كذلك « أن الأمير إذا ابتغى الريبة فى الناس أفسدهم » فوكل الضمائر إلى أصحابها وإلى الله ، وحاسب الناس بما يجدى فيه الحساب .

سمع خصومة بباب حجرته فخرج إليهم فقال : « إنما أنا بشر ، وإنه يأتينى الخصم فلعل بعضكم أن يكون أبلغ من بعض فأحسب أنه صدق فأقضى له بذلك ، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هى قطعة من النار فليأخذها أو فليتركها » .

واليوم يكثر اللاغطون بحرية الفكر ويحسبونها كشفاً من كشوف الثورة الفرنسية وما بعدها ، ويحرمون على الحاكم أن يؤاخذ الناس بما فكروا به ما لم يتكلموا أو يعملوا ولكن فى كلامهم وعملهم ما يخالف الشريعة .

فهذا الذى يحسبونه كشفاً من كشوف العصر الأخير قدجرى عليه حكم النبى ﷺ قبل أربعة عشر قرناً ، وشرعه لأمته فى أحاديثه حيث قال ﷺ : « إن الله تجاوز لأمتى عما حدثت به نفسها ، ما لم تتكلم به أو تعمل به » .

وزعموا كذلك أن تقديم الرحمة على العدل فى تطبيق الشريعة دعوة من دعوات المصلحين المحدثين لم يسبقوا إليها ، وهى هى دعوة النبى العربى الكريم التى كررها ولم يدع قط إلى غيرها فقال : إن الله تعالى لما خلق الخلق كتب بيده على نفسه « إن رحمتى تغلب غضبى » ، وقال : إن الله تعالى رفيق يحب الرفق ويعطى عليه ما لا يعطى على العنف . وقال : « إن الله تعالى لم يبعثنى معنتاً ولا متعنتاً ولكن بعثنى معلماً ميسراً » . وروى عنه غير صاحب من أصحابه أنه ما خير بين حكمين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن فيه خرق للدين .

وكان يوصى بالضعفاء ويقول لصحبه : « ابغونى الضعفاء فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم » ، ويذم الترفع على الخدم والفقراء ،

« فما استكبر من أكل مع خادمه ، وركب الحمار بالأسواق ، واعتقل الشاة لحلبها » .

لكنه مع الرحمة بالصغير لا ينسى حق الكبير : « من لم يرحم صغيرنا ويعرف حق كبيرنا فليس منا » .

إذ ليس الإنصاف حراماً على الكبراء حلالا لمن صغر دون من كبر فلكل حق ، ولكل إنصاف ، وإنزال الناس منازلهم كما أمر قومه هو خير شعار تستقيم عليه الناس ، وتنعكس أمور الأمم بانعكاسه .

***

وكان النبي الرئيس يعلم أن الرئاسة لجميع المرءوسين وليست للموافقين منهم دون المخالفين ، فيأمر قومه أن « اتقوا دعوة المظلوم وإن كان كافراً فإنها ليس دونها حجاب » .

وإذا قال هذا رئيس ونبي فإنها لأولى السنن أن يتبعها الرؤساء كافة ، لأنهم لم يبعثوا لنشر الدين ومحو الكفر كما بعث الأنبياء .

***

لقد كانت سنة الرئاسة عند محمد ﷺ هى سنة الصداقة . فلو استغنى حكم عن الشريعة ، لاستغنى عنها حكم هذا الرئيس ، الذى جاء بالشريعة لجميع متبعيه .

عبقرية الرسول الأعظم ﷺ

تجلت عبقرية الرسول محمد ﷺ فى مختلف الأمور التى عالجها . والأحداث والانقلابات الهامة التى قام بها وهى على اختلافها وكثرتها كانت تتميز بسمة واحدة وتخضع لقانون ثابت يصونها عن الخطأ . ويسير بها فى طريق التوفيق والكمال ، هذه السمة هى الإصلاح الاجتماعى الشامل من أقرب طريق وأسلمه ، وهذا القانون هو البحث العلمى الصحيح الذى يقوم على أصالة الرأى واستقصاء البحث وعمق الفهم ودقة الملاحظة والتأمل والمقارنة والتجرد من الأهواء . هذه هى المقدمات التى كان يضعها الرسول الكريم لكل أمر من الأمور التى يعالجها ليصل حتما إلى نتيجة واحدة هى إصابة الهدف وتحقيق الغرض. وهذا القانون بمقدماته ونتيجته هو آخر ما ارتقت إليه الحضارة الانسانية فى سبيل تقويم الفكر وحرية الراى . فلابدع إذاً أن يكون محمد ﷺ عبقرى الوجود وزعيم الإنسانية وهجرته عليه الصلاة والسلام إلى يثرب حدث تاريخى رائع يعتبر بحق نقطة البدء بالنسبة لتطور حياة الحضارة الإسلامية . ولقد تجلت كثير من جوانب عبقرية محمد الفذة فى هجرته هذه التى أخذ يتهيأ لها منذ أن لاقى هو وأصحابه من قومه صنوف العذاب وضروب الإيذاء ومنذ أن ضيقوا الخناق عليه

وعلى أصحابه ومنذ أن ظهر له عناد قريش ومكابرتها ونكرها لتعاليمه النبيلة المقدسة التى تكفل حرية الفرد والشعب وتضمن المساواة وتلغى الفوارق وتحرم على الأثرياء والرؤساء استغلال العامة واستعبادهم كما تحرم عليهم لذائذهم وآثامهم التى كانوا يعيشون لها ومن أجلها منذ ذلك الحين ، وقبل الهجرة بأمد قصير بدأ الرسول يفكر فى أصلح مكان ليهاجر إليه فراراً بدينه وبعداً عن أذى قومه فأخذ يستعد ويتهيأ لذلك اليوم فى هدوء وتأنى لا يستعجل أمراً ولا يرتجل خطة ، فاتجه تفكيره السليم إلى الحبشة لأن بها كما قال ملكا لا يظلم عنده أحد فأمر بعض أصحابه بالسفر إليها فسافر من سافر منهم خفية فى الهجرة الأولى ثم سافروا إليها ثانية فى عدد أكبر ولكن الرسول الكريم لم يكتف بكلتا الهجرتين لأنها وإن ضمنت لأصحابه البعد عن أذى المشركين وكفلت لهم حرية الجهر بمعتقداتهم إلا أنها لم تحقق كل ما يصبو إليه ذلك السياسى العميق فخرج مستخفيا بمفرده الى الطائف لا يعلم به أحد عله يجد قوما يسلمون فينصرونه ويستطيع نشر دعوته التى بعث بها ، ولكن ثقيفاً خافت إن هى اتبعته أن تفقد مركزها الاقتصادى والدينى بحكم خصومه قريش فقد كانت الطائف مصيفاً محبباً لأهل مكة وكانت أيضاً مستقر عبادة اللات التى كانت تعبد ويحج إليها فلم تجب دعوة محمد بل قابلته أسوأ مقابلة حتى أغرت سفهاءها به ، لكن الرسول الكريم لم يأبه لهذا الأمر وتوجه لربه يطلب نصره وعونه ثم عاد إلى مكة وأخذ يفكر فى مكان أصلح لهجرته فعرض نفسه

على كثير من قبائل العرب فى مواسم الحج . ولم يكتف بهـــذا بل أتى كنده وكلبا وبنى حنيفة وبنى عامر بن صعصعة فى منازلها فردوه جميعا رداً غير جميل بعد طول هذه المدة وبعد طول هذا العناء . وبعد دراسته الطويلة خرج بتلك الفكرة الصحيحة ، فكرة الهجرة إلى يثرب تلك البلدة التى تتمتع بمركز ممتاز يهدد تجارة قريش واقتصادياتها والتى كان للرسول العظيم بها صلة التجارة وصلة القربى ببنى النجار أخوال جده عبد المطلب وذلك القبر قبر والده الذى كان يقصده مع والدته الوفية . فبدأ يفكر فى يثرب بجد واهتمام بالغين ويرسم الخطط ويهيء الظروف للهجرة إليها فعمد إلى الاتصال بمن يلقاه من أهل يثرب فى موسم الحج وعرض عليهم التوحيد فآمنوا بالله وبرسالته ثم عقد مع بعضهم بيعة العقبة الأولى . واكتفى فيها بدعوتهم الى الإسلام وتعاليمه ثم عقد معهم بيعة العقبة الثانية على أن ينصروه ويذودوا عن دعوته ، ثم أمر أصحابه من المهاجرين بالسفر إليها أما هو فقد انتظر حتى تلقى أمر ربه فهاجر وهكذا استطاع الرسول الأعظم أن يحقق أهم ما يصبو إليه من الهجرة وهو الخروج بدعوته من ذلك النطاق الضيق وتلك الدائرة المحصورة إلى أجواء جديدة وأفق أرحب . وهكذا هاجر فى الوقت المناسب .

وبعد أن تأكد من إخلاص مبايعيه ، وبعد أن أدرك احتياجهم إليه وتلهفهم عليه ، وهكذا تمت هجرة العبقرى العظيم على خطوات متتالية حكيمة رزينة كل خطوة منها تكشف لنا عن جانب من جوانب تلك

العبقرية الفذة ، فتفكيره فى الهجرة من حيث هو يدل على بعد نظره وتنفيذه لخطته يدل على مقدرته السياسية البارعة ، واختياره ليثرب يدل على عبقرية القيادة التى تعرف كيف تختار أصلح المواقع ، وتهديده لتجارة قريش يدل على عبقريته الإقتصادية ، ثم هـــذه المؤاخاة بين الأنصار والمهاجرين من جهة وبين الأوس والخزرج من جهة أخرى . هذه المؤاخاة التى تدل على عبقرية ذلك الزعيم الإنسانى والمصلح الكبير الذى حطم تقاليد الجاهلية وهدف لتكوين وحدة تامة ومجتمع صالح يلغى فوارق الأنساب ولا يقيم وزنا إلا للقيم الإنسانية العالية .

النبيّ في شعور الدهر

أهدى إلينا حضرة الأخ الأديب البارع العبقرى الأستاذ محمد حسن عواد قصيدته الممتعة الرائعة ومقدمتها البديعة الفائقة اللتين ألقاهما فى مساء يوم الأحد ١٤/٣/١٣٧٠ ه بجدة فى محطة الإذاعة اللاسلكية للمملكة العربية السعودية بمناسبة ذكرى مولد نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ونحن نشكر الأستاذ على هديته ونسأل الله أن يزيده من بحر فيضه ، فقد جمع فأوعى فى هذه المناسبة الكريمة .

أيها السادة :

يسعدنى كثيراً ويسعد كل مسلم ، وكل عربى فى الأرض ، يقدر عظمة الفكر وجمال الخلق وصدق العزيمة فى إبلاغ الدعوة إلى البشر ، أن يقوم محدثاً أو محاضراً فى هذا الأسبوع التاريخى العظيم ، الذى خصصته دار الإذاعة السعودية بجدة للتحدث عن شخصية النبى العظيم وعن أثره فى الحياة البشرية ، وعن شعور الدنيا ببروز رسالته السامية وانتشارها فى أرجاء الأرض إلى آخر هذه الأبحاث التى تدور عليها فكرة هذا الأسبوع الجليل وذلك بمناسبة وقوع اليوم الذى ولد فيه محمد صلى الله عليه وسلم فى مفتتح هذا الأسبوع .

إن هـذا موقف يعجز البليغ إذا شاء أن يستقصى مايتطلبه الموقف من تفصيل المعانى وسحر الألفاظ وجمال العرض . وحلاوة التوقيع ،

وسمو الإبداع فى وصف الواقع الكبير الذى خرجت فيه الدنيا من حال إلى حال عندما بزغ ذلك الإشراق الجميل بمطلع رسالة محمد ﷺ إلى الوجود .

ولد محمد فولد معه تاريخ جديد لعالم جديد .

سبقه الرسل والأنبياء من نوح إلى إبراهيم إلى موسى إلى عيسى عليهم السلام فكان كل رسول من هؤلاء يأتى إلى البشرية بفكرة خالدة من أساس الرسالة التى أوحيت إليه من عالم السماء وهذا الأساس هو فكرة التوحيد قبل كل شىء ، توحيد الله العظيم ، وهو إفراده بالعبادة وحده دون إشراك إله معه مطلقاً لأن أى إله غيره غير موجود لا فى الوهم ولا فى الحقيقة ، فهو الرب الواحد الذى يعبد فى السماء والأرض دون سواه لاشريك له ولامعين ولا ناصر ولا وزير ولا مستشار ولاحاجب ولاصاحب ولاصاحبة ولانذير ولا ولد .

بهذا الأساس الأول من رسالة الله إلى العالم جاءت الرسل تترى فأبلغت أمم الأرض هذا البلاغ الخطير ، وانقادت الأمم إلى رسلها حسب هداية الله لمن شاء له الهدى ، وما كاد كل رسول يموت بعد أن يؤدى رسالته ثم يمضى عليه زمن قليل أو كثير حتى تنسى الأمم هذه الرسالة ، أو تفتر حرارة الإيمان بها فى نفوسهم أو تضعف أسباب الالتفات إليها عندهم فينصرفون عنها أو يحرفونها أو ينكرونها فيختل ميزان الحياة فى أعمالهم ومعاملاتهم فلا يفلحون ، وهناك فى هذه الفترة

يرسل الله رسولا آخر يجدد الدعوة الى الرسالة نفسها ويذكر بها الأمم فيقودهم إليها من جديد فتعود إليهم دوافع الحياة السامية المبنية على أساس التوحيد العظيم.

ويضيف كل رسول إلى التوحيد مبادىء أخرى صالحة لأمته فى العصر الذى يرسل فيه ، وهى إضافات من وحى السماء أيضاً لا يأتى فيها الرسول بشيء من عند نفسه.

حتى كان دور عيسى المسيح ووقوع الفترة العمياء التى أعقبت زمن وفاته إلى زمن ولادة النبي العظيم وهو خمسمائة وإحدى وسبعون سنة ماجت فيها الأمم وأنكرت ربهـــا ورجعت للإشراك به فى عبادته فاضطربت فى أيديها مقاييس الأخلاق والأعمال والمعاملات وكادت الأرض أن تفسد ، هناك ولد سيد المرسلين محمد صلوات الله وسلامه عليه فصدع بالتوحيد ودعا إليه سراً وجهراً ، باللين مرة وبالشدة أخرى ، حسب الظروف حتى هدى الله به من هدى إلى الإيمان بالرسالة الكبرى وأسلم المؤمنون فاستنار الوجود وعاد الى الحياة إشراقها الصحيح ونشر محمد مبادئه المضافة إلى دعوة التوحيد وهى تصحح معنى الحق وتتمم مكارم الأخلاق وتحرير النفوس من ظلمات الارتكاس فى أوحال الشرور الآثيمة ، ومعاملة الناس بعضهم بعضاً بالمعاملة الحسنة . نعم عند ذلك ولد السلام الأعظم ، وسمت روح البشرية من جديد إلى أرقى طبقات السمو الإنسانى ، فنزل القرآن وهو الكتاب الخالد الذى يحمل

بين طياته هذه الرسالة وتلك المبادىء الرفيعة ، نزل ليختم الوجود بخاتم الضمان الذى لن ترجع بعده البشرية إلى عهود الانتكاس التى كانت تنحدر إليها فى فترات انقطاع الرسل . إذن فالأمم بعد محمد هى خلاصة الأمم وأسعدها . نعم هى كذلك إذ عرفت كيف تسير فى ركاب هذه الدعوة وتلك الرسالة وذلك الكتاب .

وحسبي هذا تمهيداً للقصيدة التى وضعت بوحى ذلك اليوم التاريخى الرفيع ، وهى :

أيها الدهر ، ويك ، لو تتفهم أو تجيد الكلام حين تُكَرِّمُ
لرفعت الصوت الجهير إلى الدنـيا وأجراس وقعه تترنم
ثم ناديت ، بالمهابة ؛ والتا ريخ يصغى ؛ وقلت غير مجمجم
«صفوة المرسلين» بلغت أمر اللـه للناس ، فى حياتك فانعم
جئت للدين هادياً يصلح الدنـيا ؛ وللحق والحياة يتمم
جئت بالصحو ، والخليقة غرقى فى سبات ، على النفوس تسدم
جئت للأرض رحمة ، وسلاما والبرايا محتارة ، تتأزم
فإذا بؤت بالسماوات غنما فالسموات دونها كل مغنم
جئت والناس تجهل الخالق المبـدع ، جهلا يزيد فيه تبرم
بئس فيها تبرم الجاهل الأعـمى ؛ وبئست جهالة المتبرم
وإذا كانت الخليقة لا تعـرف خلاقها فما بعد تفهم ؟
وفشا مذهب الضلالة حتى عم الكون بالآثام ، وأفعم

فاستسيغت عبادة اللات والعــــزى ؛ وآزيس والمسيح ابن مريم
ومياه الأنهار ؛ والشمس والنـــار ، وما ينسج الخيال الموهم
وتداعت معــــالم الخلق الفا ضل ؛ وانحط شأنها ، وتهدم
فاستبد القوى ، واندحر الوادع واستعبد الأبى المكرم
وانزوى الحر ؛ وارتقى الفاجر النـــذل ، إلى ذروة العلى وتسنم
وأهين الأمين ؛ واستعظم الخا ئن فى صولة ؛ وحل المحرم
واحتمى الظلم بالعــــدالة تدليـــساً على الخير ؛ والعدالة أظلم
فذمام النهى مبــــاح ؛ وللو أد رواج ، ولا نصير فيرحم
وسرت فى البقاع فوضى فسادت بالمقاييس موجــة تتهزم
فإذا الذل سائد فى الجمـــاعا ت ؛ وفرد فى أمرها يتحكم
وطغى الفرد فى حمى طبقات تقبل الحكم طاغيا ، وتسلم
وأصيبت وثاقة العقد فى الأز واج بالغى ، والطلاق تكلم
ظلمـــات تعج بالخوف والفقـــر وبث الأذى وما هو أعظم
فأتيت الورى على هذه الحا ل بنور من الهدى يتبسم
لاح فيهـــم كأنه فلق الصبـــح إذا انشق والدجى بعد أدهم
فأنار العقول مشـــعلك الوهـــاج يستقشع الظـــلام المخيم
وغسلت القلوب من درن الكفـــر بقلب على الرسالة ملهم
خطوات تبت فى العــالم الهد ى وتعلى الحجى إلى حيث يعظم
فإذا الكافرون وهم الفصاح اللـــسن حول الكتاب فدم وأعجم

وإذا هم مابين خب تغـــابى   ولبيب أتى إليك فاســـلم
يالهذا الكتاب من سـفر يمن   نشر الحق ساميـــاً فتقوم
ماجنى الفكر من تلاوته الفخمـــة إلا جنى معــــــانى أنخم
سمع الناس منه حين تجـــلى   قارعاً يقرع العقول فيفحم
كم بليغ مضى يعارضـــه النهـــج ؛ فأخزى بلاغة المتكلم
وحكيم تمرس الدهر بالحكمة   فاستغلقت عليـــه بأحكم
ضليع فى عالم الشعر فنـا   ن ؛ تهاوى خياله أو تكهم
فقيـــه مشرع راعه التشـــريع فيـــه مدققاً ومقسم
وعليم بالنفس ، أو طرق الحكم   تخلى عن علمه ثم جمجم
واجتماعىّ أمـــة ؛ مصلح النز   عة فيهـــا أصغى له وتفهم
وأخى حجة يجـــادل بالمنـــطق قد طلق الحجاج وســـلم
وقسوس ؛ وباحثين ؛ وأحبا   ر ، سروا فى هداه والليل أسحم
وكبير الدعوى بفلسفة الرو   ح رأى رشد راشد منه أعلم
ذاك قرآنك المجيد طوى الدهــــر ولم يطو ؛ والورى تتقدم
خالد الفضل والنضارة والفكـــرة والعـــروة التى تتأمم
كان حصناً ولم يزل فى البرايا   معقل الحق والحجاج المدعم
يارحاب الوجود هذا شعور الـــدهر بالمرسل الكريم المعظم
فى خطاب يزفه بالتحيـــا   ت ، إلى الخلد ، والوجود مهوم
مفعم بالولاء ، يسرى مع الأنـــفاس حرى ؛ مصلياً ومســـلم

شهادة كبار الفلاسفة والمؤرخين للنبيّ ﷺ

ألم المؤرخ الإنجليزى المشهور المستر « بوسوورث سميث » بتاريخ خاتم المرسلين محمد ﷺ فى كتابه « محمد والدين المحمدى » فأظهر إنصافا يستحق أن يسجل له مقرونا بالشكر . قال فى عرض كلامه عنه :

« وكما كان محمد رئيساً للدولة كان رئيساً للدين أيضاً ، أى أنه كان قيصراً وباباً فى شخص واحد ، ولكنه كان باباً بدون مزاعم البابا وقيصراً بدون أن تكون له جيوش قيصر ، فإذا حق لإنسان أن يقول عن نفسه أنه يحكم بحق إلهى فقد كان ذلك محمداً ، إذ كان حاصلا على كل سلطان الحكم ، لا من طريق وسائله العادية ولا بمقوماته المعروفة .

كان محمد فى وقت واحد مؤسساً لأمة ومقيما لإمبراطورية ، وبانياً لدين ؛ وهو وإن كان أمياً فقد أتى بكتاب يحوى أدباً وقانوناً ، وأخلاقاً عامة ، وكتبا مقدسة فى كتاب واحد وهو كتاب يقدسه إلى يومنا هذا سدس مجموع النوع البشرى ، لأنه معجزة فى دقة الأسلوب وسمو الحكمة ، وجلالة الحق ، كان يقول عنه محمد أنه معجزته الخالدة ، حقاً إنه لمعجزة .

ثم إذا نظرنا إلى ظروف الأحوال ، إلى ما كان لمحمد من الاحترام الفائق الوصف عند أتباعه ، وقارناه بآباء الكنيسة ، وبقديسى القرون

الوسطى ؛ فان أدعى شيء للدهش فى محمد أنه لم يدع قط القدرة الذاتية على إحداث المعجزات ؛ نعم أنه كان يفعل ما يقول : وكان أتباعه يرونه يقوم بتحقيق كل ما يقول أفتريد هـذا برهانا قاطعا على صحة صدقه وإخلاصه ؟ .

لم يحرص محمـد إلى آخر حياته على شيء إلا على ذلك اللقب الذى تلقب به من أول أمره وهو لقب اعتقد بأنه سيأتى يوم ترضى فيه أرقى فلسفة ، وأخلص مسيحية أن تسلم له به ، وهذا اللقب هو أنه رسول الله حقا . . انتهى .

نقول ؛ لقد وفق المستر « بوسوورث سميث » إلى الصواب كله فيما ذكره عن خاتم النبيين محمد ﷺ ، وأكثر ما أعجبنا به من عباراته قوله : « أنه يعتقد بأنه سيأتى يوم تسلم فيه أرقى فلسفة ، وأخلص مسيحية بأن محمداً كان رسول الله حقا » .

نعم وكيف يعقل غير ذلك وكل ما فى حال النبي ﷺ يوجب التسليم له بالنبوة ، قال المؤرخ والفيلسوف الإنجليزى المشهور « كارلايل » عند ذكره النبي ﷺ فى كتابه « الأبطال وديانة الأبطال » ما مؤداه :

« رأيت إن أدعى لك رجل بأنه بناء أكنت تطلب إليه دليلا على صدقه أكثر من أن يبنى لك بيتاً يوجب عليك التسليم له بهذا الوصف ! فما ظنك لو شيد لك بناء يسع مائتى مليون نسمة ، ويبقى ما بناه سليما من

العطب قروناً كثيرة ! فهذا محمد قد أعلن الناس بأنه نبي ، وأتى لهم بدين دخل فيه نحو مائتي مليون منهم ؛ وبقي إلى عهدنا قوى الدعائم ؛ ركين الأركان وأهله أشد تمسكا به وحباً له من أهل أي دين غيره لدينهم ؛ أنضن عليه بوصف النبوة ، وقد أقام على صدق قوله هذا البرهان . »

نقول نحن : هـــذا دليل محسوس يرضى به الفيلسوف المؤرخ الكبير ، وكبار العقول من العلماء ، ولكن قد لا يرضى به صغار العقول من الذين يتخيلون أن الصفات الذميمة من التدليس والتزوير ، قد توصل إلى النجاح الكبير ، وتقوم مقام الصفات النفسية العليا من الصدق . وتقديس الحق ، بل منهم من يتوهم أن تلك أفعل في تحصيل الصيت البعيد والفوز العظيم من هـــذه . فمع هؤلاء يعجز التعليل ، ولا يجدى الدليل . لا لضعف فيهما ، ولا لقصور منهما ، ولكن لجهل أولئك الخابطين ، وعمايتهم عن حقائق الشؤون .

لا ننكر أنه قد يبلغ المجد الكاذب رجل يعتمد على خسيس المحاولات استغلالا لجهل الناس أو ضعف أخلاقهم ، ولكن ذلك لا يخفى على أغبى رجل من معاصريه ، فيعلم أنه ما وصل إلى ما وصل إليه إلا من طريق الخداع والملق والتلبيس فإذا ما مات تولاه التاريخ فكشف من حاله ما كان مستترا ، ونقده نقد الصيرف للدينار الزائف ، وبطل عمله كما يبطل كل عمل لا يبنى على أساس سليم . فان كان ممن يخلط عملا سيئا بآخر صالحاً ، فرق التاريخ بين صالحه وسيئه ، كما يفرق المحك بين الذهب

الخالص وما شابهه من الخبث الدخيل ، وعين النسب المضبوطة لكل منهما . ولولا ذلك لكان أمر الناس فوضى ، وشأنهم مرتبكا مشوشا ، ولما كان للأعمال قسطاس مستقيم ، ولما ألهم الناس مدح الفضائل وذم الرذائل منذ أن برأ الله الحق إلى اليوم .

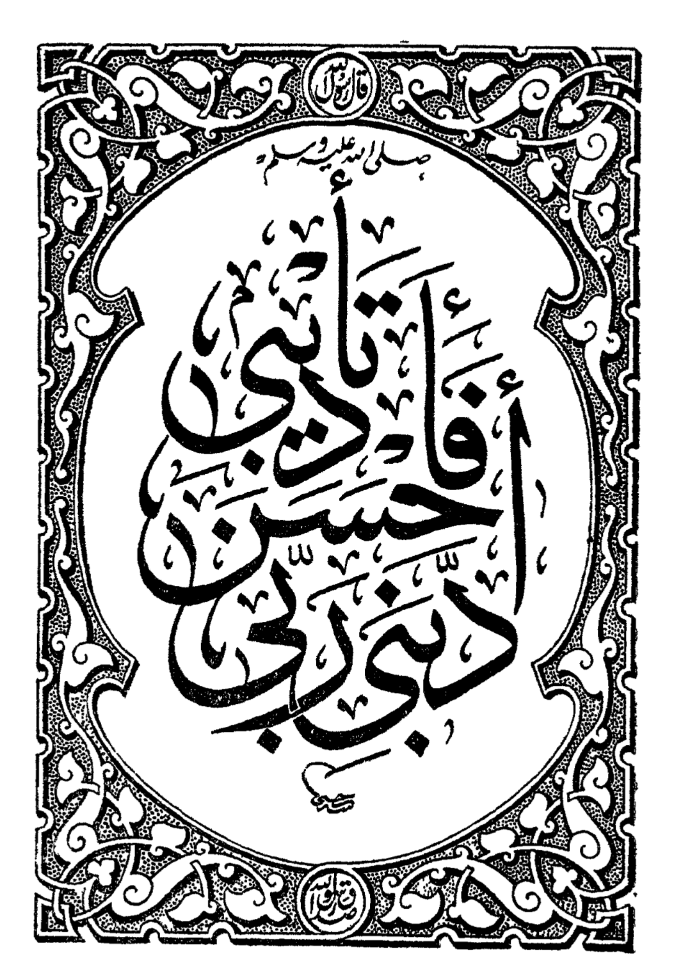
إن الخلط بين الحق والباطل ، وبين الطالح والصالح مستحيل فى الأمور الطبيعية البحتة ، فلا يمكن أن نصادف فيها شيئاً لا يجرى منها على قانون ثابت ، ونظام حكيم ، أفيعقل أن يكون ذلك جائزاً فى الأمور المعنوية كالآداب الفاضلة والأخلاق الذميمة ، وهى أوضح عند الناس ؛ وأولى بأن تنال إجماعهم عليها ؟

وإذا كان هذا مصير الباطل فى حياة الأفراد ، وتلك حاله من علم المعاصرين ، ونقده التاريخ ، فما ظنك به فيما يختص بحياة الجماعات التى عرف بوجه خاص أن شؤونها مرتبطة بنواميس مقررة ، ونظم ثابتة ، ابتنى عليها علم هو أرفع جميع العلوم ، وهو علم الإجتماع البشرى ؟ فهل مما يعقل ، والحالة هذه أن يقوم فى جماعة منها مدلس ، فيجمع شتيتها ويوحد كلمتها ، ويقوم وجهتها ، ويعين غايتها ، ويأتى لها بقانون حكيم يضمن حياتها ؛ ويقيم أودها ، ويكفل سلامتها ، ويقود تطوراتها ، ويحيي عوامل الصلاح والاستقامة فى نفوسها . ويملأها روحاً قوياً وثابة تدفعها للنهوض المادى والأدبي على حال يحصل لها زعامة العالم وخلافة الله فى الأرض ؟ .

هذا أمر يوجب الدهش ، فكيف يعقل من لديه مسكة من عقل أن نفسنا مريضة منحلة كنفس مدلس كذاب ، تكون مصدراً لحياة أمة برمتها ؛ فتنقلها من الظلمات إلى النور ، وتدفعها فى طريق الحياة الصحيحة حتى تبلغ بها إلى زعامة العالم ، وهى درجة لاتنال اعتباطا ، ولكنها تتوقف على علم وعمل ، وفضائل خلقية ونفسية ، وعلى ذخر معنوى تستمد منه الأمة فى كل طور من أطوارها قوة على مكافحة المعضلات ، ومقاومة المجللات من ضرب ؟

إن نشوء الأمـــة الإسلامية وقيامهـا وانتشارها فى الأرض ؛ واضطلاعها بالخلافة الإلهية فى العالم كله وتأسيسها لدولة بلغت من سعة الملك وقوة السلطان إلى ما لم تبلغ إليه أمة قبلهـا ولا بعدها ، قد دوى فى العالم دوياً لا يزال صداه يرن فى الآذان إلى اليوم ، وقد تغيرت له خريطة العالم كله ، وقامت به أمم وسقطت أمم ، وماتت به لغات وحييت لغات ، فيعقل أن تكون عوامل هذا الحادث الجلل الذى لم تر الأرض مايشبهه ، مرتكزة على أســـاس من الكذب والزور والتدليس ، ودعامة من الختل والخديعة والتلبيس ؟ .

اللهم إن هذا محال ! ويدل المتأمل المجرد عن الهوى فى هذا الأمر أن محمداً كان نبياً حقاً وخاتم المرسلين ، وإن أرقى فلسفة ، وأخلص مسيحية ، كما يقول المستر (بوسوورث سميث) ستسلم له بذلك كل التسليم ﷺ صلاة وتسليما يكونان أزاء مقامه المحمود . وفضله المشهود .


قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم
أدبني ربي فأحسن تأديبي

التربية النبوية

عنايته ﷺ بالتربية والتعليم

تحتل قضية التربية مكانة مرموقة من عنايته ﷺ ، وقد تجلت هذه العناية فى كثير من مواقفه وتوجيهاته العالية وفى طائفة كبيرة من أحاديثه الشريفة وإرشاداته الثمينة وحسبنا فى هذا المقام قوله ﷺ فى الإشادة بفضل التربية والتنويه بما لها من شأن خطير: « أدبنى ربى فأحسن تأديبى » .

ويكفينا هنا من مواقفه الدالة على إجلاله لشأن العلم والتعليم إيثاره حلقات الدرس على مجالس الذكر والعبادة ، وتتويجه هذا العمل الجليل بقوله « إنما بعثت معلماً » ، وناهيك بما فى ذلك من تنويه بفضل التعليم وتشريف لزمرة المعلمين .

ومن أقواله الدالة على ما للتعليم من فضيلة عظيمة قوله لمعاذ حين بعثه لليمن ليعلم الناس القرآن وشرائع الإسلام : « لأن يهدى الله بك رجلا واحداً خير لك من الدنيا وما فيها » .

أهداف التربية النبوية

يمكن تلخيص الأهداف الأساسية للتربية النبوية فى الأحاديث الآتية :

١ — (بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) فى هذا الحديث أبلغ تنويه بالتربية الخلقية وبالمنزلة السامية التى تحتلها من عنايته ﷺ .

٢ ــ (خيركم من لم يترك آخرته لدنياه ، ولا دنياه لآخرته ، ولم يكن كَلًّا على الناس) .

فى هذا الحديث أوضح دليل على أن التربية النبوية كانت ترمى إلى إعداد المسلم لأن يكون عضواً صالحاً فى المجتمع ، عالماً لما يعلى من شأنه ويصونه عن ذل العجز والافتقار إلى الناس ، آخذاً بأوفر نصيب من أسباب السعادة الحقة فى الدنيا والآخرة .

٣ ــ (المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفى كل خير ، احرص على ماينفعك ، واستعن بالله ، ولا تعجز) . إن فى هذا الحديث خير دعامة لتربية المسلم على القوة ، والعزة ، والكرامة ، والطموح والإقدام ، والحرص على العمل النافع ، والاعتماد على النفس بعد الله ، وعدم الإخلاد إلى العجز والقنوط .

طريقته ﷺ فى التربيـة

تجنح التربية النبوية إلى التيسير على المتعلمين والرفق بهم وصيانتهم عن مواقف العنت والتعنيف ، ومن الآثار الداعمة لهذا الاتجاه قوله : « إن الله لم يبعثنى معنتاً ولا متعنتاً ولكن بعثنى معلماً ميسراً » . وقوله : « علموا ولا تعنفوا فإن المعلم خير من المعنف » . ومن شواهد ترفقه بالمتعلم حديث ذلك الصحابى الذى شمت أحد المصلين وهو فى الصلاة فما زاد عليه السلام على أن أرشده ــ بعد الصلاة ــ إلى ما ينبغى له أن يفعله فى مثل هذه الحال ، وفى ذلك يقول الصحابى : (فبأبى هو وأمى

ما رأيت معلماً قبله ولا بعده أحسن تعليما منه ، فوالله ما كهرنى — أى ما نهرنى — ولا ضربنى ولا شتمنى . . الحديث) .

ولقد كان ﷺ ينهج فى التعليم منهجاً عملياً يتجلى فى تعليمه الصحابة الوضوء والصلاة ، ومناسك الحج وغيرها من التكاليف الشرعية بطريقة عملية ، وقد سار على نهجه هذا الصدر الأول من السلف الصالح وفى هذا يقول عبدالرحمن السامى : (حدثنا من كان يقرؤنا من أصحاب رسول الله ﷺ أنهم كانوا يأخذون من رسول الله ﷺ عشر آيات فلا يأخذون فى العشر الأخرى حتى يعلموا ما فى هذه من العلم والعمل ، قال فيعلمنا العلم والعمل) .

ومن أبرز خصائص التربية النبوية التدرج بالمتعلين والتبسط معهم وفى ذلك يقول ﷺ : «نحن معاشر الأنبياء ، نخاطب الناس على قدر عقولهم » . ومن شواهد هذا النهج القويم ما أورده (صاحب الترتيبات الإدارية) حيث يقول «ذكر البخارى عن ابن عباس رضى الله عنه : كونوا ربانيين ، علماء فقهاء . » قال البخارى : ويقال الربانى الذى يربى الناس بصغار العلم قبل كباره . قال الحافظ « والمراد بصغار العلم ما وضح من مسائله . وبكباره مادق منها » .

القـــدوة الحسنة:

لا يخفى ما للقدوة من أثر قوى فى التربيـة ولا غرابة فى أن يكون الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، المثل الأعلى فى القدوة الصالحة فقد

أدبه ربه بارىء الخلق ومربيهم بأمثال قوله تعالى : « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » وقوله « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى » وقوله « واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور » وقوله « ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك ، فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله » ولقد زكاه جل شأنه وأثنى عليه بقوله « وإنك لعلى خلق عظيم » ونوه سبحانه وتعالى بمنزلته فى القدوة بقوله « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة » فليس بدعاً إذاً فى أن يكون ﷺ خير أسوة لأصحابه فى مواقف البر والإحسان والبطولة والتضحية ، وأعلى مثل لهم فى الفضائل ومكارم الأخلاق ، وأعظم قدوة للمربين فى التربية والتأديب وحسن الرعاية للأطفال ، يحدب على صغارهم ويترفق فى توجيههم وإرشادهم ويتلطف فى محادثتهم وإيناسهم ويفسح لهم المجال للعب المباح ولا يضن عليهم بمزاحه ومداعباته كما يحبو النابهين من الأحداث ثقته وحسن تقديره ويندبهم للمهمات تشجيعاً لهم ، وإذكاء لمواهبهم ، أما الشبان وذوو الكفايات الممتازة فقد كانوا يلقون من تكريمه وتقديره ما يكون أقوى حافز لهم على الإمعان فى التفوق والتبريز كما كان يمنح الكهول والشيوخ من عطفه وعنايته ما يكون خير عون لهم على بلوغ الدرجة التى ترشحهم لها مؤهلاتهم .

* * *

لوسائل التشويق والإيضاح مكانة بارزة فى طريقته ﷺ تهدف إلى زيادة الإيضاح والبيان وإلى تجديد القوى والنشاط ، فقد كان ﷺ يتخول أصحابه بالموعظة أى يتعهدهم بها آناً بعد آن ، منعاً للسآمة ، وكان يلق عليهم من الأسئلة ما يجدد نشاطهم وانتباههم ، وكثيراً ما يستعمل الأسلوب الاستفهامى كقوله : ألا أخبركم بكذا ؟ أتدرون مامثل هذا ؟ ونحو ذلك ؛ كما كان لضرب الأمثال والقصص الحق نصيب ملحوظ من أسلوبه التعليمى ، بل لقد أباح روايات القصص والحكايات العجيبة عن بنى إسرائيل وقال « حدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج » وكانت تجرى فى مجالس سمره طرف من القصص والأسمار ، كحديث أم زرع ، وحديث خرافة ، ولم يهمل صلوات الله وسلامه عليه وسائل التشويق والإيضاح الحسية ، ومن أمثلة ذلك تصويره الأمل والأجل بالتخطيط تارة وبالحصا تارة أخرى ، وتمثيله بعض المسائل بأصابعه ويديه الكريمتين ، ولما كان اللعب بعيد الأثر فى حياة الأطفال ، فقد أولت التربية النبوية هذه الناحية ما هى جديرة بها من رعاية وعناية ومن المأثور فى ذلك « من كان له صبي فليتصاب له » وإذا كان التراب ومشتقاته كالصلصال ونحوه ذا أثر بارز فى ألعاب الأطفال وإشباع غرائزهم وميولهم وتمرين حواسهم ، مما جعله يحتل مكاناً مرموقاً فى رياض الأطفال فإن فى الأثر الآتى « التراب ربيع الصبيان » أبلغ إشارة إلى الدور الذى يمثله التراب ومشتقاته فى

ألعاب الصبيان ، ولما كانت الصور عنصراً مهماً من عناصر لعب الأطفال ووسيلة ناجحة فى تثقيفهم وتدريبهم على بعض شئون الحياة فقد رخص عليه السلام للصبيان بالصور كما يدل على ذلك حديث عائشة رضى الله عنها قالت (كنت ألعب بالبنات عند النبي ﷺ ، وكان صواحبي يلعبن معى فكان النبي ﷺ إذا دخل ينقمعن منه — أي يستترن — فيسربهن إلىّ فيلعبن معى) ، وقد فسروا البنات باللعب والصور شبه الجوارى يلعب بها الصبيان ، وعلل العلماء الترخيص فيها بما فى هذه اللعب من تدريب للأطفال على تربية الأولاد ؛ على أن لهذا الحديث بقية يمكن أن يفهم منها أن الرخصة فى هذه اللعب قد لا تقتصر على تدريب البنات على تربية الأولاد وقد تتسع لبعض الأهداف الرفيعة التى ترمى إليها التربية الحديثة المتزنة ، كتربية الحواس والخيال وإيضاح المعلومات وتقرير الحقائق البعيدة وما إلى ذلك . . . فقد جاء فى سياق لعب السيدة عائشة بالبنات أنه ﷺ رأى بينها فرساً مربوطاً له جناحان فقال : ما هذا ؟ قالت فرس ، قال : فرس له جناحان ؟ قالت : ألم تسمع أنه كان لسليمان خيل لها أجنحة ؟ فضحك ﷺ .

ومما يمكن اعتباره داخلا فى هذا الاتجاه التربوى الطريف مما يتمشى مع أحدث اتجاهات التربية الحديثة ترخيصه ﷺ بتربية بعض الحيوانات فى المنزل واللعب بها بما لا يؤدى إلى تعذيبها ، كما يدل على ذلك حديث أبي عمير ، وأبو عمير هذا كان طفل له نغر يلعب به فمات ، فدخل على

النبي ﷺ ذات يوم حزيناً فقال ما شأنه ؟ قال مات نغره ، فقال ﷺ مداعباً له « يا أبا عمير ما فعل النغير ؟ » والنغير طائر صغير كالعصفور ، وهو تصغير للنغر ، ولعله الطائر المعروف اليوم فى المدينة بالنغرى .

وقد ورد فى هذا الباب أمثلة لترخيصه ﷺ بتربية بعض الحيوانات فى المنزل نذكر منها ما يأتى :

عن عائشة رضى الله عنها قالت كان لآل النبي ﷺ وحش فإذا خرج النبي ﷺ لعب واشتد وأقبل وأدبر ، فإذا أحس برسول الله ﷺ قد دخل ربض فلم يرم مادام رسول الله ﷺ فى البيت كراهية أن يؤذيه .

وعن على رضى الله عنه أنه شكا إلى النبي ﷺ الوحشية فقال له : « ألا اتخذت زوجاً من حمام فآنسك وأكلت من فراخه ؟ واتخذت ديكا فآنسك وأيقظك للصلاة ؟ » .

كلمة ختامية

هذا عرض مجمل للتربية النبوية نختمه بكلمة موجزة نلفت بها الأنظار إلى الأثر العظيم الذى أحدثته تلك التربية فى الرعيل الأول من السلف الماجدين . فإن ذلك الأثر الجليل أسطع برهان على عظم تلك التربية وبلوغها الدرجة العليا من السمو والكمال ، أليست هذه التربية التى جعلت من المؤمنين السابقين أبطالا يستعذبون الموت وأقسى ألوان العذاب فى سبيل العقيدة ، ويخوضون من أجلها أهوال الحروب والأخطار ، بنفوس تؤثر الجهاد تحت راية التوحيد على عيش الراحة

والنعيم وقلوب تحب الموت والاستشهاد فى سبيل الله كما يحب الناس الدعة والحياة ؟ أليست هى التربية التى آخت بين المهاجرين والأنصار ، تلك المؤاخاة التى أصبحت مضرب الأمثال فى الحب والوفاء والإيثار ؟ أليست هى التى جعلت المسلمين الأولين يتسابقون فى بذل أعز ما يملكون من ثروات ونفوس ، والمسلمات السابقات يتبارين فى تقديم أثمن ما لديهن من حلى وزينة ، ويضحين بفلذات أكبادهن راضيات مغتبطات ؟

أليست هذه التربية التى تمخضت عن أولئك الخلفاء العظام ، الذين بسطوا لواء الإسلام على أكثر أقطار المعمورة وأفاءوا على الدنيا ظل العدل والحرية والمساواة ؟ أليست هى التى أنجبت للعالم تلك النخبة الممتازة من العلماء الأعلام والعباقرة النابهين الذين وضعوا أقوى الأسس والدعائم لأعظم تشريع وأنضر حضارة عرفهما التاريخ ؟ أليست هى التربية التى أخرجت من سكان الصحارى والقفار ، قواداً دهاة فى ميادين الحرب والسياسة ، ورواداً هداة فى حقول التعليم والإرشاد .

إن تربية هذه بعض آثارها الرائعة ، وتلك إثارة من تراثها الخالد ، لقمينة بإثارة كنوزها الثمينة والاسترشاد بمثلها العليا .

قال عليه الصلاة والسلام : (كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، والأمير راع والرجل راع على أهل بيته ، والمرأة راعية على بيت زوجها وولده ، فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته) .

يومين من أيام الرسول ﷺ

يومان من أيام الرسول تضمنا سر النبوة كما تتضمن النواة سر النخلة ، ولخصا تاريخ الإنسانية كما يلخص الجنين تاريخ الإنسان . ذانك يومه الخائف المجهود وقد خرج مهاجراً إلى المدينة ، ويومه الآمن المشهود وقد رجع ظافراً إلى مكة .

كان يومه الأول خاتمة لثلاثة عشر عاماً من المحن الشداد والآلام الفوادح ، تظاهرت على الإيمان والصبر حتى قال الرسول وهو يلوذ بحائط من حوائط ثقيف : « اللهم إليك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس » .

وكان يومه الآخر فاتحة لثلاثة عشر قرناً من النصر المؤزر والفتح المبين ، خنس فيه الشرك واستخذت الجهالة وذلت قريش حتى قال الرسول وهو واقف بباب الكعبة : « لا إله إلا الله ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده » .

وإذا كان للرسول فى تاريخ الإسلام يومان لا تزال العقول تقع منهما كل يوم على سر ، فإن مصدر هذه الأسرار معجزتان لله لا تزال الأفهام تكشف فيهما كل حين عن آية : معجزة الرسول فى خلقه ، ومعجزة القرآن فى بيانه ، وقد انكسر القرن الرابع عشر على هاتين

المعجزتين والأذهان البصيرة الموالية والمعادية تدرس آثارهما وتستبطن أسرارهما، فما بلغت ذلك كنهاً ولا غاية.

كان محمد فى يوميه العظيمين مثل الإنسانية الأعلى: حمل رسالة الله، وحمل أبو جهل رسالة الشيطان، واستحالت مكة المشركة جبلا من السعير سد عليه طريق الدعوة، فكان يخطو فى طرقها وشعابها على أرض تمور بالفتون وتتسعر بالعذاب، وتفجرت عليه من كل مكان سفاهة أبى لهب بالأذى والهون والمعاياة والمقاطعة. وكل قريش كانت يومئذ أبا لهب إلا من حفظه الله. وافتن شياطين مكة فى أذى الرسول، فعذبوه فى نفسه وفى قومه وفى أصحابه ليحملوه على ترك هذا الأمر فما استكان ولا لان ولا تردد وحينئذ تدخل الشيطان بنفسه فى (الندوة) فقرر القتل، وتدخل الله بروحه فى (الغار) فقدر النجاة. وانطلق محمد وصاحبه ودليله وخادمه على عيون المشركين فى الطريق الموحش الوعر إلى يثرب. وكأن هؤلاء الناجين بدين الله لم يكادوا يدخلون فى غيب الطريق حتى انشقت الصحراء عنهم فإذا هم عشرة آلاف من جند الله يجرّون الحديد على النياق الكوم والخيول الجرد، والرسول فى كتيبته الخضراء من المهاجرين والأنصار لا يظهر منهم وراء الدروع غير الحدق. وإذا أبو سفيان زعيم قريش قد اشترى حياته بإسلامه، ثم وقف العباس بمضيق الوادى يشهد جيش الفتح وهو زاحف إلى مكة ويقول:

هذا والله ما لا طاقة لنا به ! لقد أصبح ملك ابن أخيك يا أبا الفضل عظيما . فقال له العباس : يا أبا سفيان . . إنها النبوة !

ثم نحا أبو سفيان إلى مكة فصاح بأعلى صوته : يا معشر قريش ، لقد أتاكم محمد بما لا قِبَل لكم به ، فسلموا تسلموا .

* * *

أهذه مكة الطاغية التي لبثت إحـــدى وعشرين سنة تفور بالسفه والحقد والإفك والضغينة والمعارضة على محمد ودين محمد وأصحاب محمد ؟ ما بالها خشعت خشوع الجناح الكسير ، وسكنت سكون المقبرة المهجورة ؟ لقد باتت ليلة من ليالى يناير الباردة الطويلة وقلبها يرجف من هول الغد وانتقام الفاتح ، أو لائذ بدار أبى سفيان ؛ وإذا فرق الجيش المحمدى الظافر تنحدر من (ذى طوى) مكبرة مهللة إلى جهات مكة الأربع . فلما ارفضت المخاوف عن الناس خرج القائد الأعظم من قبته المضروبة بأعلى مكة يؤم المسجد الحرام ، وعلى جوانب الطرقات ألسنة المسلمين تذكر ، ومن وراء الحجرات عيون المشركين تنظر ، والرسول الكريم قد طأطأ رأسه على رحله حتى كاد يمس قادمته ، فلم يجر على باله أن هذه الأرض التي طورد فيها وسال دمه عليها قد أصبحت ملكه ؛ وأن هؤلاء الناس الذين قذفوه بالأحجار ورموه بالأقذار قد أصبحوا أسراه ، حتى دخل المسجد فطاف ، ثم أقبل على الارستقراطية

الصاغرة وهى تتطامن من القلق والفرق وقال لأهلها الذين أفرطوا عليه فى البذاء والإيذاء : يا معشر قريش ، اذهبوا فأنتم الطلقاء ! .

* * *

كان يوم الهجرة وما قبله تشريعاً من الله فى حياة الرسول للفرد المستضعف إذا بغى على حقه الباطل ، وطغى على دينه الكفر ، ليعرف كيف يصبر ويصابر ، وكيف يجاهد ويهاجر ، حتى يبلغ بحقه ودينه دار الأمان فيقوى ويعز .

وكان يوم الفتح ومابعده تشريعاً من الله على لسان الرسول ويده للأمة إذا اتسعت رقعتها واجتمعت كلمتها واستحصدت قواها لتعلم كيف تنسى الضغائن إذا ظفرت ، وتحتقر الصغائر إذا كبرت ، ثم لا تحارب إلا فى الله ولا تسالم إلا فى الحق .

كانت المدينة وحدها بعد يوم الهجرة مجالا لسياسة الرسول يضم شتات الجماعة ، ويوثق عقدة الدين ، ويجمع أهبة الحرب ؛ فألف بين الأوس والخزرج ، وآخى بين المهاجرين والأنصار ، وعاهد بين المسلمين واليهود ، فكتب فى يثرب جيش الله الذى فتح الدنيا بفتح مكة .

ثم كان العالم كله بعد يوم الفتح مشرقاً لوحى الله وهدى الرسول ، فطهره الإسلام من الارستقراطية بالمساواة ، ومن الرأسمالية بالزكاة ،

ثم على الناس حكم الشورى ، وألزمهم قضاء العدل ، حتى أخرجهم من الوطنية المحدودة إلى الإنسانية المطلقة .

ذانك يومان من أيام الرسول تضمنا أسرار نفسه ولخصا أطوار حياته . فهل تطمعون يا من تظنون أن الزعامة تجوز من غير صدق ، والجهاد يفوز من غير صبر ، والحياة تصلح من غير إيمان ، أن تكون لكم فى رسول الله أسوة حسنة ؟

* * *

عن شداد بن أوس رضى الله عنه قال : قال رسول ﷺ : « سيد الاستغفار أن يقول العبد : اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت خلقتنى ، وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك علىّ ، وأبوء لك بذنبى فاغفر لى ، فانه لا يغفر الذنوب إلا أنت » أخرج البخارى .

واجب الذكرى فى القرآن

يوافق اليوم السابع والعشرين من رجب كل عام ، ذكرى الإسراء والمعراج ، والإسراء والمعراج إحدى معجزات نبى الإسلام ، عليه السلام . واتفق لى أن كنت اتلو خلال ذلك الشهر هذه الآية من القرآن الكريم (سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله ، لنريه من آياتنا .. إنه هو السميع البصير) .

وقفت عندها مليا ، لا متأملا معناها ، ولا مستجلياً سرها ، فهما عندى واضحان بحيث جمعتهما فى خلاصة محكمة : هى أن الله سبحانه يمن على رسوله بالإسراء إلى المسجد الأقصى أولا ، ثم المعراج خلال السموات السبع ثانياً ، وإراءته إياه الآيات البينات أخيراً ولا شىء بعد ذلك إلا التفسير والتفصيل .

وإنما وقفت عند هذه الآية متأملا شيئاً آخر . هو «واجب الذكرى فى القرآن» . ففى هذه الآية من وتذكير بنعمة الله على رسوله بالإسراء والمعراج وإراءة الآيات البينات .

وطفقت أستذكر آيات أخرى من القرآن ، ينصح الله فيها رسوله

بالذكرى . . بل ينصح الناس جميعاً مسلمين وغير مسلمين بأن يذكروا ما مر بهم أو بغيرهم من الأنبياء والأقوام الغابرين من قصص وعبر وأحداث ، نعما كانت أو نقما ، على سواء . . .

إن لكل حدث ـ لفرد أو جماعة ـ سار أو غير سار : ذكرى نافعة تحفز وتوقظ وتنهض ، إن شراً فإلى الخير ، وإن خيراً فإلى المزيد منه .

وذكريات القرآن الكريم من قصص وأخبار وآثار دليل على تحفي الإسلام « بواجب الذكرى » وحثه المسلمين على الاتعاظ بها ، والانتفاع منها . وحسبنا حجة بالغة واحدة فى هذا المقام هذه الآية القرآنية . . (لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب) وحسبنا أيضاً استدلالا على « وجوب الذكرى » أن ننظر فى لفظ « اذكر » ولفظ « اذكروا » الواردين بعدهما ذكريات كثيرة ، هى مواطن عبر ، ومحافزهم ، ومصادر عزمات . . وأن نقدر كما قدر المفسرون قبلنا كلمتى « اذكر واذكروا » قبل لفظة « إذ » الواردة فى القرآن مرات أكثر وأكثر . . فهى تاريخ لمواعظ سلمية ، ومواقع حربية ، رائعة ، نافعة ، رادعة .

فقد جاء فى القرآن من ذكريات نبينا عليه السلام هذه الآيات :

(وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ، ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين) .

(وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات

الشوكة تكون لكم ، ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين) .

(وإذأنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى والركب أسفل منكم، ولوتواعدتم لاختلفتم فى الميعاد)

(إذ تصعدون ولا تلوون على أحد ، والرسول يدعوكم فى أخراكم ، فأثابكم غماً بغم ؛ لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم)

(واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس ، فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون) .

(واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم ، فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار ؛ فأنقذكم منها) الخ الخ الخ . . .

وجاء فى القرآن من ذكريات موسى عليه السلام هذه الآيات :

(وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون) .

(وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ، فأخذتكم الصاعقة) .

(وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد) .

(يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم) .

(وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم) .

وجاء فى القرآن من ذكريات عيسى عليه السلام هذه الآيات :

(وإذ قال الله ياعيسى ابن مريم اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك . . إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس فى المهد وكهلا ، وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل) .

(وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى . . قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون)

(إذ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء ؟) .

(إذ قالت الملائكة يامريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين) .

وجاء فيه من ذكريات الأنبياء والأقوام الآخرين هذه الآيات :

(إذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس . .)

(وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت ألا تشرك بى شيئاً وطهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود) .

(واذكر عبـــادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولى الأيدى والأبصار)

(واذكروا إذ كنتم قليلا فكثركم) ـــ من قول شعيب لقومه .

وبعد فهذا « واجب الذكرى » فى القرآن وتلك أمثلة منه .

وصاحب هذه الذكرى الزكيـة القدسية هو محمد بن عبد الله عليه السلام ، ذلك النبي الفـذ منقذ الإنسانية من الجهالة والضلالة ، ومتمم مكارم الأخلاق ، وهذا ما يعلمه المسلمون ولا يجهلونه ، ولـكنهم ينسونه ولا يتذكرونه . . وذلك ما حفزنى على كتابة هـذا « التذكير » الذى لن يكون تمديحاً لأيام سعيدة فارطة ، ولا فخراً بأحساب وأنساب لا تنفع إذا فسدت النيات وكسدت الأعمال . . فتالله ما ضرنا غير هذه الخطب والقصائد والمقالات التى نكتبها فى الصحف أو نقولها فى المجامع ، ثم لا يكون أثرها غير هتاف وتصفيق وتعجيب أو تحزين يعقبها النسيان المديد .

وإنما هو « تذكير » بالحـادث فحسب . وتقدير « لواجب الذكرى » وحدها ، حتى إذا خطرت ذكرى الإسراء والمعراج بالأذهان الناسية ، وتمثلت مشاهده بالأعين الغـافية . واهتززنا هزة الإجلال لصاحبه الحبيب ، الخليق وحده بحبنا خالصاً له من دون الناس حب طاعة واقتداء . رجعنا إلى أنفسـنا وأهلينا وأممنا فى العالم الإسلامى كله ، ثم فـكرنا

وقدرنا ، فبصرنا بأخطائنا فى البيوت والمدارس والمجتمعات العامة والخاصة : وهممنا بالشروع لإصلاح المفاسد ، وتقويم المعوجات ، وإكمال النواقص ، وتقريب الأبعاد ، وتأليف الخصوم فى سبيل صالح المجتمع الإسلامى أجمع . .

هذا هو « واجب الذكرى » فيما أرى أنها ذكرى من ذكريات رجل الإسلام الأول الذى أخرج هـذه الأمة على اختلاف ألسنتها وألوانها وامتدادها فى أقطار الدنيا من الظلمات إلى النور .

« والإخراج من الظلمات إلى النور » إيجاز معجز بليغ من إيجازات القرآن الكريم ، يطوى تحته معانى كثيرة ، تتوافق فى الأصل وتختلف فى الفروع . .

إنها ظلمات كثيرة ونور واحد :

ظلمات الجاهلية الجهلاء ، والحمية العمياء ، والعقائد السفهة والعادات الجافية والظلم والقسوة والفرقة . . وتلك هى حياتنا قبل الإسلام .

ثم جاءنا « من الله نور وكتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام » من توحيد الخالق ، واتحاد الخلق ، والعدل والفداء فى سبيل الحق ، وإحسان المعاملة ، وتنظيفها من الخيانة ، وتأليف القلوب وتطهيرها من البغضاء .

أما ذكرى الإسراء والمعراج خاصة ، فما أروع وأبدع الأمثلة والصور والمشاهد التى رآها النبى عليه السلام فى معراجه خلال السموات العلى :

رأى امرأة حاسرة عن ذراعيها آخذة كل زينتها ، فسأل جبريل عنها ؟ فقال : تلك الدنيا .. أما إنك لو أحببتها لاختارت أمتك الدنيا على الآخرة .

ورأى قوماً يحصدون ويزرعون ، كلما حصدوا عاد كما كان ، فسأل جبريل عنهم . فقال : هؤلاء هم المجاهدون فى سبيل الله تضاعف لهم الحسنات .

وأتى على قوم ترضح رؤوسهم بالصخرة ، كلما رضخت عادت كما كانت ولا يفتر عنهم من ذلك شيء ؛ فسأل جبريل عنهم ، فقال : هؤلاء الذين تتثاقل رؤوسهم عن الصلاة .

ثم رأى قوماً على أقبالهم رقاع ؛ وعلى أدبارهم مثلها .. يسرحون كما يسرح الأنعام ويأكلون الضريع والزقوم ورضف جهنم — حجارتها المحماة — فسأل جبريل عنهم ، فقال : هؤلاء الذين لا يؤدون صدقات أموالهم المفروضة .

وأتى على جماعة بين أيديهم لحم نضيج فى قدر ، وآخر نىء قذر خبيث ، فجعلوا يأكلون من الأخير ويذرون الأول — فسأل عنهم جبريل . فقال : هذا الرجل من أمتك يدع امرأته الحلال الطيبة إلى امرأة خبيثة فيبيت عندها حتى يصبح ، وهذه المرأة من أمتك تقوم من عند زوجها الحلال الطيب إلى رجل خبيث ، فنبيت معه حتى تصبح ! ! .

ثم رأى عليه السلام الرجل الخائن لأمانات الناس فى صورة جامع لحزمة عظيمة لا يستطيع حملها وهو يزيد عليها !! .

ورأى جماعة من الذين يقعدون على الطريق ويصدون عن سبيل الله فى صورة خشبة لا يمر بها ثوب إلا شقته ولا شيء إلا خرقته !!.

ورأى خطباء الفتنة على صورة قوم تقرض ألسنتهم وشفاههم بمقاريض من حديد ، كلما قرضت عادت كما كانت ، لا يفتر عنهم من ذلك شيء !! .

إلى آخر ما رأى عليه السلام من صور وأمثلة ومشاهد فى معراجه . . فيها موعظة وذكرى لأولى الأبصار وأولى الألباب .

محمد ﷺ وفضله على سائر البشر

لاينكر إنسان أن النظم والقوانين من مقومات البشر ومن لوازمه التى لايعيش حليف السعادة بدونها لأن الفوضى وعدم الانتظام هما سبيلا الانحطاط والتوحش، ولا تطيق أمة السير إلى أوج الحضارة والمعالى بدون أن تتمسك بنظم وسنن فتسعد بها. ومن ذلك يسمى عصرنا هذا [العصر الذهبي] وما ذلك إلا لكونه انبسطت المدنية والحضارة فيه وتفشت فى المعمورة، ولو راجعنا التاريخ وأمعنا النظر فيه لوجدناه يلهج بفضل الأديان من جهة الأنظمة والقوانين والحال المدنية فيهم وتسليمهم بالعلم والدين اللذين فيهما مظاهر الحياة والسعادة.

فالدين أول من أوضح للبشر طرقهم وسن لهم مناهج الحياة وأشدهم كفالة وأعظمهم نظاماً هو الدين العربى الذى أنزل على خاتم الرسل وأشرفهم سيدنا (محمد بن عبد الله ﷺ)، وهذه الدعوى ليست مجردة من الدلائل الناصعة على قطعية صحتها بل ليشهد بذلك فلاسفة الأجانب ونوابغهم. جاء فى كتاب ترجمة القرآن للعلامة: مكس منتى:

«إن مرشد المسلمين هو القرآن وحده. والقرآن ليس بكتاب دين فقط. بل هو أيضاً كتاب الآداب وتجد فيه الحياة السياسية والإجتماعية بل هو يرشد الإنسان إلى وظائفه اليومية. والأحكام الإسلامية التى

لا توجد فى القرآن توجد فى السنة ، والتى لا تكون واضحة لا فى القرآن ولا فى السنة توجد فى الفقه الواسع الذى هو علم الحقوق الإسلامى » .

وقال الدكتور شبلى شميل : « إن فى القرآن أصولا إجتماعية عامة وفيها من المرونة ما يجعلها صالحة فى كل زمان ومكان ، ومن أراد المزيد فعليه بكتبهم فهى أكثر من أن تحصى . ونحن لو رجعنا إلى كتب فقه المسلمين لوجدنا أنها تتكفل للإنسان فى كل وجهات حياته سننا وليس فى الطاقة إحصاؤها بهذه الكلمة الوجيزة ، غير أنى اكتفى بإيراد مثال كبرنامج تعطف عليه المناحى الأخرى .

وذلك أن الدين قد اهتم بحياة البشر بصورة لم يهمله بغير نظام حتى فى أقل ناحية من حياته الحقيرة كآداب دخوله المرحاض وآداب النوم ثم يسن له أدباً فى الأكل والشرب وما إلى ذلك ، هذا لو نظرنا من وجهة عامة ، ولو حللناه بصورة دقيقة ورجعنا إلى ما يضمه بين دفتيه قانون هذا الدين أعنى (القرآن الحكيم) والسنة والحديث لعدنا باعتقاد راسخ أن علم الإجتماع ودروسه إنما أخذت من بين صفحاته ومن آياته الكريمة حيث يقول عز اسمه « وجادلهم بالتى هى أحسن » قضية اجتماعية « ولو كنت فظاً غليظ القلب لا نفضوا من حولك » وغيرها من المشيرة إلى علم الإجتماع بأقصر العبارات وبأحلى الألفاظ ، وإن للسياسة فى هذا الكتاب المقدس مظهراً جلياً كما تقدم وإن قوله تعالى « وشاورهم فى الأمر » وغيرها من الآيات لهم شواهد على روح السياسة وجلائها

فى القرآن ، وانظر كيف يحث الله تعالى على علم الهيئة وعلم طبقات الأرض وعلم الحيوانات بقوله تعالى « أو لم يتفكروا فى خلق السموات والأرض » وبقوله : « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ، الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض » ، ولما نزلت هذه الآية قال ﷺ إكباراً لها (ويل لمن لاكها بين لحييه ثم لم يتدبرها).
وهذه آياته تعالى تنادى بالحث على علم الحيوان بجميع أقسامه كقوله « أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً » « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت » « أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن » ويحث على علم النبات على اختلافه بقوله « أفرأيتم ما تحرثون » وقوله تعالى « وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حباً فمنه يأكلون » الخ الآيات الكريمة « فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صباً ثم شققنا الأرض شقاً فأنبتنا فيها حباً وعنباً وقضباً وزيتوناً ونخلا وحدائق غلباً وفاكهة وأباً متاعا لكم ولأنعامكم » ويحث على التاريخ الطبيعى بقوله « قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق . إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون » .

ثم نجده تعالى بعد ذلك الوصف الذى وصف به رسوله الأكرم وينفى عنه الغلظة يسنها له ﷺ ويجعلها عنواناً من عناوين البطولة فى الحروب فأمره بقوله تعالى « وليجدوا فيكم غلظة » فإن سنة الحرب تقتضى أن يكون الجيش فيه البسالة والغلظة لينال رغائبه ويتخذ فتوحه، فأفرد الله تعالى لهذه القضية آيات وخطابات ليوجد [للقيادة] نظاماً على حدة تكون قضية من القضايا المهمة التى اعتنى القرآن بها وأنزلها منزلة التقدير كقضية اجتماعية أو قضية سياسية أو دينية : إذاً فالقرآن كما قال العلامة : مكس منتى.

أجل : جعل ﷺ يصدع بما يأمره ربه وما زال يجد فى المسير جد البطل المقدام لينيل عامة البشر فضل الدين ويوقفهم على مزاياه الحسنة ويسقيهم من زلال المدنية والدنيوية إلى معبود يلجأ إليه عند الشدائد ويرجع إليه فى المهام ليرتاح ابن الأرض عند مداهمة السرور إياه، أمر فطرى. فالعقيدة، إذاً تكون له ساعد قوة، وأنيس وحشة، يناجيها فى خلواته ويستنصرها على عضات الدهر ونكباته فالعقيدة أنس الوحيد وعرس الفريد.

مسرح صامت لتاريخ النبوة

تكون بعض الأماكن أو البلدان حلقة من ضمن الحلقات المعمورة على وجه الكرة الأرضية لا تشغل بالا ولا تثير اهتماماً ، وقد تكون لانعزالها وركود حركة الحياة فيها حلقة مغمورة بالنسيان تحتوى على جماعة يعيشون على هامش الحياة لا أثر لوجودهم فى محيط الحياة الواسع ولا صدى لاضطرابهم حتى ينبغ فى تلك البقعة عظيم يطبق ذكره الآفاق ويسمع الدنيا بوجوده فتنتقل الأذهان إلى تلك البقعة ، كأن عظمة بطلها مستمدة من أثرها حتى تكون موضع درس واسع وخيال متجدد وحتى تكون كعبة للزائرين يقصدونها ليروا فيض العبقرية والإلهام يتجلى فى جو تلك البقعة وقد تكون قاحلة محرومة من جميع مفاتن الطبيعة وسمو الحياة ، ولكن الخيال المتجدد يطبع على تلك البقعة القاحلة الجرداء صوراً من النضوج والسمو ويلاحق فيها مناظرة حية تبعث الشعور وتوقظ النفوس وتذكى الأحاسيس ، فإذا بالرواية رواية البطل والبطولة ، خالدة تمثل فى كل ناحية من تلك البقعة وتنكشف فى كل نفس بألوان ومرائى على قدر استعداد النفس لها وتقبلها للتلقى والإلهام ، والبقاع من هذا القبيل متعددة على سطح الكرة المعمورة ، ولكن المدينة المنورة أعظمها أثراً وأوفرها حيوية وأغزرها حقيقة وأوضحها خيالا وأقواها تلقياً وإلهاماً .

يمر بذهن الزائر أنه سيزور المدينة فتنطبع فى نفسه صورة صادقة عن بدء الدعوة الإسلامية ويرى — ويكاد أن يرى بعينيه — جماهير قريش من الغوغاء العامة فى صخب ملح وحديث مضطرب عن هذا الداعى المحبوب المفدى الذى قام بهذه الدعوة المنفردة من آلهتهم والمتحدية لعقائدهم والتى توشك أن تنتقل بهم إلى مجهول عظيم لايعرفون له مدى ولا يقفون منه عند حد ، أما الخاصة منهم فهم فى كبر طاغى وتفكير عميق وحيرة مظلمة . لايجدون مخرجاً من هذا الأمر . فلا العنف والقسوة تصلح فيه ، ولا الحيلة والمكيدة مجدية ، ولا الإغراء والترغيب نافع ، والدعوة مستمرة كنور الفجر يشيع فى أعقاب الليل المظلم لايحول دون شيوعه حائل . وإذا بالأمر يفلت شيئاً فشيئاً من أيدى أولئك السادة الجبابرة ، وإذا بوفد يثرب ـ المدينة ـ التى حضرها الله فتحتضن هذه الدعوة حتى تصدر منها إلى جميع بقاع العالم وتأرز إليها كما تأرز الحية التى تمثل أقصى ما يتصوره الذهن البشرى من حيوية وقد قامت بجولة واسعة النطاق فى أبعد الآفاق ثم تعود إلى مقرها الأول المحدود ، وإذا بوفد هذه المدينة التى هيئتها القدرة لهذه المهمة السامية يفد إلى مكة ويضع يده فى يد ذلك النبى العظيم آخذاً على نفسه عهداً لم يؤخذ وقد قبله بمثله على نفسه وقومه ، ثم يسمع ويكاد أن يسمع بأذنه — تلك الأصوات المرغية المزبدة والأحقاد المتأججة الثائرة تشيع فى مكة من أقصاها إلى أقصاها تلك الهمسات التى يتناقلها الأنصار المخلصون والأعداء من

اليهود الحاقدين ومن المنافقين المذبذبين ، ويتناقل العرب المتنقلون بين أطراف البلاد العربية تلك الأصوات المزمجرة والهمسات الممعنة فى التحدى والغبطة والسرور وتلك العداوات التى تمشى الضراء كما يمشى الليث الدليل فى غيله وقد أخذت عليه المسالك والفجاج فلا أحقاد مكة تقف فى سبيل انتقال الداعى الأمين إلى المدينة التى أخذت على نفسها حماية الدعوة ونشرها والذود عنها ، ولا ضراء اليهود المنافقين يقلل من أهمية تلك الحماية والنصرة ؛ وتشرق شمس النبوة على ربوع تلك المدينة السعيدة ويتأسس أول مسجد فى الإسلام على مرأى ومسمع من الأعداء والمنافقين ويتنزل القرآن فتنشرح له الصدور وتذوب منه القلوب خشية وخشوعاً ، ويتمكن الإسلام مع كل لحظة ويدخل فيه الناس أفواجاً ويأتى نصر الله الذى وعده رسوله والمؤمنين ويأتى الفتح الأعظم فتستقر الدعوة فتبقى هذه الفترة من الحياة فى هذه المدينة السعيدة فترة خالدة خلود القرآن ماثلة فى كل لحظة للعيان ثم ينتقل الرسول عليه السلام إلى الرفيق الأعلى ويبقى موضع حجراته رغم كل تغيير وتزويق مكاناً يبعث فى النفس صوراً صادقة للحجرات على ما كانت عليه يحيط بها لون من ألوان الحياة التاريخية التى لا تنبعث فى النفس إلا عند ما يحضر إلى ذلك المكان ويرى وكأنما يرى بعينيه المسلمين الأولين متجمعين فى المسجد المسقوف بجذوع النخل يتطلعون فى سكينة وخشوع إلى الحجرات المرقومة التى تتعلق بها قلوبهم وتنصت إلى حركات الرسول

فيها أسماعهم ويجدون النور الباهر يفيض منها فيبهر أبصارهم ، ويرى وفود الزائرين للقبر الشريف يسلمون على النبي الكريم فينتقل ذهنه إلى وفود المسلمين إبان انتشار الدعوة ، يفدون لتلقي الهداية وسماع القرآن والقيام صفوفاً خلف النبي عليه السلام يؤدون الفرائض ويقتبسون النور ثم يرجعون إلى أهليهم عامرة قلوبهم بالتقوى والإيمان ، وينتقل الزائر إلى ضواحي المدينة فيواجهه أحد ؛ ذلك الجبل الأشم الذى شهد أعظم صراع شهدته البشرية ؛ صراع النور والظلام ، صراع الهدى والضلال ، وتعبر بخلده حوادث غزوة أحد والخندق ومقتل حمزة وحوادث الفداء ويجد فى القرآن الكريم أعظم نور يلقيه على تلك الحوادث والمشاهد فيتلاشى الحاضر فى عينه حتى لا يكاد يظهر له أثر ؛ تتمثل تلك الفترة السعيدة من تاريخ الدنيا بأسرها قوية زاخرة بالحياة والنور ويشهد تاريخ النبوة مدوياً ومجلجلا يملأ مسامع الكون وتنحنى له الرؤوس إجلالا وإكباراً .

تلك هى مدينة المصطفى ﷺ وهذه لمحة من حبها الخالد الذى لا ينتهى وإلهامها الدائم الذى لا ينقطع .

عزيمة الرسول

هو الآن على درج الصفا : يابنى عبد المطلب ، يابنى عبد مناف . يابنى زهرة ، يابنى تيم ، يابنى مخزوم ، يابنى أسد . . إن الله أمرنى أن أنذر عشيرتى الأقربين وإنى لا أملك لكم من الدنيا منعة ولا من الآخرة نصيباً إلا أن تقولوا لا إله إلا الله .

ويرجع الصدى صوت أبى لهب يدوى بين همهمة الجماهير المحتشدة: تباً لك سائر هذا اليوم . . ألهذا جمعتنا ؟

فتكون الصدمة . . ويتفرق الناس بدداً فى شعاب مكة ساخرين مستهزئين !

« تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ما أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ سَيَصْلَىٰ نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ » .

كانت صدمة يصح أن يكون لها مفعول الصدمة الأولى فى غير نفس محمد صلى الله عليه وسلم . أما هذه النفس العالية ، أما هذا المبدأ الثابت ، أما هذه العزيمة عزيمة محمد فتستحيل أمامها جميع الصعاب طرقاً سهلة يتخطاها فى عزم إلى غايته .

وقد كان . . فقد مضى وحده وعشرات القبائل فى مكة تتألب ضده يتحداهم ، ويتحدى آلهتهم .

وتغص دار الندوة بأشراف قريش يبحثون هذا الجلل ويتبادلون الرأى فيه كخطر داهم ، ويمشى عظيم مكة أبوسفيان فى جمهرة من كبرائها إلى دار عمه أبى طالب : « ياأبا طالب إن ابن أخيك سب آلهتنا فإما أن تكفه عنا ، أو تخلى بيننا وبينه » ، ويظنونها كافية للفت فى هذا العضد ولا يدرون أنها عزيمة محمد .

ويستأنف أبوسفيان مشيته فى أهول رهط إلى عمه مرة أخرى « ياأباطالب إن لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا وقد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا ، وإنا والله لانصبر على هذا لتكفه عنا أو ننازله وإياك حتى يهلك أحد الفريقين » .

وينهى أبوطالب إلى ابن أخيه بما انتدب : « يا ابن أخى ابق علىّ وعلى نفسك ، ولا تحملنى من الأمر مالا أطيق »

كلمة هائلة وتحد حاد يكفى للتأثير فى أقوى النفوس وأشدها شكيمة ولكنها ... ولكنها عزيمة محمد .

لم يتلكأ ولم يستنظر بل أرسلها قوية صارخة « والله ياعم لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ماتركته » .

ويجمع العم الشيخ فى أثرها أطراف عباءته وهو يشد على يده « إذهب يا ابن أخى فقل ما أحببت فوالله لاأسألك بشىء تكرهه » .

وتمضى الأيام آخذة برقاب بعضها ، ويمضى معها سيدنا محمد دائباً

فى دعوته . . كما تمضى قريش ممعنة فى عدائها وإيذائها ، حتى يقف عتبة ابن ربيعة منتدباً من قريش فيهيب بهذا الطود « إنك منا ياابن أخى حيث قد علمت من المكان فى النسب ، وقد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم فاسمع منى أعرض عليك أموراً لعلك تقبل بعضها .

إن كنت إنما تريد بهذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا .

وإن كنت تريد تشريفاً سودناك علينا فلا نقطع أمراً دونك .

وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا .

وإن كان هذا الذى يأتيك رئياً من الجن تراه لاتستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الأطباء وبذلنا فيه أموالنا حتى تبرأ .

عرض هادىء وإغراء جميل مشوق .

المـــال . . . المال كل زينة الحياة ونهاية الرغبة فيها .

ما أكثر مابيعت بالمـال همم ، وخفرت ذمم ، ونسيت فى سبيله مبادىء ومذاهب وأديان .

والسيادة . . السيادة نشوة تغرى فطاحل الناس وتنسيهم واجباتهم وتلويهم عن عقائدهم ، وآرائهم فى الحياة ، ولـكنها عزيمة محمد ﷺ .

ويلتفت النبي إلى المنتدب « دونك ياعتبة آيات من التنزيل تحضرنى الآن ثم يتلو عليه سورة (حم .. السجدة) حتى آخرها ولا يتكلم !

وينصرف عتبة وقد ترك فيه الإعجاز أثراً بالغاً إلى مجالس قريش

بغير ماتوجه « أرى أن تتركوا محمداً للعرب فإن تغلبوا عليه استرحتم ، وإن اتبعوه افتخرتم » .

إلا أن قريشاً كانت أكثر عنتاً من أن يقنعها مثل هذا الرأى تمضى فى مناوأتها أشدما تكون قسوة وغلظة فتتعاقد على مقاطعة محمد وأصحابه ومنع الاتصال بهم والتحدث إليهم ، ويضمنون ذلك وثيقة تظل محترمة ثلاث سنوات متتابعة يحتمى أثناءها سيدنا فى أحد شعاب مكة يعانون الحرمان والجوع .

إلا أن محمداً ﷺ يبقى كما هو محمداً عليه صلوات الله ، لاتلين قناته ولايعجم عوده .. يحتمل كل هذا وأكثر من هذا ، ثم ينفتل رغم كل هذه الضائقة كلما أظلت أشهر الحج إلى مواقف الحجيج ليصرخ فى رواد مكة من حواشى الجزيرة « هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة » .

يا لجلال هذه العظمة . يا للقوة ، يا للثبات والعزم .

ويعترضه علج من أعلاج البادية فيسفى التراب على وجهه الشريف فيدخل على ابنته فاطمة فتذرف دمعها حزناً عليه فلاأكثر من أن يربت على كتفها ، ويهدىء من روعها : « لاتبك يابنية فالله مانع أباك » .

هذه عقول كبيرة لاتقيس الكرامة بالمقاييس التى تعترضنا فى حياتنا العامة ، وهذه نفوس لاتسأم ولاتضجر ولاتتألم لسفيه يصفعها أو علج يسفى التراب عليها ، أو جماعة من الغوغاء يتألبون على إيذائها .

هؤلاء أفذاذ يسمو بهم استعدادهم عن أمثال هذه الترهات وهى

بالنسبة لمـا تركز فى نفوسهم وما انطوى فى جوانحهم توافه لاقيمة لها ولايعنيهم شىء منها .

وتتطور مساءات قريش فيلتمس ثقيفاً فى الطائف آملا نصرتها فيجد عند ثقيف ماوجد فى قريش ويردى به الظمأ والجوع وحر القفار فيحتمى بكل شجرة ويرفع رأسه إلى الله ضارعاً « إلى من تكلنى يارب ؟ إلى بعيد يتجهمنى ؛ أو إلى عدو ملـكته أمرى . . إن لم يكن بك علىّ غضب فلا أبالى »!

إن لم يكن بالله عليه غضب فلا يبالى . . نعم لايبالى جوعاً أوهواناً أو إيذاء أو ملء السموات والأرض خلقاً يتضافرون على كيده أو حربه . . . لـكن شيئاً واحداً يبالى به ويخافه . . هو أن لايكون بالله عليه غضب !

هذه قلوب عامرة لايفهمها أمثالنا كل الفهم ولابعضه .

وهذا إيمـان لايتذوق حقيقته إلا نزر صفت أرواحهم ؛ وذابت حقائقهم فى ملـكوت أعلى من هذا الملـكوت .

منا من يقبع فى ضراعة أمام أصحاب الطول فى الحياة وتختلج شفتاه دون أى داع للاختلاج ليقول لهم « إن لم يكن بكم علىّ غضب فلاأبالى » أما أنه يضرع بها لترقى فى السماء صعداً فذلك هو النزر .

وذلك هو الفرق بيننا ، ونحن كما نحن ، وبينه وقد دان له كل ذى طول واعترف به سيداً كل ذى طول فى ثلاث أرباع الأرض .

وجوب الإيمان برسالة محمد إلى جميع الناس

عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « والذى نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودى ولا نصرانى ثم يموت ولم يؤمن بالذى أرسلت به إلا كان من أصحاب النار » .

أخرجه مسلم

لما بعث محمد صلى الله عليه وسلم وآمن به من آمن وكفر به من كفر رأى بعض أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، أن يتخذوا لأنفسهم رأياً وسطاً فى زعمهم بين المؤمنين به والمكذبين له فقالوا إنه رسول الله حقاً ، لكن لا إلينا بل إلى الأميين ، كأنهم لم يسعهم تكذيبه جملة لما بهرهم من دلائل صدقه . ولم يستطيعوا فى الوقت نفسه مقاومة أهوائهم والنزول عن كبريائهم فيكونون منه كالتابع من المتبوع ، ففى شأن هذا الفريق سبق هذا الحديث للرد عليهم بأبلغ وجهه وآكده .

أقسم النبي صلى الله عليه وسلم بالله الذى بيده نفس محمد أى روحه أو ذاته على أن دعوته موجهة لليهود والنصارى كغيرهم على السواء ، وأن شريعته ناسخة لما يخالفها من الشرائع ، وأن رسالته للخلق كافة ، حسبما نطق بذلك قوله تعالى : « وأُحى إلىّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ » وقوله عليه السلام فى حديث الصحيحين (أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلى : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لى الأرض

مسجداً وطهوراً فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصلّ ، وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى الناس كافة) .

وإنما اختار هذه الصيغة فى القسم تنبيهاً إلى مافى الافتراء على الله من المخاطرة بالنفس ، كأنه قال : كيف أجرؤ أن أقول على الله ماليس لى بحق وروحى فى يده وهو القادر على أن ينتقم من الكاذب ؟ فهذا منه إشارة إلى الآية الكريمة « ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ، ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحد عنه حاجزين » .

وكلمة (اليد) فى الحديث أو فى (اليمين) الآية يقول فيها العلماء المحدثون : إن معناها القدرة أو القوة وهو استعمال مجازى مشهور يقال لا يدين لى بكذا أى لا قدرة لى عليه . أما السلف الصالح فقد اشتهر عنهم أنهم لا ؤولون هذه الظواهر ، بل يأخذونها على حقائقها ، والواقع أنهم لا يمنعون أصل التأويل ، ولكنهم يسلكون فى تأويلها مسلكا علمياً متيناً يدل على علو كعبهم فى الفهم رضى الله عنهم . ويجب أن نفسره هنا لأنه ينفع فى مواضع كثيرة .

وبيانه أنه لما دلت الأدلة القاطعة ، على مخالفته تعالى للحوادث كان هذا قرينة مانعة عن إرادة المعنى الحقيقى المعروف لنا . فإذن هى مصروفة عن هذا الظاهر يراد بها معنى مجازى ، لكننا لم تقم لنا قرينة معينة على تحديد هذا المعنى المجازى ، هل المراد به القدرة أم الإرادة ؟ أم صفة

أخرى لا نعرفها ؟ أم ليس هناك مجاز فى المفرد يشار به إلى صفة معينة وإنما هو كلام تمثيلى لتربية المهابة فى النفوس ؟ فكل ذلك سائغ فى النظر وليس هناك دليل يعين واحداً بخصوصه من هذه المعانى . لذلك وجب أن نقف حيث وقف بنا الدليل ، فلنثبت له تعالى ما أراده من كلامه على الوجه الذى أراده ، مع تنزيهه عن المعنى الذى نعرفه من صفة المخلوقات .

نرى من هذا أن السلف يجوزون المعنى الذى ذهب المحدثون على أنه احتمال يحتمله الكلام . ولكن لا يلتزمونه التزاماً ، لأن القول بالالتزام قول بغير دليل ، فلذلك سكتوا عن الخوض فى تحديد معانى هذه الظواهر واكتفوا بمعناها الإجمالى المصروف عن الظاهر .

أما طريق الخلف وهو الخوض فى تحديد التأويلات فإنما ألجأهم إليه — والله أعلم — ظهور بدع المشبهة ، والمجسمة وغيرهم ، فأرادوا سد باب الإيهام ، ودفع الوساوس عن العوام لكيلا يخرجوا عن التنزيه ولا يحرموا حول التشبيه جزاهم الله خيراً بما قصدوا ، وغفر لهم تحديد ما حددوا .

وجملة القول أن طريق السلف أليق بالعلماء ، وطريق الخلف أصلح للعوام .

بقى سؤال يجول بالخاطر ، ما فائدة القسم فى موضوع كهذا يعد من أصول الدين ، مع أن العقائد إنما تثبت بالبراهين ، لا بالحلف وتأكيد اليمين ؟

وجوابه أن الفريق الذى سيق الحديث للرد عليه مفروض فيه أنه مؤمن بأصل الرسالة ، ولا شك أنه إذا ثبت الإيمان بأصل الرسالة ولم يبق إلا البحث فى مدى تلك الرسالة وحدودها ، فإن هذا القدر لا يحتاج برهاناً عقلياً جديداً وإنما يعوزه أن يقول الرسول نفسه : إن رسالته عامة أو خاصة ويؤكد لنا أنه يخبر بذلك عن ربه لا عن رأيه ، فحينئذ ينسحب دليل الصدق العام على هذا الخبر الخاص لأنه لا يجتمع فى العقل كونه رسولا وكونه مفترياً .

على أن من ينظر فى طبيعة الدعوة الإسلامية نفسها لا يسعه إلا الجزم بعمومها لكل الأمم ودوامها فى كل زمن ، وتفصيل ذلك ربما خرج بنا عن المقام ، وحسبنا الآن أن ننظر إلى مثل واحد وهو قوله عليه الصلاة والسلام فى الحديث الصحيح الذى رواه مالك ومسلم وأصحاب السنن الأربعة : « لقد هممت أن أنهى عن الغيلة حتى ذكرت أن فارس والروم يصنعون ذلك فلا يضر أولادهم » ، فلو كان شرعه خاصاً بأمة من الأمم لها مزاجها الخاص وبيئتها وفوائدها الخاصة فما شأنه بالأمم الأخرى المخالفة لها فى أسلوب معاشها ووسائل إصلاحها ؟ ولكنه يضع قانوناً يسرى على العربى والعجمى ، والأمى والكتابى والبادى والحاضر والآتى والمعاصر ، فلذلك لم ينه عن الغيلة نهياً عاماً ، لأن الضرر بها ليس مطرداً فى كل الأقطار ، ولا فى كل الأمزجة وتركها للقاعدة العامة (لا ضرر ولا ضرار) .

لا يسمع بى أحد من هذه الأمة : أمة الدعوة من يوم بعث إلى يوم القيامة ولا يصح أن يراد أمة الإجابة لقوله : يهودى ولا نصرانى وهما صفتان لاحد . وخصهما بالذكر مراعاة لسبب إيراد الحديث ، ولأنه إذ ثبت الحكم فى حق من ترك الإيمان ببعض الرسل كان تارك الإيمان بالرسل كلهم — كالمشركين — أوتارك الإيمان بالله — كالماديين المعطلين — أحق به وأولى .

ثم يموت ولم يؤمن بالذى أرسلت به : الجملتان معطوفتان على يسمع ، أو الأولى معطوفة والثانية حالية ، وهذا أقرب أى ثم يموت غير مؤمن والتعبير بكلمة (ثم) إما لاستبعاد حصول الموت على الكفر من أهل الكتاب بعد سماعهم به ، وإما مراعاة لجانب المفهوم لما سنبينه فى آخر الحديث . (إلا كان) : أى صار أو كان فى علم الله تعالى من أصحاب النار الملازمين لها ، كما هو معنى الصحبة . وعصاة المؤمنين وإن عذبوا بالنار لا يسمون من أصحاب النار ، لأنهم إنما ينزلون عند أصحاب النار إلى أمد ، ثم يرجعون إلى دارهم التى أعدت لهم .

دل الحديث بمنطوقه على أن الذى يكون من أصحاب النار ، هو من يجتمع فيه أمور ثلاثة :

(١) أن يسمع بالرسول ، أى تبلغه دعوته وما جاء معه من دلائل صدقه .

(٢) أن لا يؤمن بما أرسل به .

(٣) أن يموت على ذلك .

ومفهومه أن النجاة من النار يكفى فيها واحد من ثلاثة :

إما أن لا يسمع بالرسول أى لا تبلغه دعوته كمن عاش منقطعاً عن العالم فى جبل أو جزيرة ، أو راعياً فى برية أو مشتغلا فى منجم أو نحو ذلك ، فهذا ليس من أصحاب النار سواء أكان على دين باطل أم لم يكن على دين أصلا .

وإما أن يسمع دعوته ويؤمن بالذى أرسل به ، وهذا ظاهر .

وإما أن يسمع ولا يؤمن ، ولكنه لا يستمر على كفره إلى الموت، فهما تأخر إيمانه ووقع قبل الموت نفع ، ولعل هذا مما تشير إليه كلمة (ثم) لكن محل نفع الإيمان قبل الموت ما لم يقع حال الغرغرة حين الموت لأن الإيمان عند ذلك إيمان اضطرارى بالمشاهدة كالإيمان يوم القيامة ، وليس هذا هو الإيمان المكلف به ، فقد أمرنا أن نؤمن بالغيب اختياراً .

المراجع

١ ـ الاسلام والنصرانية لفضيلة الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده

٢ ـ المدنية والإسلام لحضرة صاحب العزة محمد فريد وجدى بك

٣ ـ وحى الرسالة للأستاذ أحمد حسن الزيات

٤ ـ من هدى القرآن للأستاذ محمد نمر الخطيب

٥ ـ عبقرية محمد للأستاذ عباس محمود العقاد

٦ ـ الجواهر السنية للأستاذ محمد على بن حسين المالكى

٧ ـ نور اليقين للشيخ محمد الخضرى بك

٨ ـ مجلة الحج تصدر فى مكة المكرمة

٩ ـ مجلة الهلال تصدر عن دار الهلال بالقاهرة

١٠ـ مجلة المنهل تصدر فى المدينة المنورة

١١ـ مجلة الإسلام تصدر بالقاهرة ـ مصر

١٢ـ مجلة نور الإسلام يحررها علماء الأزهر الشريف بالقاهرة

١٣ـ مجلة لواء الإسلام تصدر بالقاهرة ـ مصر

١٤ـ مجلة التقوى تصدر بالقاهرة ـ مصر

بعض محتويات كتاب الدين والحج

للحاج عباس كراره

الشهادة وشرحها . الصلاة وإقامتها . الصلاة وأداؤها . الصوم وجزاؤه . الحج والغرض منه . الحج ومتى وعلى من يجب . واجبات الحج . سنن الحج . المحرمات . رأى الأئمة فى بيان الأفضل من الأنساك الثلاثة . الحج والمنافع . حكمة مشروعية الحج . الحجة البدلية . العزم على أداء فريضة الحج . إرشادات عامة للحجاج . المطلوب ممن يريد الحج . نصيحة ولادة العابدية بمناسبة الحج . عند الخروج من المنزل للحج . صلاة المسافر . الميناء . عند ركوب الباخرة . الإحرام . مواقيت الإحرام . التلبية . للطواف . عند نزولك من الباخرة . جدة . السفر منها إلى مكة والمدينة . المسافات بالقطر الحجازى . المسافات داخل مكة . باب مكة المكرمة . باب السلام ودعاؤه . الكعبة المعظمة . الطواف . كيفية الطواف . الحجر الأسود . دعاء الأشواط السبعة أثناء الطواف . الملتزم بالكعبة ودعاؤه . حجر سيدنا إسماعيل عليه السلام ، دعاء حجر إسماعيل عليه السلام . بئرزمزم . السعى بين الصفا والمروة ودعاؤه . الحلق أو التقصير . دعاء عرفه . دعاء مزدلفة . رمى الجمار ودعاؤه . التحلل . العودة إلى مكة لطواف الإفاضة . العمرة . الوداع . زيارة المدينة . دعاء الروضة السلام على الرسول صلى الله عليه وسلم . البقيع . قبا . المزارات المأثورة . وداع المدينة عند الخروج منها . الحجر الصحى سنن القدوم على العودة للوطن . وغير ذلك مما يهم كل حاج معرفته

هذا الكتاب يحتوى على تاريخ شامل يمتاز ببساطة التعبير والخلو من التعقيد

كتاب



حياة محمد صلى الله عليه وسلم

مولده









جمعه ولخصه مما كتبه علماء العصر الماضى والحاضر

الحاج عباس كراره

الطبعة الثانية

الثمن ١٠ صاغ بمصر
ريال سعودى بمكة

يباع بجميع المكاتب بمصر ومن مكتبة كراره بالسيدة زينب ت ٢٠٧٤٤

أهم محتويات كتاب الدين والتاريخ للحاج عباس كراره

الدور الأول يبتدىء بمولده وينتهي ببعثه ومدته أربعون سنة

ميلاد الرسول (ص) . نسب الرسول . رضاعته . حواضنه . شق صدره . ختانه . عوده لأمه . أعمامه وعماته . وفات جده . كفالة عمه . سفره إلى الشام . بحيرة الراهب . حروب الفجار . حلف الفضول . تجارته . زواجه . وفاؤه لزوجه . حكمه . تعدد الزوجات . شهوده بناء الكعبة . حالة العرب قبل ظهور محمد رسول الله (ص) . الإسلام دين المساواة .

الدور الثاني يبتدىء من بعثه وينتهي بهجرته ومدته خمس عشر سنة

بعثه . أول ما أنزل عليه من الوحي . ذهابه لورقة . فترة الوحي . الدعوة إلى الإسلام سراً . أول ما فرض من أركان الإسلام . إسلام حمزة . إسلام عمر . الجهر بالدعوة . إيذاء قريش للرسول . تحدى قريش بالقرآن . الهجرة إلى الحبشة . حصار بنى هاشم . وفاة أبي طالب . وفاة خديجة .

الدور الثالث يبتدىء من هجرته وينتهي بوفاته ومدته عشر سنين

مقدمة الهجرة . بيعة العقبة . تآمر قريش على قتل النبي . من مرافق الهجرة . قدوم الرسول للمدينة . استقبال الرسول . العبرة بالهجرة . التاريخ بالهجرة . الهجرة الدائمة . هجره النبي . من وحي الهجرة . الرسول وأبو بكر في الغار . مسجد الرسول . شرعية الأذان . غزوات الرسول . نفسية الرسول . ليلة الإسراء . قريش وحادث الإسراء . فتح مكة . مفتاح الكعبة . أخلاق الرسول . فريضة الصلاة والصيام والزكاة والحج . حجة الوداع . مرض الرسول وفاته . كفنه . الصلاة عليه . دفنه .

كتبه كبار علماء العصر الحاضر والماضي

تقريظ

بقلم نابغة العصر وفيلسوف الإسلام العلامة الأستاذ

محمد فريد بك وجدى

هذه درة من عقد من المؤلفات الثمينة يبدأ بكتاب (الدين والحج) وينتهى بكتاب (الدين والصحة) مدبجة جميعها بقلم الأستاذ الألمعى الحاج عباس أفندى كراره — وقد بسط فيه السيرة النبوية على صاحبها صلوات الله وسلامه ، فلم يدع صغيرة ولا كبيرة مما تجب معرفته عن هذه السيرة الكريمة إلا جاء بها بعبارة طليقة وأسلوب بديع ، مما يدعو القارىء إلى المضى فى مطالعته دون أن يشعر بملل ، وهى مقدرة كتابية يعطيها الذين يكتبون عن عقيدة راسخة ، ويصدرون عن إيمان صحيح — ومما يمتاز به هذا الكتاب أنه على إيجازه جمع فى عبارات ممتعة وفصول موجزة ، خلاصة ما يجب الإلمام به عن رسول بعث ليكون للعالمين نذيراً وهى براعة كتابية تستحق التنويه ، وتستوجب الإعجاب ،

ومن مميزات هذه السيرة أن عنوانات بحوثها من أمثال (حياة الرسول) و(ميلاد الرسول كان حدثاً تاريخياً عظيما) و(بشائر الأنبياء بمولد النبى العربى) و (بعثة النبى) كتبت بخطوط من النسخ والثلث والفارسى غاية فى الاتقان بقلم مشاهير خطاطى مصر . كل هذا جعل الكتاب نسيج وحده بين الكتب . وهو جهد يستحقه موضوعه . ويغرى مقتنيه بمطالعته ، ونحن إزاء هذه الجهود الصادقة نشكر لمؤلفه الألمعى عظيم اجتهاده ، ونرجو له التوفيق .

١٣٧٢/١١/٢٣ هجرية

محمد فريد وجدى

كلمة الاذاعة البريطانية العربية بلندن

فى ندوة المستمعين المسائية الأولى

بتاريخ ١٠/٤/١٩٥١

سيداتى وسادتى . . . السلام عليكم ورحمة الله . . .

وردت إلينا مؤخراً رسالة رقيقة من الحاج عباس كرارة طبيب الأسنان المعروف فى مكة المكرمة ، وقد أرفق بها ثلاث كتب من تأليفه وهى : كتاب « الدين والحج » وكتاب « الدين والصلاة » وكتاب « الدين والحرم » وقد طالعنا هذه الكتب القيمة فوجدناها وافية شاملة لكل ما يتعلق بمواضيعها وقد أعجبنا بصورة خاصة بكتاب « الدين والحرم » وهو خلاصة جامعة لتاريخ الكعبة المعظمة والمسجد الحرام ومقام إبراهيم وبئر زمزم . ونحن نشكر مستمعنا الكريم على هديته القيمة ونرجو له كل توفيق ونجاح فى أعماله لخدمة البلاد الحجازية العزيزة فى ظل جلالة عاهلها العظيم الملك عبد العزيز آل سعود سدد الله خطاه .

أطلبوا!

كتاب الدين والصلاة

على المذاهب الأربعة

آياتها أحاديثها فروضها سننها كيفيتها آدابها

تأليف

الحاج عباس كرارة

الطبعة الثانية — حقوق الطبع محفوظة للمؤلف — ريال سعودى بمكة ١٠ قروش بمصر

بعض محتويات كتاب الدين والصلاة

على المذاهب الأربعة



يحتوى على تاريخ الكعبة المعظمة . ووصفها من الداخل والخارج
وعدد مرات بنائها ، والصلاة فيها

الطبعة الثانية	تأليف الحاج عباس كرارة	الثمن ١٠ صـ ع بمصر ريال سعودى بمكة

يطلب من مكتبه كراره بميدان السيدة زينب ت ٢٠٧٤٤ ومن جميع المكاتب بمصر

أهم محتويات كتاب الدين والحرم للحاج عباس كراره

الكعبة المعظمة

صورة الكعبة — وصف الكعبة من الخارج — صفة داخل الكعبة — مقاييس ارتفاع الكعبة — ميزاب الكعبة — باب الكعبة — الحفرة التى أمام الكعبة — بناء الملائكة للكعبة — بناء آدم للكعبة — بناء نوح للكعبة — شاذروان الكعبة — حكم بيع كسوة الكعبة — آداب دخول الكعبة — صفة الصلاة داخل الكعبة .

الحرم المكى

صورة الحرم المكى — مقاسات الحرم المكى — حدود الحرم المكى — وصف الحرم المكى — أبواب الحرم المكى — منبر الحرم المكى — مكبرات الحرم المكى — مآذن الحرم المكى — الصلاة بالحرم ،

الحجر الأسود

صورة الحجر الأسود — تقبيل الحجر الأسود — زارع الحجر الأسود — ما جاء فى عدم المزاحمة على الحجر الأسود — السجود على الحجر الأسود — تاريخ الحجر الأسود .

مقام إبراهيم

صورة مقام إبراهيم — تاريخ مقام إبراهيم — تطويق المقام بالذهب والفضة — وصع المقام فى مقصورة — كسوة مقام إبراهيم .

بئر زمزم

صورة بئر زمزم — تاريخ بئر زمزم — وصف بئر زمزم — ماء بئر زمزم — حديث بئر زمزم .

للمؤلف
تحت الطبع



شرعيتها ، حكمها ، صرفها



عن المذاهب الاربعة

شرعيته . حكمه . أدبه . سننه

تأليف واختيار : الحاج عباس كرارة

للمـــؤلف

تحت الطبع

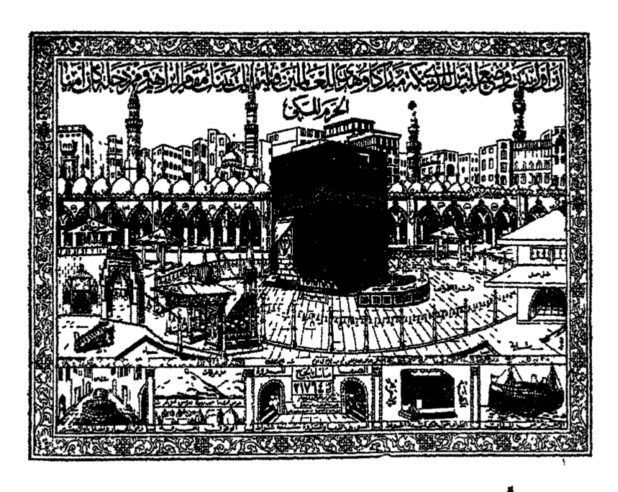


كتاب يرشدك كيف تحافظ على صحتك بالأوصاف الطبية القديمة والحديثة

إن أهم شيء للإنسان فى هذه الحياة هو أن يكون حائزاً على صحة قوية ، لأن الإنسان الهزيل البدن ، الضعيف البنية ، النحيل الجسم ، لا يمكنه أن يقاوم ما يعتريه فى حياته من أمراض وخلافه .

لذلك فقد وضع المؤلف (الحاج عباس كرارة) هذا الكتاب ليكون مرشداً لكل إنسان ، معاوناً له فى حياته ، ليكون ذا صحة قوية نشيط الجسم ، قوى البنية .

صورة الكعبة المعظمة والمسجد الحرام



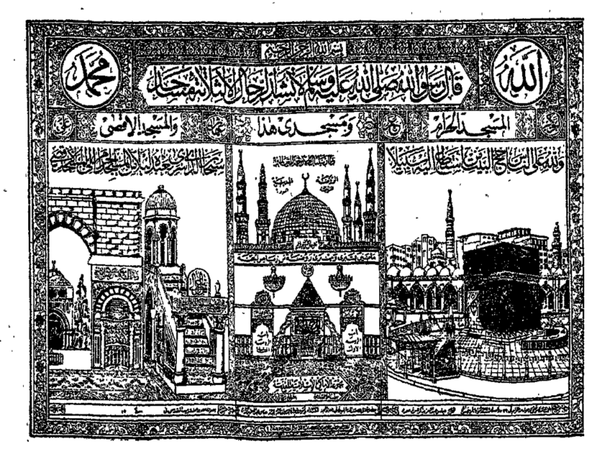
يظهر بأسفل الصورة مناسك الحج وهى : (١) الإحرام من الميقات (٢) الطواف حول الكعبة الشريفة . (٣) السعى بين الصفا والمروة . (٤) الوقوف بعرفة . (٥) الحلق أو التقصير ورمى الجمار بمنى .

وضع تصميم هذه الصورة صاحب الكتاب سنة ١٣٤٩ ﻫ سنة ١٩٣٠ م . وسجلت بالقلم التجارى بالمحكمة المختلطة بالاسكندرية بمحضر تحت نمرة ٢١٧٦٤ باسم الحاج عباس كراره ولا يجوز طبعها لغيره ، ومن يخالف ذلك يعاقب قانوناً .

وقد طبعت طبعاً متقناً على مقاسات مختلفة وملونة بالألوان الطبيعية

تطلب من مكتبة كرارة بميدان السيدة زينب بمصر ت : ٢٠٧٤٤

صورة مجموعة الأماكن الإسلامية المقدسة





بمكة المكرمة شارع المسعى أمام باب السلام زقاق البلدية القديمة

خلع الضرس بدون ألم ، عمل الكبارى الذهب والتلابيس للأسنان من عيار الجنيه . تركيب أطقم الأسنان بأنواعها على الباغة والكاوتشوك ، تصليح الأسنان المكسرة . . تنظيف الأسنان . . اتقان فى العمل.

TOOTHACHE SOLUTION	مسحوق الدانتون
دواء مسكن لألم الأسنان	مطهر للثة ضد العفونة
زجاجة ٥ جرام	يجعل الأسنان ناصعة البياض
ثمن الزجاجة ريال سعودى	العلبة ريال سعودى

يباع بعيادة كرارة بالمسعى بمكة المكرمة



اطلبوا
مفكرة الشباب السعودي
بمكة
وتقويم الجيب
١٣٧٢هـ - ١٩٥٢م
تصدرها سنويا
مكتبة التعاون العربية بمكة
لصاحبها أحمد عباس الباز وأولاده
تباع بجميع المكاتب الشهيرة بباب السلام بمكة



دعوة صريحة إلى التعاليم الإسلامية السمحة ، والتمسك بأهداب الفضيلة والعمل على قيام الدولة الإسلامية العاملة لنيل العزة فى الحياة الدنيا ، والفوز برضوان الله فى الدار الآخرى . بما فيها من هداية للناس فى أمر معاشهم وصحة أبدانهم ودينهم وإرشاد للفتاة كى تكون ربة بيت إسلامى ينشىء الطفل على الفضيلة والتربية الإسلامية وتعليم الزوجة حسن المعاشرة فتعين زوجها على بناء أسرة فاضلة قوية مع طرافة فى الموضوع وصراحة فى النقد وصدق فى الفتوى وقوة فى الدليل .

وهى بذلك لسان كل مسلمة مستنيرة بنور الكتاب الكريم وسنة النبي العظيم فاحرص على اقتنائها فى بيتك لأن الهدى والخير والبركة تحل حيث تحل.

صاحبة المجلة : السيدة زينب الغزالى الجبيلى رئيسة جماعة السيدات المسلمات

رئيس التحرير : الأستاذ محمد رشاد الشبراخومى .

ويعاونها نخبة من السيدات عضوات الجمعية والواعظات بها بإشراف مجموعة من أعلام الصحافة الإسلامية .

ثمن العدد ١٥ مليما وقيمة الاشتراك السنوى ١٠٠ قرش فى مصر والسودان وما يساوى ٣٠٠ قرشاً فى خارج القطر

الإدارة : ٤ شارع السيد البيلاوى بالحلمية الجديدة بمصر تليفون - ٤٧٢٦٦

يطلب كتاب الدين والشهادة بالجملة
من منزل المؤلف بشارع الكرجي رقم ٢٤

بشارع الترعة البولاقية أمام القسم القديم بشبرا مصر

ومن مكتبة عيسى البابي الحلبي تليفون ٥٠٨٥٦ بالحسين بمصر — ومن الاسكندرية من مكتبة محمد حلمى المنياوى ٤ ميدان اسماعيل ت ٢٦٢٧٨

ومن جميع المكاتب بالجهات الآتية :

مصر : ميدان السيدة زينب مكتبة كراره ت ٥٩٦٨٣

« مطبعة كرارة شارع محمد على ١٦٨ ت ٥٠١٥١

« الحسين شارع جوهر القائد : مكتبة ومطبعة كرارة ت ٥٠٧٦٨

« أول شارع محمد على : المكتبة التجارية الكبرى ت ٥٤١٨٠

« مكتبة الأهرام شارع محمد على ١٩٦ لصاحبها إبراهيم يوسف

« شارع عدلى باشا ؛ مكتبة النهضة المصرية ت ٥١٣٦٤

« مكتبة المشهد الحسيني لصاحبها عبد الحميد حنفى بالحسين .

« مكتبة عبد الرزاق محمود فهمى شارع فاروق رقم ٨

« الفجالة : مكتبة نهضة مصر ت ٥٠٨٢٧

« الفجالة ٧٢ المكتبة المصرية ت٥١١٥٢ لصاحبها عبدالله على شرف

« مكتبة وهبه ١٤ شارع ابراهيم باشا

قو باب اللوق شارع الفلكى مكتبة الوفد ت ٥٥٨٩٨ لصاحبها محمد محمود

فا؛ المكتبة العزيزية ٦٣ شارع الفجالة ت ٥٨٧٧٤

مصر مكتبة دار النشر ٢٦ شارع عبد العزيز .

« شبرا أمام مدرسة التوفيقية؛ مكتبة آمون ت ٤١٦٢٣ .
« مكتبة شبرا ومطبعتها بشارع شبرا أمام المدرسة التوفيقية رقم ٩٥
« مكتبة دار الفكر العربى شارع الساحة بجوار جريدة الأهرام
« مكتبة حجاج شارع محمد على ١٠٥
« الجيزة : مكتبة المنيرة الجديدة لصاحبها عبد العزيز مصطفى محمد
« مكتبة الخانجى ٩ — ١١ شارع عبد العزيز ت ٤٣١٤٨
« العباسية : مكتبة أحمد على زيد ت ٥٤٢٦٧
« المكتبة المحمودية التجارية بميدان الجامع الأزهر ت ٥٣٠٦٧
« مكتبة الثقافة : ٣ شارع المتديان ت ٩٧١٧٩ بالسيدة زينب
« مكتبة دار النشر الشرقية ١٤ شارع إبراهيم باشا
« مكتبة المؤيد بالقرب من ميدان باب الخلق
« مكتبة جيل ١٥٧ . أول شارع محمد على

المنصورة : مكتبة المعارف ت : ٢٣٩٨

الإسكندرية : مكتبة المعارف ميدان محمد على رقم ٢
« : « الجيل الجديد شارع مجرم بك رقم ٤٧
« : « الثقافة شارع العطارين .

طنطا : مكتبة تاج لصاحبها الحاج إبراهيم مصطفى تاج

الفيوم : مكتبة ابن حنظل شارع درب حرازه لصاحبها محمد كامل .

خارج القطر

جدة : مكتبة عبد الرحمن أحمد باصبرين بسوق الندى

الحجاز : الرياض ، مكتبة الشنقيطى محمد عبد الرحمن

مكتبة : مكتب عبد الله فدا وإخوته بباب السلام

المدينة المنورة : باب الرحمة مكتبة ضياء الدين

قسطنطينية : مكتبة جزيرة النجاح

سوريا : مكتبة النجاح بحلب : محمد أفندى صالح منجد

بيروت : محمد أفندى صالح منجد ـــ مكتبة النجاح بحلب

عدن : المكتبة العربية لصاحبها عبد الحميد حاج عبادى

الجوائز : (نهج ديكاس عدد ١٩ قائمة) الشيخ عبد الحج بن يوسف

« : جزيرة الطائر جمعية العلماء

بغداد : « « « نعمان الأعظمى

غزة : فلسطين ، شارع الحبوب حسين وعلى دييب زين الدين .

تونس : مكتبة جزيرة الزهراء

بر سودان : مكتبة ابراهيم مرزوق

البحرين جملة صوت البحرين

الهند : فضيلة الأستاذ السيد أحمد رضا ـــ دابهيل سورت

محتويات الكتاب

للمؤلف :

1 — كتاب الدين والحج على المذاهب الأربعة .

2 — « « والصلاة « « «

3 — « « والحرم : تاريخ الكعبة والمسجد الحرام .

4 — « « والأدب للرجال والنساء .

5 — « « والتاريخ حياة محمد مولده ، بعثته ، هجرته ، غزواته ، وفاته

6 — « « والشهادة : معنى الشهادة والتوحيد

7 — « « والزكاة : شرعيتها ، حكمها ، صرفها تحت الطبع

8 — « « والصوم : شرعيته ، حكمه ، أدبه ، وصفه « «

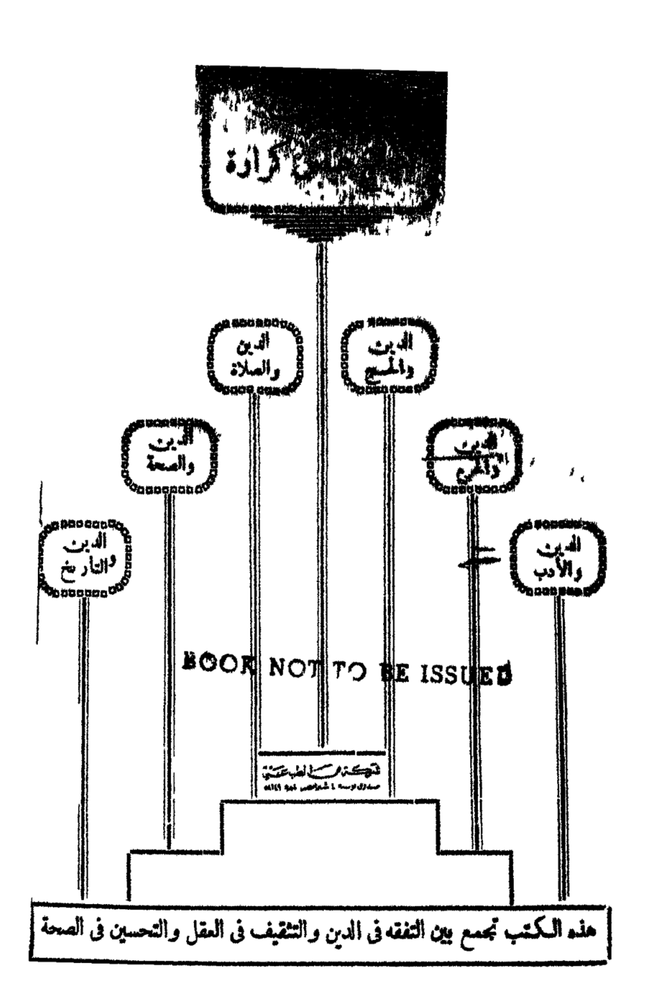
9 — « « والصحة جامع بين الطب النبوي والحديث والقديم « «

تطلب الكتب الموضحة من منزل المؤلف بشارع الكرجى

رقم ٢٤ بالترعة البولاقية بشبرا مصر

تم طبع هذا الكتاب بتاريخ ١٠ شوال سنة ١٣٧١ هجرية

شركة فن الطباعة



هذه الكتب تجمع بين التفقه فى الدين والتثقيف فى العقل والتحسين فى الصحة